هذا العدد

يحتوي هذا العدد المزدوج لشهري نيسان وأيار على مقالات فكرية ونقدية وحوارات أدبية وفنية، وعروض كتب ورسائل ثقافية، وفي العدد ملف يوميات وكتابات فكرية وأدبية حول فكرة الإقامة الجبرية في البيت، بسبب الجائحة الكبرى التي عصفت بالعالم، بفعل انتشار فايروس كورونا القاتل.

في المادة الحوارية استضافت "الجديد" من أميركا المستعرب البريطاني - الأميركي روجر ألن متحدثا حول تجربته المديدة مع الأدب العربي باحثا وناقداً ومترجماً. واستضافت المجلة من لبنان الروائية اللبنانية علوية صبح في جلسة مطوّلة حول أدبها الروائي ونظرتها إلى الكتابة وعلاقتها بالشخصيات النسائية التي ابتدعتها في رواياتها. الحوار الثالث في العدد جاء من دبي مع المصور الفوتوغرافي السوري بنكين أحمد الحائز على العديد من الجوائز الدولية، وآخرها جائزة التاج التي يمنحها الاتحاد العالمي للتصوير الضوئي، ومقره إيطاليا. في هذا الحوار نتعرف على آراء الفنان الفوتوغرافي الذي يعتبر الوجه الإنساني كتاباً، والتصوير كتابة بالصورة.

الروائي بالإيطالية يوسف وقّاص الذي يعيش في مقاطعة لامبارديا منذ عقود، خص "الجديد" بنص أدبي بديع طالع من قلب المحنة الكبرى التي يشهدها هذا الجزء من إيطاليا. والناقد والدبلوماسي الفلسطيني عبدالرحمن بسيسو قدم نصا فكرياً يقرأ التحولات العاصفة التي يمر بها العالم اليوم في ظل صراع متعدد الأوجه للقوى الكبرى في العالم على مصادر الثروة والأسواق ومصادر الهيمنة في ظل الطور الأكثر تعقيداً للتطور الاقتصادي في عالم تتسع فيه هيمنة منظومة الرأسمال الافتراضي.

احتوى ملف العدد على يوميات ونصوص سردية ومقالات هي عبارة عن أفكار وانطباعات وانفعالات تتعلق بفكرة الإقامة القسرية في البيت، وضعها 25 كاتبة وكاتباً عربياً من: المغرب، تونس، العراق، مصر، الجزائر، لبنان، فلسطين، سوريا، السعودية، سلطنة عمان.

أخيراً لا بد من الإشارة إلى أن هذا العدد من «الجديد» سيحتجب ورقيا بفعل ظروف انتشار فايروس كورونا وتوقف الطباعة الورقية، وينشر إلكترونيا في نظام الـ«PDF» وستواصل المجلة صدورها إليكترونيا كالعادة، وسيكون موعد القراء مع «الجديد» ورقيا حال انجلاء كابوس كورونا وعودة المطابع إلى العمل ■

المحرر

■ لوحة الغلاف للفنان فؤاد حمدي

الجديد
aljadeedmagazine.com

مؤسسها وناشرها
هيثم الزبيدي

رئيس التحرير
نوري الجراح

مستشارو التحرير
أزراج عمر، أحمد برقاوي
عبد الرحمن بسيسو، خلدون الشمعة،
خطار أبو دياب، أبو بكر العيادي
ابراهيم الجبين، رشيد الخيون، هيثم حسين
أمير العمري، مفيد نجم، عواد علي

التصميم والإخراج والتنفيذ
ناصر بخيت

رسامو العدد:
فؤاد حمدي
نهاد ويشو
كيفورك مراد
تانيا الكيالي
ميموزا العراوي
عمر إبراهيم
ساشا أبو خليل

التدقيق اللغوي:
عمارة محمد الرحيلي

الموقع على الإنترنت:
www.aljadeedmagazine.com

الكتابات التي ترسل إلى «الجديد» تكتب خصيصاً لها
لا تدخل المجلة في مراسلات حول ما تعتذر عن نشره.

تصدر عن
Al Arab Publishing Centre
المكتب الرئيسي (لندن) UK
1st Floor
The Quadrant
177 - 179 Hammersmith Road
London
W6 8BS
Dalia Dergham
Al-Arab Media Group

للاعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي
للافراد: 60 دولارا. للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.

ISSN 2057- 6005

المحتويات

العدد 64/63 - أبريل/ مايو 2020

كلمة

غرفة تسكنها الجدران 4
أهي نهاية الشوط المرح في الماراثون الإنساني؟
نوري الجراح

مقالات

فكر المستقبل 6
الإجماع المتقاطع واستقرار المجتمعات
علي رسول الربيعي

إعادة تكوين العالم 10
إبدال نظام التحريم الكلي بالحرية
عبدالرحمن بسيسو

غابة المحرمات 18
لا تدخل دون أن تتسلّح بالرّموز
سفيان رجب

خارج الكلام وخارج الصمت 22
المرأة والكتابة وجسد اللغة
هيفا نبي

"الجولم" في المخيال الشعبي اليهودي 126
نهلة راحيل

العزلة صانعة العظماء 130
مخلص الصغير

قص

أيامي القادمة 26
يوسف وقّاص

حوار

روجر ألن 32
حِكايتي العربية

علوية صبح 120
صورة المرأة

ملف/ الكوكب الأسير
تأملات وأفكار ويوميات المعتزلين في البيت

فسحةُ تأمّلٍ في ضيافة الحَجْر 42
محمد برادة

عزل متبادل 44
أبوبكر العيادي

أغلفة العزلة 48
حاتم الصكَر

ماذا أفعل في البيت؟ 52
فاطمة بن محمود

الخروج من الجنة 62
خيري الذهبي

الحياة يا لها من كلمة عزيزة 66
فاروق يوسف

الوجود قاعة انتظار 68
حميد زناز

سيد العزلة 70
أمال بشيري

عزلتنا وهشاشتنا 72
هيثم حسين

بداية النهاية 76
ممدوح فرّاج النّابي

حين يصبح الحجْر عملاً مسلّياً 84
بهاء إيعالي

الصدمة المربكة 86
محمد بن زيان

مصاباً بفايروس الكتب 88
محمد الحجيري

عزلتي المثمرة 92
عواد علي

كيف تجد معنًى لأيامك في العزل 96
ناهد راحيل

تسمع ضربات قلب جارك العجوز وهو يصعد الدرج 100
أكرم قطريب

جائحة الحلم الجماعي 102
رحاب أبوزيد

إشراقة البيت 104
زاهر الغافري

عزلة البيت فرصة للصمت 106
محمد ناصر المولهي

المعلق على جسر النرجسية البشرية 108
كمال بركاني

أنا الآن، منذ اليوم، غيري 110
ميموزا العراوي

البقاء في البيت بعيداً عن الخطر 112
علال سنقوقة

غرق مركب من ورق رسائل الإقامة الجبرية 116
وسام كنعان

كتب

كن كثرة في واحدٍ وتجنب الحشد 136
رسائل الفيلسوف الرواقي سينيكا في ترجمة فاتحة
الطيب الحصني

مأساة الراهن 142
رواية "المايسترو" لسعد القرش
حمزة قناوي

المختصر

عواد علي 146

رسالة دبي

بنكين أحمد 150
الكتابة بالكاميرا

الأخيرة

إحباط فايروسي 160
اكتملت حكاية الآخرين فمتى تبدأ حكايتنا؟
هيثم الزبيدي

غلاف العدد الماضي مارس/آذار 2020

غرفة تسكنها الجدران
أهي نهاية الشوط المرح في الماراثون الإنساني؟

سؤال هو مظلة لأسئلة جمة تبادرت إلى الذهن بينما العالم يعبر أفواجاً عزلاء هذا البرزخ المسمّى كورونا، في محاولة للعثور على صيغة من نوع ما للجواب عن سؤال وجودي عابث: ما العمل؟ مصحوباً بصيغ شتى لقضاء الوقت بين أربعة جدران.

"غرفة بملايين الجدران".. تستعيد ذاكرتي، الآن، هذا العنوان لشاعر عربي لم يعد بيننا، شاعر كتب يوميات حياته في النصف الثاني من القرن العشرين شعراً أقرب من الشفاهة، في لغة لم تطلب الإدهاش بمقدار ما أرادت إعادة تعريف البداهة، واستنكار غرابة الواقع عن طريق لعبة المفارقة، على الرغم من خروجه الكامل على التقاليد الفنية التي عرفها الشعر العربي حتى قيام ثورة الشعر الحر في أواسط القرن الماضي. لكن هل يمكن تطوير هذا العنوان، اليوم، ليحمل معنى مستجدا مع ما استجد في العالم من كوارث بعد عقد على رحيل هذا الشاعر.

والسؤال الآن، هل قصد محمد الماغوط أن العالم غرفة بملايين الجدران عندما أطلق على مجموعه الشعري هذا العنوان.

***

إنه هو إذن، العالم، بكل ما يصخب ويعتمل ويضجّ فيه، محض غرفة كبيرة تسكنها الجدران وفي ما بين الجدران بشر في حشر قيامي.

(اكتب يومياتك، أفكارك، تصوراتك، بصدد اللحظة وما سيليها). هذا ما طلبه محرر "الجديد" من كتابها المنتشرين على خارطة الآلام العربية مشرقا ومغرباً ومنفى انتشر على أربع جهات الأرض.

***

ماذا تفعل في البيت، حاجرا نفسك، ومحجورا عليك؟ كيف تقضي وقتك؟ في القراءة؟ في النوم؟ في سماع الموسيقى؟ في المشي في الغرفة؟ هل تشعر أنك سجين؟

هل تفكر بأنك مهدد، وأنك ضعيف ولا حول لك؟ أم أنك تشعر بأنك قويّ، وتدّخر قوتك لفصل آخر، في منازلة وجودية مع عدوّ لا قبل لك به ولا سابق له في تجاربك؟

ماذا تعنيه لك هذه التجربة، أن تكون مهدداً بالمعنى الوجودي للكلمة..؟

هل تقوم بجلسات مراجعة صامتة مع نفسك؟ مراجعة لحياتك؟ لمسيرتك الشخصية؟ لما فعلت وما لم تفعل؟ لما كنت تحلم به وما صرت إليه؟

هل أنت خائف من يوم غد؟

هل تشعر أنك في واقعة غريبة مدبرة من قوة كبرى؟ أم تشعر بأن ما يجري هو ضرب من تمرد الطبيعة ولحظة من لحظات معاقبتها للإنسان لسبب ما؟

هل حملت الجائحة الكونية مخيلتك على استدعاء أفكار وخواطر قيامية كنهاية العالم وما شابه؟ هل ذكّرتك بكتب ما من مؤلفات الخيال العلمي أو فيلم سينمائي أو لوحة تشكيلية أو فصل من فصول الكوارث في كتب التاريخ؟

كيف تتخيل نهاية هذا الكابوس الإنساني؟ هل تظن أن قوة الدول والعلم والتطور الطبي ستكون كافية لابتكار علاج ينجي البشر من هذا الفايروس القاتل. هل أنت متفائل؟ هل لديك توقّع لما يمكن أن يحدث للبشر حتى ذلك الوقت؟

هل تظن أن شيئاً أساسيا سيتغير فيك وفي من حولك، في حياتك وتفكيرك وفي حياة وتفكير الناس ومستقبل العلاقات في ما بينك وبين من حولك وبينهم وبين العالم، بفعل هذه التجربة؟

***

ما سلف أسئلة لها أجوبة، ولكن ماذا عن الأسئلة التي أرجأت أجوبتها؟ الأسئلة التي مكرت بها أجوبتها؟ الأسئلة التي حارت بها أجوبتها، في عالم فقد مرحه فجأة، واكتشف أن الأرض ليست كروية وحسب، وأن أشكالها الأخرى ما تزال لم تجد أسماءها بعد.

أهي نهاية شوط مرح في الماراثون الإنساني، أم مجرد مرحلة في سفر عبثي؟

مرة في المتحف المصري، بعد رحلة شاقة في جوار هرم خوفو، وبعد ساعة في تأمل هذا الكائن الغريب المسمّى أبا الهول بجسمه الضخم ونظرته المتعالية. إذا بي مرة واحدة أمام لجام زجاجي وأبي الهول بحجم حبة الفاصولياء. أهي الإحاطة بكل شيء مهما كبر ومهما صغر، أم هو إدراك مبكر لقيمة المتناهي في الصغر، يبدو أن العبرة لم تبلغ مداها، ولم تستولِ على مخيلة الإنسان، ليكون أكثر احتراما للمتناهي في الصغر.

***

والآن، بات لزاما على الإنسان أن يحترم القدرة اللامحدودة لما صغر حتى بات لا يُرى بالعين المجردة.

***

ماذا تفعل أيها العالم في غرفتك المسكونة بملايين الجدران؟ وأنت أيها المقيم في الحقيقة وفي مجازها؟ هل تفتح النافذة لتستقبل الهواء، أم أن يدك ترتجف وتتردد؟ فلعل شعيرات الموت تطيش هي الأخرى قرب النوافذ، وقد حملت ذراتها اللامرئية رماد الأرض إلى رئات الهاربين من غموض الطبيعة إلى غموض الكلام، ومن التباس الفكرة إلى التباس اللغة.

ماذا تفعل أيها العالم بيديك اللتين صنعتا الجمال وأفسدتا هواء الرئتين؟

***

اكتب يومياتك، أفكارك، تصوراتك، بصدد اللحظة وما سيليها. ثم اكتب قصة متخيلة من 10 سطور أو أكثر أو أقل، عن أسوأ شيء ممكن أن تتخيله أو تتوقعه؟ أو أطرف شيء؟ أو أسعد شيء يتعلق بما أنت فيه الآن؟

***

هل يعقل أن يطلب شخص مثل هذا الطلب المترف من حملة أقلام ضجوا في غرف لم يتخيلوا أن يجدوا أنفسهم سجناء بين جدرانها، وقد حاروا ماذا يفعلون بأيديهم، في برهة من الزمن لم يتخيل أيّ منهم، لا في أطرف القصص ولا في أكثرها سوداوية أن يكونوا أبطال هذه الواقعة؟

إذا لم تشعر أن هذه النقاط هي ما يقبض على حالتك أو يفتح لها باباً وأنك في منطقة تفكير أخرى مختلفة، وأنك منشغل بشيء آخر. أرجو أن تمسح هذه السطور.

وتنسى أنك قرأت..

ولكن هاتِ سطرك أنت أيها الكاتب ■

نوري الجراح

لندن- نيسان/أبريل 2020

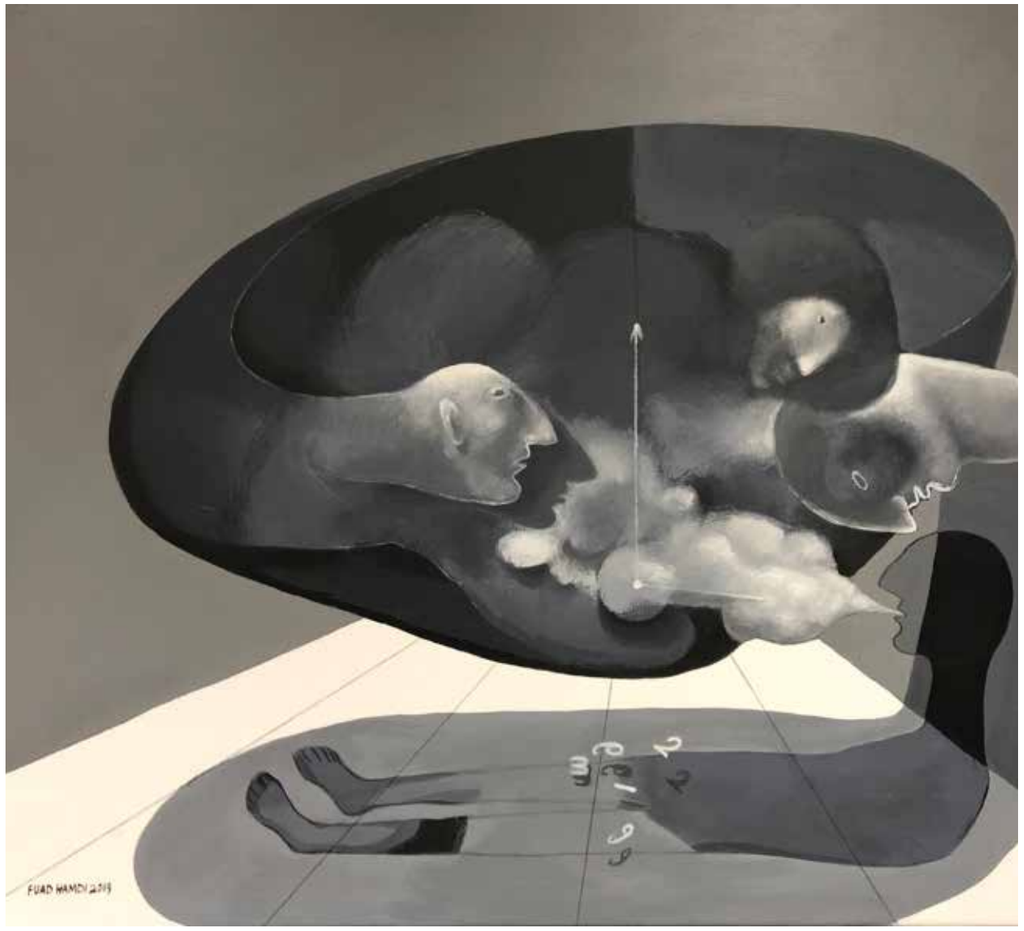

فؤاد حمدي

مقال

فكر المستقبل

الإجماع المتقاطع واستقرار المجتمعات

علي رسول الربيعي

يبدي الكثير من الباحثين والسياسيين اهتمامًا كبيرًا بفكرة "الإجماع المتقاطع" أو "الإجماع المتداخل" بمعنى "توافق الآراء" الذي اقترحه الفيلسوف الأميركي جون راولز. إن قراءة متأنية من أجل تقديم فهم مختلف لهذه الفكرة، تمكننا من القول إن هناك ثلاثة مستويات من "الإجماع المتقاطع". الأول، أن يتعامل الأشخاص ذو المواقف المختلفة مع بعضهم البعض بالموقف المعقول والمقبول نفسه. الثاني، أن يدعم الأشخاص الذين يحملون قيمًا مختلفة المعايير نفسها على أساس قيمهم الخاصة أو عن طريق أخذ بالاعتبار وجهات نظر بعضهم البعض في الخطاب الأخلاقي. الثالث، أن الأشخاص الذين لديهم "مصادر أخلاقية" مختلفة للمعايير المشتركة مع الآخرين، ومع ذلك أنهم على استعداد للمشاركة في عملية الحصول على معرفة مشتركة تهدف إلى "دمج الآفاق" في المستقبل. لا ينبغي مناقشة الإجماع المتقاطع على هذه المستويات فقط، أي في الفلسفة السياسية، أو اكتشافها في الثقافة السياسية، ولكن في الممارسة السياسية أيضًا.

تم الاعتراف على نطاق واسع بتنوع القيم أو تعدديتها كميزة رئيسية في عصرنا على الصعيدين الدولي والمحلي، حيث تعتبر هذه الظاهرة سببًا رئيسيًا لجهود عديد من البلدان لتعزيز "عالم متناغم" في الخارج و"مجتمع منسجم" في الداخل. وأن تبرير "عالم متناغم" و"مجتمع منسجم" بهدف إنجاز ما يمكن أن نسميه "وئام دون توحيد" كما تصف هذا الوضع حكمة الشرق القديمة. إنه ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح "البحث عن أرضية مشتركة مع الاحتفاظ بالاختلافات" الذي تبناه مؤتمر باندونغ في عام 1955، أو شعار "الوحدة في التنوع" أو "الوحدة" في الاختلاف" الذي رفعه الاتحاد الأوروبي.

تتضمن هذه التسميات أو المصطلحات الثلاثة، في رأيي، فكرة هي أننا يجب أن نحترم التنوع بالإضافة إلى الوحدة، ولكن لا يوضح أيّ منها كيف يرتبط هذان الجانبان بسلاسة مع بعضهما البعض. يذكرنا هذا بفكرة "الإجماع المتقاطع"، التي يستعملها داعيتها الرئيس، جون راولز، وآخرون، للتعامل مع قضية الاستقرار السياسي في المجتمعات المحلية التعددية وقضية الثقافات المتعددة وحقوق الإنسان على المستوى العالمي. من أجل معرفة أكثر وضوحًا ما إذا كان هذا المفهوم مفيدًا في الإجابة عن المشكلة التي تتعلق بالتنوع والوحدة في الوقت نفسه، فإننا سنناقش الأفكار التي يقترحها المفكرون في مختلف البلدان والمدارس الفكرية لتفسير هذا المفهوم. أريد أن أزعم أن هذه الفهومات المختلفة لفكرة "توافق الآراء" أو "الإجماع المتقاطع" يمكن قراءتها كتوصيفات لمستويات مختلفة من الإجماع المتداخل التوافقي الذي يمكن الوصول إليه في تعاملنا مع التعددية بهدف "الاستقرار الاجتماعي" طبقاً لراولز. هذا يعني أيضًا أنه يمكن التغلب على بعض أوجه القصور الموجودة في كل من هذه الأفهومات، وخاصة في الصيغة الأكثر شهرة وهي صوغ راولز للفكرة، من خلال التكامل المتبادل بينهما.

أريد أن أثير في هذا السياق سياق فكرة الإجماع المتقاطع، مسألة العلاقة بين النظرية والتطبيق، وهي محور اهتمام دائم لاسيما في التقليد الماركسي. في رأيي، يعتبر الوصول إلى توافق في الآراء بين الناس وبين الشعوب، ممارسة تاريخية المطلوب أن نشارك فيها جميعًا بطريقة معقولة.

تستحق بعض أفكار لي زيهو في كتابه (الأنطولوجيا التاريخية الصادر من دار بكين، 1999 الذي سنعود اليه دائما هنا) اهتمامنا في هذا الصدد بوصفه أحد أهم الفلاسفة الصينيين المعاصرين، أي كفكر من أقصى الشرق يثني على أفكار فيلسوف من أقصى الغرب، أقصد على فكرة راولز حول "الإجماع المتقاطع"، وأحد المفاهيم الأساسية التي تتعلق بالتمييز بين "الحق" و"الخير". يرى لي زيهو أن هناك نوعين من الأخلاق، يسمى أحدهما "الأخلاق المجتمعية"، والآخر "الأخلاق الدينية". تهتم الأخلاق المجتمعية بمشكلة الحق، بينما تهتم الأخلاق الدينية بمشكلة الخير. يقول لي زيهو "تتفق نظرية راولز حول الإجماع المتقاطع مع هذا التمييز تمامًا، وهذا يعني فصل معايير العمل ومبادى الحياة في مختلف المجتمعات والمناطق والبلدان والثقافات في العالم الحديث عن العقائد والمعتقدات والعواطف والأخلاق التي تروّج لها مختلف تقاليد الأديان و'العقائد'، وقطع العلاقات السببية لهذه المعايير والقواعد في المعنى التاريخي والنظري. لا نحتاج، على سبيل المثال، لتتبع مطالب الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية في المجتمعات الحديثة العودة إلى المسيحية أو الثقافة اليونانية؛ يجب أن نعترف بوضوح بأن هذه المبادئ السياسية والقانونية يتم اتباعها عادة في العلاقات الحديثة بين الأشخاص".

نهاد ويشو

تعبر الجملة الأخيرة من المقطع المذكور أعلاه عما يعتقد لي زيهو أنه فهمه الخاص أو إسهامه الخاص في فهم فكرة "الإجماع المتقاطع". لا يبدو أن رولز، وفقًا لما قاله لي زيهو، قد قدم تفسيراً واضحًا للسؤال عن كيف يمكن تحقيق الإجماع المتقاطع على مستوى الأخلاق السياسية المنفصلة عن التقاليد الدينية أو الثقافة أو المعتقد ومن أين يأتي ذلك الأجماع. يعتمد رد لي زيهو على هذه المشكلة على الأطروحة الماركسية الكلاسيكية القائلة بأن القانون والأخلاق باعتبارها بنية فوقية يتحددان على أساس الحياة الاقتصادية والمادية، فالموضوعية الشاملة والعالمية لما يسمى "الأخلاق المجتمعية الحديثة"، كما يقول لي زيهو، تأتي من تقارب العالم أو الاندماج في حياتنا الاقتصادية. وإن التغييرات في حياتنا الأخلاقية والروحية، نتيجة للتقارب في حياتنا المادية اليومية، بما في ذلك الضروريات الأساسية للحياة، والرعاية الطبية، والعمل، والنقل، والترفيه، والمعلومات، وما إلى ذلك، أنه لا مفر منها في اتجاه تنامي الوعي الذاتي للفرد وتحريره واستقلاله. فيقول: وهذا هو "ما تطلبه الليبرالية والأخلاق المجتمعية الحديثة".

إن للأفراد فقط الالتزام بالحد الأدنى من الواجبات في الحياة الحديثة، واتباع الحد الأدنى من القواعد أو المعايير العامة، مثل الاحتفاظ بالعقود، ورعاية الممتلكات العامة، واحترام النظام، واتباع القواعد الأخلاقية المهنية، والوفاء بالخدمة العسكرية الإلزامية، وتجنب إلحاق الأذى بالآخرين.. إلخ. إن انتهاك هذه المطالب "غير أخلاقي" بغض النظر عما إذا كانت انتهاكًا للقانون أيضًا، لأنها تضرّ بترتيب حياتنا المشتركة وحقوق الآخرين على رأي لي زيهو.

يؤكد لي زيهو على أهمية مشكلة الأساس التاريخي أو الواقعي لفكرة " الإجماع المتقاطع" وهو محق في ذلك. فهذه المشكلة مهمة لأن الكثير من الناس في هذه المجتمعات الثقافية المختلفة يقبلون ويتبعون المعايير أو المبادئ نفسها، لذا المطلوب شرحها وتفسيرها لهم من منظورين على الأقل. من ناحية، تعتبر هذه المعايير المقبولة عالميًا متطلبات وظيفية للأنظمة التي تقود حياتنا ونعيش بها بالمعنى الحديث؛ وطالما تعمل هذه الأنظمة، فهذه المعايير لها قوة ملزمة يتعيّن علينا الخضوع لها. من ناحية أخرى، نتيجة لحياتنا في هذا العالم الحديث حيث يتم اتباع هذه المعايير كقاعدة، فإننا نميل إلى استيعابها واستبطانها؛ أو، بعبارة أخرى، لقد أصبحنا اجتماعيين بشكل أو بآخر بطريقة تنظمها هذه المعايير. ولا يفسر هذا سبب وجوب اتباع هذه القواعد المشتركة فقط، ولكن أيضًا لماذا نحن على استعداد دائمًا لأتباعها. تقع على النظريات الأخلاقية إعطاء إجابة مبررة من الناحية النظرية على السؤال "الحديث" المشهور "لماذا نكون أخلاقيين على الإطلاق؟". لكن طالما تعمل، ما أطلق عليها لي زيهو "الأخلاق المجتمعية"، بشكل جيد بالنسبة إلى الأشخاص العاديين الذين خضعوا لعمليات تنشئة اجتماعية طبيعية، فليست هناك مشكلة بالمعنى الحقيقي. إن مشكلة "لماذا تكون أخلاقية؟" (أو "لماذا تكون أخلاقية بالطريقة التي تحددها" الأخلاق المجتمعية بالمعنى الذي يقول به لي زيهو؟) تم حلها من الناحية النظرية، وفي الممارسة أو في الحياة اليومية. وهذا الحل متضمن فكرة ماركس التي تقول " تجد الألغاز التي ضلّت النظرية حلّها العقلاني في الممارسة الإنسانية وفي فهم هذه الممارسة". وكما يقول كارل ماركس في "أطروحات عن فيورباخ" رأيه الأكثر شهرة "لقد قام الفلاسفة بتفسير العالم فقط، بطرق مختلفة؛ لكن الهدف من ذلك هو تغييره"، ومن هنا جاءت الفكرة الماركسية حول أولوية "تغيير العالم" على "تفسيره". لا ينبغي لنا، وبالروحية نفسها، أن نبحث عن الأساس الفعلي للرغبة أو للاستعداد لأتباع المعايير المشتركة فقط، ولكن البحث عن الأساس الفعلي لرغبة كل منا في احترام "المصادر الأخلاقية" للمعايير المشتركة أيضًا. علاوة على ذلك، لا ينبغي لنا أن نبحث عن الجهود الفعلية لبناء الأساس الفعلي للرغبة في اتباع المعايير المشتركة فقط، ولكن نحترم مبررات ودوافع الآخرين التي تستند إلى قيم لأتباع هذه المعايير في الوقت نفسه. إن الإجماع المتقاطع "ليس مجرد فكرة تمت مناقشتها في الفلسفة السياسية، ولا مجرد حقيقة مكتشفة في الثقافة السياسية، ولكن هدف يجب أن نسعى لتحقيقه في الممارسة السياسية أيضًا".

ولكن لا يكفي، في رأيي، رؤية الضرورة الوظيفية للمعايير الاجتماعية المشتركة والآلية النفسية لاتباع هذه المعايير فقط. فلا ينبغي لنا، على وجه الدقة، إهمال بُعد صحة المعايير أو اختصار مشكلة صلاحيتها بمشكلة واقعها. ترتبط هاتان المشكلتان ارتباطًا وثيقًا وعلينا اكتشافها من خلال دراسة التاريخ الفكري العربي/الإسلامي في العقود الماضية. لكن لا تعني العلاقة بينهما تكامل الاثنين أو اندماجهما. ولا ينبغي لنا أن نفسر ونوضح كيف ولماذا يتم قبول معايير "الأخلاق المجتمعية" بشكل شامل ولكل شخص فقط، ولكن أن نفسر ونشرح أسباب لماذا تستحق هذه المعايير أن تكون مقبولة بشكل شامل ولكل شخص أيضًا. يجب ألا نقبل أيّ شيء "كواجب" لأنه ببساطة أصبح "موجودا" أو بسبب التنبؤ بأنه سوف يصبح "موجودا". هناك دائمًا عناصر متعددة وممكنات في الواقع، ونحن بحاجة إلى اتخاذ قرار بشأن هذه العناصر والإمكانيات التي يجب حفظها أو تطويرها أو تحقيقها، والتي يجب تقليلها أو حتى إزالتها من ناحية. ومن ناحية أخرى، نحن الآن في وضع تكون فيه وسائلنا التقنية لإعادة بناء بيئتنا وحتى على مستوى الكرة الأرضية ككل قوية جدًا لدرجة أن بعض إساءة استخدام هذه الوسائل يمكن أن يؤدي إلى عواقب قد لا تكون لدينا وأجيالنا القادمة على الأرجح فرصة للتعويض. ومن هذا المنظور، يمكن أن تكون لأطروحة ماركس الشهيرة "يصنع البشر تاريخهم الخاص، لكنهم لا يصنعونه كما يحلو لهم؛ فهم لا يصنعونه في ظل ظروف يختارونها بأنفسهم، ولكن في ظل الظروف المعطاة أو التي يجدونها قائمة، وموروثة من الماضي" (كارل ماركس - برومير الثامن عشر لويس بونابرت قراءة جديدة). صحيح أننا لا نصنع تاريخنا كما يحلو لنا، ونصنع دائمًا التاريخ في ظل ظروف قائمة مستقلة عن إرادتنا وآتية من الماضي. لكن، إذا كانت لدينا فقط، وأعتقد أن لدينا، مساحة صغيرة لاختيار القيام بهذا وليس ذاك، فينبغي أن نكون واضحين في حقيقة أن خيارنا الآن سيصبح على الفور جزءًا من "الظروف القائمة والتي عثرنا عليها مباشرة، وأنها ستكون منقولة أو موروثة من الماضي بالنسبة إلى الأجيال اللاحقة". ونظرًا لحجم القوة التكنولوجية التي لدى البشرية في هذا العصر، فيمكن لخطأ صغير نرتكبه الآن أن يحدث فرقاً كبيراً في المستقبل. وبهذا المعنى، لدينا مسؤولية تجاه أجيالنا المستقبلية لا تقل عن أيّ أجيال سابقة كانت تتحملها أجيالها اللاحقة. من غير المنطقي والخطير في ظل هذا الشرط التأكيد على أولوية التغييرات الاجتماعية أكثر من التغييرات الأخلاقية وتبرير الصلاحية الشاملة العالمية لمعايير العمل العامة من حيث التقاء الحياة الاجتماعية والمادية فقط.

إن السبب وراء ضرورة أخذ فكرة الإجماع المتقاطع على محمل الجد، في الواقع، هو حقيقة أن العولمة الاقتصادية المتسارعة التي تعززها تكنولوجيا المعلومات ونظام التجارة العالمي لديها ميل إلى تسوية الاختلافات الثقافية وتجانس مناطق ثقافية مختلفة في العالم. دون تنظيم عملية هذه العولمة العملية، ستجد الحياة الاجتماعية والمادية "أرضية موضوعية" ليس فقط من أجل الصحة العالمية للمعايير الثقافية العابرة للعمل الاجتماعي، ولكن أيضًا لقمع واستبدال أو الحل محل التنوع الثقافي والقيمي. المطلوب أن نكون جادين في فكرة الإجماع المتقاطع من أجل مقاومة "الميل الموضوعي" للتجانس والحد من الثقافات والقيم المتعددة.

لذا تحتاج الأطروحة الماركسية حول العلاقة بين النظرية والتطبيق، إلى دراسة جادة وفهم متجدد عند تطبيقها في مناقشتنا فكرة الإجماع المتقاطع. استصواب الإجماع المتقاطع وإمكانية توافق الآراء في أيامنا هذه مسألة نظرية وعملية، وينبغي النظر إلى الاتصال الوثيق لهذين الجانبين.

أولاً، تعني "الممارسة" هنا الجهود المشتركة للناس على مستوى المجتمعات المحلية أو الدولية. والاعتراف بأنه في كلا النوعين من المجتمعات هناك مهمة لإقامة "إجماع متقاطع"، ولا بد أن نكون واضحين في التمييز بين الحالتين: فبينما حدود المجتمع المحلي عادة هي نفسها الدولة ذات السيادة، لا توجد حكومة عالمية للتفاعل مع المجتمع الدولي. لذلك، من المهم جدا بذل المزيد من الجهود لدراسة حدود وخصائص "التعددية" و"التوافق" في كل حالة بذاتها.

ثانياً، تعني "النظرية" هنا التسويغ النظري لكل من الصلاحية الشاملة العالمية للمعايير والتوافق المتبادل بين المعايير العامة والقيم الخاصة. كلا النوعين من التسويغ صعب، والأخير هو الأكثر صعوبة. إن اعتبار "الإجماع المتقاطع" بلا معنى لا يجد عندها التوافق المعايير والقيم ما يستند إليها.

وأخيراً وليس آخراً، لا يعني "الجمع" بين النظرية والتطبيق هنا أن يهتم المتخصصون في التنظير أكثر بالأساس العملي لنظرياتهم وأولئك المتخصصون في التطبيق أو الممارسة يجب أن يهتموا أكثر بالتوجيه النظري فقط، ولكن يعني أيضًا أن كلا النوعين من الأشخاص عليهم أن يحاولوا الجمع بين المواقف النظرية والعملية في كيفية أداء عملهم وكذلك في ما يفعلونه. فمن ناحية، أن يدرك أولئك الذين من المفترض أن يقوموا بعمل نظري أنهم "يغيرون" العالم من خلال "تفسير العالم" في عالم مليء بالكلمات الأساسية مثل "الاقتصاد القائم على المعرفة "، "عصر المعلومات" و"استهلاك الرموز". يذكرنا الوعي العملي، من منظور فكرة "الإجماع المتقاطع"؛ بأولئك الذين يأخذون بالاعتبار أهمية تجنب ومقاومة الأنشطة التي من شأنها إلحاق الأذى بثقافات المجتمعات الأخرى باسم حرية التعبير التي شوهدت في بعض البلدان الأوروبية في السنوات الأخيرة. من ناحية أخرى، يجب أن يدرك من يقومون بالتطبيق أو هذه الممارسات الالتزام بالمشاركة في الخطابات المستنيرة من أجل بناء قراراتنا لاتخاذ إجراءات مشتركة على أحكام مستنيرة ومدروسة جيدًا. ويذكرنا الوعي النظري، من وجهة نظر فكرة "الإجماع المتقاطع"، بأهمية أن يبذل العاملون بالمجال العملي المزيد من الجهود لإدراج وجهات نظر ثقافية ومواقف قيمية مختلفة في عمليات التداول المتعلقة بصنع القرارات وتنفيذها طالما لم تنتهك المبادئ العالمية والمعايير المشتركة.

باحث وأكاديمي عراقي

نهاد وشو

كيفورك مراد

مقال

إعادة تكوين العالم

إبدال نظام التحريم الكلي بالحرية

عبدالرحمن بسيسو

يبدو جليا الآن، وبلا أدنى مواربة أو غموض، أننا إزاء عملية بلورة نهائية لنظام تابوي كلي معولم (Globalized Taboo System)؛ نظام لا يتوخى شيئا سوى إعادة تكوين العالم وفق مشيئة الرأسمالية العالمية المتوحشة، وبإرادتها المطلقة الموظفة كل قوّتها وكل ما بحوزة أتباعها المتكاثرين من موارد وإمكانيات وقوة، ليكون هذا النظام، الذي نلحظ الآن، عيانا وبجلاء ساطع، علامات تبلوره وملامح تشكل بعض ملامحه، نظاما يتأسس على الاستئثار الرأسمالي، والاستغلال، والاستعمار، والظلم، والإرهاب والقهر، والعنصرية العمياء، والتطرف، والاستحواذ التملكي، والسلب والنهب، والاستلاب، والاقتلاع والطرد، والتهجير القسري، وفرض الخنوع، والتبعية، والإذعان.

ولهذا التأسيس أن يستوجب إبدال كل ما يدور في فلك "الليبرالية الجديدة" (Neoliberalism) الأسود من مصطلحات ومفاهيم تنفلت من كل قيمة إنسانية أو عقال اجتماعي إنساني جمعي، وتقول، بتركيز لافت وجلاء ساطع، دلالة استفحال التوحش البشري المنتهك كل مبدأ عدالة وسلام اجتماعي، وكل حق إنساني، وكل قيمة، وكل حرية إنسانية، بنقائضها المنشودة، والمبذول من أجل إدراكها كل جهد مثابر، من قبل كل إنسان ينشد لنفسه، ولبلاده، ولآخريه من الناس، ولبلادهم، حياة حرة كريمة مفعمة بالحياة، ووجودا حقيقيا، فاعلا وخلاقا، في عالم يتهدده جشع الرأسمالية الساعية، بضراوة فاتكة وتسارع محموم، لجعل هذا الإبدال التوحشي الفادح أمرا كونيا يرسخ هيمنتها، ويؤبد وجودها بنفيه وجود أيّ كيان جزئي أو كلّي، فردي أو جمعي، قابل للوجود الفاعل في الوجود، وقد يمثّل، من منظورها، تهديدا، وإن كان ضئيلا، لاستمرارية وجود كيانها الكلي الكوني المعولم، والمغطى بنظام تحريم كلي ينفي الكرامة الإنسانية، ويحيل الحرية إلى نقيضها، ويحوّل العالم إلى محض سوق، ويسلب الكائن البشري فرصة أن يكون إنسانا، ويجتثّ من الحياة حيويتها ومعناها، ويفقد الوجود رسالته الحقة، ومغزاه.

اجتثاث هياكل وتفريغ كيانات

إلى جانب الإبقاء على القديم الملائم توجهاتها والمشبع حاجاتها الملحة لتأبيد حكمها، وفي مجرى سعيها المحموم للأخذ بمقتضيات تكريسه وتقويته، عملت النخب السياسية، القبائلية والطائفية، وغيرها من نخب حزبية عصبوية حاكمة، وذات ماهية عسكرية، أو أمنية، قاهرة ومستبدة، بأقصى ما تستطيعه من جهد، وسرعة، ودأب عنيد، وبكل ما في حوزتها من وسائل قمع وأدوات إرهاب، مادي ومعنوي، جليّ وغامض؛ على مسارين استهدفا تحقيق أمرين.

يتركز أول هذين الأمرين في احتواء أيّ من الأشكال أو الأطر، أو الهياكل أو الكيانات النخبوية، التي بزغت حاجة مجتمعية ملحة، أو غاية إنسانية واجبة، إلى إيجاده، فأوجد، أو سمح بإيجاده تحت ضغط هذا الإلحاح أو ذاك، وذلك عبر حرصها على ملء تلك الأشكال والأطر بمحتوى يلائم غاياتها وحاجاتها هي، ولا يلائم، بأيّ حال، الغاية الأصلية التي ولدت في عقول موجديه من المثقفين الحقيقيين الأوفياء التصور الغائي المقرون بالحاجة الماسة إلى إيجادها في الواقع الفعلي القائم، وعلى نحو يكفل إشباع هذه الحاجة، وتحقيق غاية إشباعها على نحو أمثل.

أما ثاني هذين الأمرين، فيتمثل في احتجاز إمكانية نشوء، أو بدء تشكل، أيّ كيان نخبوي يتوقع له، إن نشأ، أن يتأبّى على الاحتواء، وهو احتجاز تلازم، طيلة الوقت، مع استئصال كل من، وكل ما، من شأنه أن يجدّد، في وعي الناس، انبثاق الحاجة إلى إيجاد هذا الكيان أو هذا الشكل أو ذاك من الكيانات والأشكال، أو ما ماثلها من الأطر المجتمعية: السياسية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها من الأطر النخبوية الجامعة، والمعنية بالإصغاء الصادق إلى صوت الحياة، وأشواق الناس، وبالعمل، فور تشكلها وبأقصى فاعلية ممكنة، على تلبية حاجاتهما، ومتطلبات وجودهما الحق، وفتح أبواب ارتقائهما الدائم صوب أعلى مراقي

الوجود الإنساني الحر، الكريم، والمفتوح، دائما وأبدا، على مستقبل مفتوح!

ولإنجاز كلا الأمرين، عمدت السلطات الحاكمة المستبدة، وغيرها من القوى المهيمنة، إلى تشديد قبضات الكبح والقمع والطغيان، متعددة المنابع والأنماط والأوجه، على بنى المجتمع وحيوات الناس، وحرصت، أوّل ما حرصت، على فرض سطوة الأجهزة الأمنية المتكاثرة، ومتعددة المجالات والاختصاصات، على أيّ كيان أو شكل من الكيانات والأشكال والبنى المجتمعية والمهنية النخبوية التي تمكنت، لسبب أو لآخر، من إدراك وجود لنفسها في الوجود، وتأتت، في الوقت نفسه، على التفريغ والاحتواء، أو التي لم يستكمل قمعها أو احتواؤها، بعد، أو تلك التي لم يحكم إغلاق منافذ ولادتها المكنة إن بزغت في الأفق، مجددا وفي غفلة من قبضات الأجهزة الأمنية، حاجة مجتمعية ملحّة تترافق مع بصيص نور ينبئ بقرب ميلاد كيان جديد سيكون له النهوض بتلبية هذه الحاجة، وتولي تأمين وجود شيء من حاجات الحياة، ومتطلبات عيش الناس!

وبطبيعة الحال، لم يكن لفرض تلك السطوة الأمنية المسبقة، والمتشعبة، أن يتوخّى شيئا سوى اجتثاث إمكانية أن يصبح هذا الكيان الجديد، في مقبل الأيام، نواة لمعارضة حقيقية، سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو ثقافية، أو أن يكون قابلا للتحول إلى إطار جمعي عريض يتوافر بناته، والمنتمون بإرادتهم الحرة إليه، على رؤية مستقبلية متكاملة ومتماسكة، ومؤصلة من كل جانب ومنظور ووجه.

وإلى ذلك، لم يكن لسلطة مستبدّة أن تتوانى عن اجتثاث إمكانية أن تدهم بكابوس إمكانية تحوّل أيّ كيان أو هيكل نخبوي يتوافر بناته على رؤية مستقبلية شاملة ومتكاملة وممكنة التحقق، إلى حاضنة لاستنبات بذور المشروع النهضوي العروبي الشامل والمتكامل، هذا الذي تتطلّبه الحياة الإنسانية الحضارية الحقة، وتتوق إليه مجتمعات "بلاد العرب" على تعددها، والذي أمعن في انتظاره الناس من أهل "بلاد العرب" وضمنهم ناطقو اللغة العربية، على اختلاف مشاربهم، وتنوع أعراقهم وديانتهم وألوانهم، وتغاير منابت جذورهم الثقافية التي غرسوها بأنفسهم في تربة الثقافة العربية الجامعة، الساكنة بيوت هذه الثقافات، والمسكونة بها، والمسكّنة إياها رحاب بيتها الواسع، والمفتوحة، دائما وأبدا، على التنوع الإنساني الثري، والتجدد الحضاري الخلاق.

تحريم الاشتغال في السياسة

يبدو جليا أن إصرار أنظمة الاستبداد والطغيان على احتجاز، إن لم يكن اجتثاث، إمكانية أن تتشكل، على نحو تطوري طبيعي وفي أيّ من المجتمعات العربية، منظومة إطارية متكاملة، ومتفاعلة، للنخب متعددة المجالات والاختصاصات، قد تجسّد، بفجاجة وقحة ورعونة حمقاء، في دأبها المحموم على متابعة تعزيز هذا الاحتجاز عبر حرصها الصارم على جعل اشتغال أحرار الناس من عامة الناس في السياسة، أو حتى مجرّد اقترابهم من أسوار حرمها المغلقة البوابات بمصاريع مضاعفة وذات أقفال مقفولة بأقفال شتى، أمرا محظورا؛ أي "أمرا محرّما" باسم القداسة، والجلال، والهيبة، أو باسم أي نعت، أو اسم، أو غرض، أو غاية.

وليس لفرض التحريم السياسي المطلق أن يسوّغ، أو يبرّر، إلا عبر مقولات أيديولوجية اخترعت وصيغت لمصلحة سلطة الاستبداد، فأكسبت صفة المقدس المتعالي، والمنزل، لترسّخ في مخيال عامة الناس، وفي ثنايا وعيهم الزائف، اعتقادا مؤداه أن الاشتغال في السياسة، أو حتى مجرّد الاقتراب البعيد من أسوارها، ناهيك عن السعي لولوج حرمها، إنما هو أمر جليل ومتعال ومتطلب، وذو شأن عظيم الشأن والقيمة، وهو، لذلك، أمر لا يخص أحدا، ولا يستطيعه أحد، ولا يقدر على حمل ثقل متطلباته الهائلة أحد، سوى الزعيم الأوحد، الذي هو الحاكم المطلق ذو العصمة الإلهية، والقدرة، والسمو، والفخامة، والبسالة، والنبالة، والجلال، وسوى بعض من أفراد سلالته وأسرته، أو ثلل من أركان بطانته، أو ممن يصطفيهم بنفسه، أو يصطفون له، من أفراد قبيلته، أو عصبته، أو عصابته، أو منظومته العشائرية، أو حزبه، أو غير ذلك من أسماء ترتد إلى ماهية استبدادية واحدة تجسّدها، وتجلي حضورها، نخب أوليغارشية (Oligarchy) متعددة الأسماء، والتجليات، والهيئات، والتخصصات، والصور.

وبجعل الاشتغال في السياسة، أو الاقتراب من أسوار قلاعها المسيّجة وحرمها المغطاة بهالات الهيبة والقداسة، نظاما تابويا يضفر شتى الأنظمة التابوية التي تشكل، متضافرة، "نظام التابو العربي الكلي"، متعدد الأذرع والقبضات والفكوك والأنياب، تكون الأنظمة الحاكمة، والقوى المهيمنة المتحالفة معها، والدائرة في فلكها مدعومة بها وداعمة لها، قد توافرت على كل ما تحتاجه من مرجعيات مغطاة باللاهوت والقداسة، وبوصايا الآلهة والأنبياء والأئمة والأولياء، وبالعصمة والجلال، وبصلابة الإرادة، بل وبإذعان القدر نفسه لمشيئتها، لتقبض، بكل ما تحتكره من قوة سلطة قاهرة، ومن غشامة غايات، ودناسة وسائل، ودناءة أدوات، ورخص أساليب، على فرص مفتوحة، وعلى مفاتيح مستودعات فتك غاشم تحتوي "بضائع وأدوات" متنوعة تتعدد مكوناتها ولا تخضع لإحصاء، أو نفاد، أو انتهاء صلاحية،

كيتورك مراد

وجاهزة للتوظيف العاجل، وللاستعمال الفوري والدائم، اللذين يمكّنانها من اقتناص كل الفرص للإمعان في ممارساتها القامعة المتوخية تكريس وجود "نظامها القيمي السلطوي الاستبدادي الخاص"؛ المغلق والمفتوح، في آن معا؛ فكيف لنظام سياسي أن ينطوي على هذه الثنائية المتضادة على نحو يبدو راسخا وحاسما وغير قابل لاحتضان أيّ شكل من أشكال المجاورة أو التضايف؟!

نظام تحريمي مغلق ومفتوح

ليس التضاد القائم في صلب "النظام القيمي السلطوي الاستبدادي الخاص"، إلا تضادا يتجاوب فيه الانغلاق مع الانفتاح من منظور الغاية، وما ذلك إلا لكونه نظاما مغلقا على غاية وحيدة هي حماية السلطة الاستبدادية الحاكمة، وتغطية هشاشتها، وترسيخ هيبتها وهيمنتها، وتأبيد وجودها. وليس لهذه الغاية المتراكبة، والتي تستوجب متابعة مكانية وزمانية حثيثة، أن تدرك إلا بوجود نظام تحريمي مفتوح، في كل حال وطيلة الوقت، على استيعاب تعديلات وإضافات وإبدالات تصبّ إفرازاتها، بسخاء وتواتر، في مجرى تحقيق الأهداف التمكينية التي يسهم تحقيقها في إدراك غاية تأبيد وجود هذا النظام السياسي الاستبدادي الحاكم، أو ذاك. وما هذه الإفرازات إلا عناصر تابوية تكوينية تعزز نظام التحريم السياسي ولا تفارق دلالة حرص الأنظمة الاستبدادية الموشوم بإصرار عنيد وشراسة مقرونين بالحماقة المتغطرسة والتفاهة الموغلة في ادعاء الحكمة!

وما لوصف أن يتمكن من وصف العناد الاستبدادي المقرون بالشراسة المتغطرسة، أو أن يحيط بالتفاهة المقنعة بالذكاء والحكمة وبعد النظر، حتى لو استعان بكل ما قد هجره الناس، أو ما قد أبقوه قيد التداول، من متخيل الصور العجائبية السوداء، وسوقي الألفاظ وموبوئها، اللذين لا يمكنهما ملء أوسع محيط وأعمقه، وأعرض جحيم وأغوره قعرا، فحسب، بل وأن يفيضا عنهما أيضا!

وليس لهذا الانفتاح على التعديل والإبدال والتوسيع والإضافة من غاية سوى امتلاك المزيد من مقوّمات الاستبداد الأقصى الذي يفتح أوسع السبل أمام السلطة الاستبدادية الحاكمة لتوسيع مصالحها وتعميقها ضدا بمصلحة الوطن، وعلى حساب مصالح عامة الناس ممّن يفترض أنهم من أبناء الشعب المنوط بحكومته مراعاة مصالحه، ورعايته، وحماية كرامته ووطنه!

وبامتلاكها مقوّمات الاستبداد الأقصى، سيكون بمقدور السلطة المستبدة أن تدرك أقصى غايات الاستحواذ الاستئثاري الكلي على منابع الحياة الحقة، وعلى شتى الأحياز والمساحات، والموارد والمقدرات، والمصائر والأقدار، والخيرات والنعم، وذلك بمعزل تام عن الالتفات إلى تطلعات عامة الناس، وبإنكار كليّ لحاجات عيشهم، وبتركيز قمعي محموم على اجتثاث أيّ مقتضى من مقتضيات تحفيز تطلعهم اللاهب لإدراك وجود حياتي، إنساني حقيقي، فردي وجمعي، في أيّ مدار من مدارات الحياة، وفي أيّ فضاء من فضاءات الوجود!

وإذ انغلقت غايات "الأنظمة التابوية" المتنوّعة على توفير الأسس والمقتضيات الجوهرية التي يسهم إنفاذها، والعمل الدؤوب بمقتضاها، في تحقيق غاية حماية الأنظمة السياسية الاستبدادية الحاكمة، وتأمين بقائها، وترسيخ هيبتها، وتغطية هشاشتها، وتأبيد وجودها، فقد كان لها، وهي الأنظمة المؤسسة، أصلا، على استثمار الجهل، والإمعان في إلغاء العقل، والتحكم في قنوات الصلة الممكنة بين الأرض والسماء، والتجلّل بالمقدس والمحرّم المتغايرين، والمتحوّلين أبدا، وغير المستثنيين من تقديس الدناسة وتحليل الحرام، أن تمكن الأنظمة الحاكمة المستبدة، والقوى المهيمنة المتحالفة معها، من تفعيل "التابو السياسي" الضافر شتى التابوات، ولاسيما منها أوغلها في الرسوخ الزماني، وأعتاها.

وهكذا كان للسلطة المستبدة المسلحة بالتابو السياسي المعزز بالتابوات الدينية والاجتماعية والثقافية، وبغيرها مما يضفره في إطاره الجامع من مكونات تحريمية، أن توغل في تهديد الناس بالإفقار الأرضي، وبالبؤس الدنيوي، وبجحيم اللعن السماوي الآخري الأبدي، وغير القابل، تحت أيّ شرط متغيّر، أو بموجب اعتذار واضح، أو توبة نصوح، للرفع المفضي إلى وهب الشخص، أو الكيان المعني، تسامحا مستقبليا ممكنا، أو عفوا لاحقا، أو غفرانا مقرونا بصفح ونسيان، إن هم جرؤوا على اقتراف خطيئة الاقتراب، حتى عن بعد، من أسوار السياسة، ناهيك عن اجترائهم على اقتراف إثم انتهاك أيّ من المحرمات التابوية، أو إقدامهم على التهاون في الالتزام بأيّ من أحكامها، مهما صغر شأنه، أو ضؤلت قيمته، أو تدنى تأثير خرقه أو تخطيه، أو رغب في ما يحرمه بقدر ما رغب في الاعتذار عن تجاوزه بزعم وجود غفلة عن وجوده من قبل كائن غافل عن نفسه، وعن الحياة، بقدر غفلة الحياة، بدورها، عنه، وإغفالها وجوده.

وإلى ذلك، ظلت الأنظمة التابوية المغلقة على غاية حماية الأنظمة المستبدة والقوى المهيمنة، منفتحة على التقاط كل ما يكرّس بقاء عامة الناس في الديامس والكهوف والأقبية، وعلى إعادة تكييف ما تلتقطه من مكونات تابوية لتشرع في صهره في أتون إعادة إنتاج استبدادها، كي تدمجه، بإحكام، في بناها الأيديولوجية متكلسة الخلايا، والتي لا تجدد نفسها، مع مرور الأزمنة وتبدل الميول والأحوال، إلا بما يستجيب لطبيعتها الانغلاقية التكلسية، ولغاياتها التحريمية الاستئثارية الاحتجازية التي تحتكر الحياة والوجود فتقصر الحق فيهما على الأنظمة الاستبدادية التي تتوافر على أقنعة أيديولوجية متغايرة، وقابلة للنزع والإبدال، والتعديل والتحوير، والتفريغ والملء، والتي تقبض على السلطة والنفوذ، والقوة القاهرة، والتي هي، وهي وحدها، كسلطة شمولية مطلقة، المؤهلة والقادرة، دائما وأبدا، على انتهاك أنظمة التابو التي وضعتها بنفسها وفرضتها على الناس لتغطّي بها نفسها وهشاشتها، بل وعلى تعديل مكونات هاته الأنظمة، وتغيير توجهاتها، وضبط مراميها، استجابة لمصالحها، وإشباعا لحاجتها الدائمة إلى حماية نفسها، وتأمين بقائها، كمفتتح ضروري لمتابعة سعيها إلى تأبيده.

نظام التحريم الاقتصادي الإنتاجي

سيبدو جليا، أمام بصر أيّ مراقب غير مأخوذ عقله بتغافل مقصود أو بغفلة بصيرة مؤقتة، أن أنظمة الكبح والمنع والتحريم التي اصطلح على تسميتها بـ"أنظمة التابو" (The Taboo Systems)، لم تعد مقتصرة على ثالوث الدين والجنس والسياسة، وإنما هي قد تمكنت وجودا وتأثيرا مع تعاقب أنظمة الاستبداد على تعدد أقنعتها الأيديولوجية وتنوعها، ومع تمدّدها الاستشرائي في الأزمنة والأمكنة واللغات والثقافات، ومع تعزّز رسوخ مكوّناتها في النفوس البشرية الجاهلة المنهكة بالفقر والعوز وانتظار الفرج، ثم شرعت في التشعب والتوسع والشمول إلى حد كاد يغطي كل مورد وشيء وفعل وسلوك أرادت قوى الاستغلال الرأسمالي والاستبداد السياسي إيثار نفسها به، وتملّكه، ومنع الآخرين منه وعنه، أو الحيلولة دونهم وممارسته.

ولعل ما سنقترح تسميته بـ"التابو الاقتصادي - الإنتاجي"، الذي واكب إنتاجه صعود الرأسمالية العالمية واتساع نطاقات تحكّمها طوعا، أو قسرا وابتزازا، في اقتصادات العالم، وفي سياسات عدد متزايد من حكومات دوله وتجمعاتها الإقليمية، وفي توجهات، وغايات إيجاد، ومهمات، الأعم الأغلب من الهيئات والمؤسسات والمنظمات والهياكل الدولية، إنما يأتي في رأس قائمة التابوات المستحدثة لغاية تعميق هذا التحكم وتعديد أبعاده وتنويعها. وليس لما شهده العالم، ولما لم يزل يشهده، منذ ما بعد الحربين العالميتين، الأولى والثانية، من ظواهر وممارسات ومواقف وإجراءات وتصرّفات ومسودّات اتفاقيات، واتفاقيات ومعاهدات، وصكوك، وخطط، وصفقات، ومدونات سلوك، ومشاريع قرارات، تتبناها الرأسمالية العالمية الاستبدادية المتوحشة بقيادة الولايات المتحدة الأميركية التي تصر، بتعنت ابتزازي شرس، على إقرارها، والالتزام الفوري والشامل بها، والشروع في العمل بمقتضاها على جميع المستويات المحلية والإقليمية والدولية، إلا أن يعكس جانبا مهما من جوانب التحولات الجذرية التي يشهدها العالم المتصدع موشومة بتوقيع الأوليغارشية الرأسمالية العالمية.

وما هذا التوسيع الاقتصادي الإنتاجي التابوي المتسارع، والمتمادي في الكبح والمنع المقنّعين، الآن، بغايات إنسانية، ومبادئ سياسية، وقيم مشتركة، هي دائما زائفة التبني، وهائلة التعرض للاستغلال والترويج الإعلامي المبرمج، إلا لكون نظام التابو الدولي المقونن عبر قوانين واتفاقيات أقرّتها مؤسسات دولية، أو عالمية، تهيمن الأوليغارشية الرأسمالية عليها، قد شرع يتأسّس، من زمن بعيد، وفي مجرى تجاوب إيجابي طوعي أو قسري إذعاني، على الاستجابة الإيجابية الفورية للحاجات المتنامية، والمتغيرة، التي تتطلبها غاية حماية التجربة الرأسمالية العالمية، وتأمين مقتضيات تكريس هيمنتها، وتعزيز استمرارها، بل وتأبيد وجودها المهيمن على مصائر الناس ومقدّرات العالم.

وإذ يتوافر قارئو هذه التجربة المديدة، والمتبصّرون فيها، والمكتوون بنارها، كما يتوافر محللوها، ودارسوها، ومتفحصو أطوارها وتحولاتها، والمتنبئون بمآلاتها الممكنة، من العلماء والباحثين ذوي الاختصاص والصدقية والموضوعية والحيدة، على ما يبرهن على أن الرأسمالية العالمية قد وصلت أعلى ذرى التوحش والجشع، أو أنها قد أوغلت في أعمق أغوار قيعانهما الجحيمية المنذرة بهلاكها! فإني لأحسب أن العولمة الرأسمالية المنفلتة التي يشهدها العالم الآن لا تعدو أن تكون إلا تجربة، أو محاولة، ذروية إضافية، يتصور مقترحوها، والمنخرطون فيها، أن نتائجها ستفضي إلى جعل الرأسمالية، في تجليها المتوحش الأخير، القابل لتعديل ظاهري لا يطال جوهر ماهيتها، تجربة مفتوحة الأمداء والمساحات على نحو يمكنها من الاستمرار في حمل نفسها المشرفة الآن على تفكك يعقبه هلاك وتحلل، صوب مستقبل مفتوح على مستقبل لا ينتهي ولا يتناهى.

وما ذاك إلا لأنهم يتصورون آملين، أو معتنقين صوابية ما يتصورون، أن هذا المستقبل، كما هذه الرأسمالية الناشدة الآن مستقبلا أبديا لنفسها، إنما هو مستقبل قائم فوق المجتمعات، وفوق القوانين، وفوق الأزمنة، وفوق التاريخ، أو كأنما هذه الرأسمالية المتوحشة هي منبع الصيرورة الخالدة، وتجليها الأسمى، وهي مفجرها الأزلي الأبدي الأوحد الذي أدرك غايته بكمال كمالها، فأبدل الاستكانة بالصيرورة، والاستقرار بالتدفق، والتكلس بالحيوية، والكمال النهائي الزائف المزعوم بالسعي الإنساني الجاد إلى كمال حقيقي يكشف زيفه، أو يكمل نقصه، ويفضله، ثم أودع في كف الرأسمالية شتى المفاتيح، وأغلق كتاب التاريخ البشري الحيوي، واستراح!

توسيع الكبح وتفريغ الضغوط

لعل في هذا الفهم ما يفسر، على نحو أو آخر، حرص الأوليغارشية الرأسمالية العالمية المهيمنة، والمرتدية قناع الولايات المتحدة الأميركية، على مواكبة خطوات بلورة "نظام التابو الكوني الكلي"، مواكبة متفاعلة ومتداخلة، مع بدء بروز إرهاصات العولمة الرأسمالية، وتوالي ظهور تجلياتها العديدة والمتنوعة والمتشعبة؛ والمتباينة أحيانا؛ فقد بدا واضحا للعيان، عبر ما تتركه، أو ما تتخلى عنه، كما عبر ما تعارضه فتنقضه، وما تتبناه، وتقدم عليه، أو عبر ما تحبذه أو تتخذه، الولايات المتحدة الأميركية، آمرة أو طالبة أو مرغمة، الدائرين في فلكها، أو المصنّعين في أقبيتها، من دول وكيانات ومؤسسات ومنظمات وأحلاف على الانقياد المطلق إليه، والالتزام التام به، من مواقف وإجراءات وتصرّفات وأفكار وتصوّرات ورؤى ومشاريع قرارات واتفاقيات وغير ذلك من أمور، سواء تعلق أمرها بالمستويين الدولي والإقليمي المتعددين، أو بالمستوى الإفرادي

كيفورك مراد

المندرج في سياق العلاقات الثنائية مع أطراف أخرى، أنّ ما يجري إنما يصب في مجرى استهداف البنى التحتية القائمة في شتى المجتمعات البشرية والكيانات الجمعية بتغييرات متشعبة، ومتنوعة لا تستهدف شيئا سوى تحويل العالم بأسره إلى سوق استهلاكي كوني مفتوح.

ولا ريب في حقيقة أن تحويلا إرغاميا كهذا لن يكون ممكنا إلا بجعل المجتمعات البشرية الرخوة، والكيانات السياسية الهشة، والدول الفاشلة، وربما الدول غير الفاشلة، والدول المارقة وغير المارقة بحسب التصنيف المعياري الأميركي القابل دوما للتغيير حسب ما تقتضيه مصالح الرأسمالية العالمية ومطامعها وأحوالها، بمثابة مزارع كائنات بشرية حيوانية مستهلكة لا تحيا في واقع الحياة القائمة ولا تعيش فوق أيّ أرض إلا لتأكل، وإلا لتتسوّق ما ستأكل وما ستستهلك؛ لتتسوق من جديد تسوقا أرضيا، أو فضائيا، أو كليهما معا، وباستمرار لا ينقطع ولا يتوقف أبدا.

وإلى ذلك، ستبقى هذه الكائنات الاستهلاكية مستهدفة، طوال وقت انشغالها بالتسوق والاستهلاك، بالكبح، ناعما وخشنا، وذلك للحيلولة دونها والسعي لإدراك الحياة الإنسانية التي ينشدها كائن بشري يتوق، بطبعه وبتحفيز وعيه الفطري، لأن يكون إنسانا، أي إنسانا حساسا، مفكرا، إنسانا ذا قلب مفتوح وعقل وقاد ووجدان يقظ، وضمير حي؛ إنسانا فاعلا منتجا، مبدعا خلاقا، وصانع حضارة وتاريخ وحياة، ومدركا معنى لوجوده الحر في الوجود.

وبغية تفريغ الضغوط الهائلة التي ستثقل كواهل ناس من الإنسانيين الحقيقيين ونفوسهم، الأوفياء لإنسانيتهم، من الناس، جراء الكبح التابوي الكلّي المحتجز حاضرهم وممكنات مستقبلهم، سيكون متاحا لهؤلاء، بل سيكون مطلوبا منهم جميعا، ومحفزين ومشجعين بوسائل ومغريات تغيّبهم عن وعي الواقع، وتنسيهم، أو تجتث من عقولهم، فكرة السعي إلى تغييره في الواقع، أن يذهبوا صوب ما أعدّ لهم، ومن أجل راحتهم، من فضاءات زرقاء يدخلونها وهم على مقاعدهم، فتريحهم من وعثاء الحياة، والرحيل الدائم، ومن مشقة السعي والعمل.

سيكون لوسائل التحفيز الإغرائي أن تولّد في نفوس المستهدفين بها، أو الواقعين بمحض صدفة عليها، رغائب تبدو ذاتية وحقيقية، فيما هي، في حقيقتها، رغائب مصطنعة وزائفة، لكونها مسكّنة بتحفيز إرغامي مضمر يتوخّى دفعهم، فرادى وجماعات وعلى نحو يشعرهم بحرية الاختيار وذاتيته، إلى إدمان العيش في عالم طوباوي مهيض، يجافي الواقع البائس، وتوفّره مخيلة تجنح في فضاء بلا هوية، أو في عالم فضائي وهمي، أو افتراضي اعتباري، توفّره التقانة الحديثة، وشبكاتها العنكبوتية المرهونة، بدورها، لقطاع، أو لأكثر من قطاع، من قطاعات الرأسمالية الصناعية والتقانية والإعلامية، المفعمة مواقعها المتكاثرة، وبسخاء منقطع النظير، بكل ما يتخيّل المرء للأسواق الأرضية والفضائية أن تحتويه لتعرضه للبيع من سلع استهلاكية، وأجهزة تسلية، وبرامج تغذية للخيال المفارق الواقع على نحو مطلق، وتطبيقات إلهاء، وقتل وقت، وتفريغ، ولهو.

لقد مكنت التقانة الحديثة، والثورة الرقمية المصاحبة لها، الشبكة العنكبوتية الدولية الإنترنت (Internet) من أن تتوافر، مدارات ومواقع وأحيازا متشابكة، على فضاءات هائلة تبدو حرة، ومفتوحة، طيلة الوقت، لتمكّن الناس من تفريغ الضغوط الهائلة التي يفرزها التطبيق القسري المحكم لأحكام أنظمة التحريم والكبح والمنع، ولامتلاك شعور مصاحب، مراوغ أو زائف تماما، بممارسة الحرية. وقد كان لميلاد هذه المفارقة الآسرة والمذهلة، أن يحمل ناس متكاثرون ومتزايدون من الناس، للشروع في ممارسة السعي البشري - الإنساني اللاهب لإدراك إنسانية أعلى، وأنبل، وأجمل، في مدارات حياة جديرة بالعيش! وذلك لأنّ الفضاء التقاني المعتبر واقعا افتراضيا، قد مكّنهم من ممارسة هذا السعي التعويضي الذي يفرغ نفوسهم من وطآت الشعور ببؤس واقعهم الواقعي ومأساويته، ولا إنسانيته.

فلتنفصموا إذن، ولتمعنوا في الانفصال عن الواقع القائم في مجتمعاتكم، وفي وعيكم الشقي، وفي نفوسكم الرخوة، ولتمارسوا الحرية المطلقة المرفوعة، على ألف جناح تقاني وجناح، إلى أعلى سماء وأوسع فضاء. ولتوغلوا في دروب سعيكم اللاهب لإدراك إنسانيتكم المسروقة أو المضيعة؛ ولكن ليس في العالم الأرضي الواقعي الحقيقي الملموس، والمدرك من قبلكم من قبل، بل في العالم الاعتباري الفضائي المكبوح، بدوره وإلى أبد هو الأبد، عن أن يكون واقعا ممكنا في واقع أرضي ذي تعين جغرافي واجتماعي واقتصادي وثقافي وسياسي، ويمكن لمسه، وإدراكه، والتأكد من وجوده، من قبل كائن بشري يحيا، أو قد كان من قبل يحيا، في رحاب كوكب معلوم هو كوكب الأرض الذي صار بأسره، ملكنا، وفي حوزتنا، ولا مستقرّ فيه لأحد سوانا إلا بأمرنا، وبإرادة مشيئتنا.

هذا هو، بالضبط، بعض جوهري مما سيقوله الرأسمالي المتوحش، المسكون بالشراهة والجشع، للأعمّ الأغلب من الناس الذين تتابع الرأسمالية العالمية تجميعهم لزجّهم في مزارع كائنات حيوانية استهلاكية ومرائب كينونات بشرية محوسلة، أعدّتها، بعناية فائقة، لتكون زرائب عيش لأجسادهم، ومرائب حشر لوجودهم المؤجل، وحظائر احتجاز لحيواتهم الممكنة، ومقابر دفن لاجتثاث هويتهم الإنسانية الجامعة التي أماتها وعيهم الزائف المغطى بجهلهم، وبعنصريتهم، وبانتظارهم المهيض لمنقذ غيبي لن يأتي أبدا، وبانقيادهم الأعمى لأيّ شيء سوى إنسانيتهم، وذلك قبل أن يعمد أحد إلى اجتثاث بذورها من تربة فطرتهم ككائنات بشرية مؤهلة بكل ما يمكنها، إن هي شاءت وسعت، من الشروع في الخطو صوب إدراك إنسانيتها الممكنة، والمفتوحة، دائما وأبدا، على إدراك كمال ممكن ينقصه كل ما يدرك من درجات كمال.

ناقد من قليسطين مقيم في براتسلافا

مقال

غابة المحرمات

لا تدخل دون أن تتسلّح بالرّموز

سفيان رجب

لكلّ ثقافة تابوهاتها الخاصة، حتى تلك التي نزعت أثوابها القديمة، وعبرت نهر الحداثة سباحة، ما كادت تحتفي بتجاوز تابوهاتها القديمة حتى انتبهت أنها خلقت تابوهات جديدة من معتقداتها الجديدة. لكن تبقى الفوارق بين ثقافة وأخرى تحددها طرق التعامل مع المتجرّئين على تجاوز تابوهاتها، فإن كانت بعض الثقافات تعاقبهم ماديا بالسجن والنفي والقتل أحيانا، فإنّ بعض الثقافات الأخرى تعاقبهم معنويا بالتجاهل والتهميش والاستنقاص من القيمة الفنية لمنجزهم الأدبيّ.

العقاب الذي تتفق عليه أغلب الثقافات تجاه الكتاب الذين يخترقون تابوهاتها هو مصادرة نصوصهم ومنعها من التداول، وإن استعصى النصّ على المنع والحجب وبرز في ثقافة أخرى، تُجنّد له الأقلام لتردّ عليه وتسخر منه وتحاول إفراغه من معانيه، ويمكننا اليوم أن نقرأ نصوصا تتداول في العالم كلّه، لكن يُمنع تداولها في بلد أو في أمّة ما بسبب أنّ تلك النصوص تمسّ من تابوهاتها.

يمكننا أن نجد مثلا كتاب "قتل أمّة" للأميركي هنري مورغناتو في مكتبات العالم كلّها باستثناء مكتبات تركيا لأنّ الكتاب يتحدث عن زمن السلطان عبدالحميد الثاني وما وقع فيه من مجازر بحقّ الأرمن والمسيحيين، وهذا الموضوع هو تابو في تركيا، وكذلك الشأن بالنسبة إلى رواية "يريفان" لجيلبرت سينويه التي تتحدث عن الموضوع نفسه.

كما يمكننا أن نجد رواية "قصة سربرنيتسا" لإسنام تاليش في كلّ مكتبات العالم باستثناء مكتبات صربيا ومونتنيغرو، لأنّ الرواية تتحدث عن مجازر الصرب في حقّ مسلمي البوسنة والهرسك، وهذا الموضوع هو تابو في صربيا. يمكننا كذلك أن نقرأ رواية "آيات شيطانية" للهندي الإنجليزي سلمان رشدي بكلّ لغات العالم باستثناء اللغات العربية والفارسية والأوردية لأنّ هذا النصّ هتك نصّها المقدس، وهذا الموضوع هو تابو في ثقافة أغلب متكلّمي هذه اللغات.

كثير من النصوص مُنع تداوله لفترة زمنية طويلة وفي بلدان ذات سياسات ليبرالية متفتحة، ولعلّ من أهمّ هذه النصوص رواية "الساعة الخامسة والعشرون" للكاتب الروماني قسطنطين جيورجيو التي منعت في أوروبا سنوات طويلة بسبب فضحها للمجازر التي حدثت في الحرب العالمية الثانية والتي كان سببها جيوش الحلفاء وجيوش المحور معا، وهذا الموضوع بأمانته التاريخية هو تابو عند أوروبا الحديثة التي لا تريد أن تنظر إلى وجهها الشيطاني في المرآة دون مكياج.

قد تُكتب نصوص عفوية بعيدا عن ضجيج التابوهات، لكنها في زمن آخر وفي ثقافة أخرى تكون متورّطة في إثارة تابو ما. حين كُتبت ألف ليلة وليلة زمن المقروئية الشفوية لم تفكر في شروط المقروئية الدينية الأخلاقية التي جاءت بعدها، لذلك فإنّ التابو الذي جاء بعدها حجب منها ما ضايقه فقط.

حين كتب الشاعر المصري أحمد فؤاد نجم قصيدته "بقرة حاحا النطاحة"، هل كان يفكر أنه يسخر من مقدّس ما؟ أيّ مستمع عربي سينفي هذه التهمة، وسيسخر منها، لكن لو ألقينا هذا السؤال نفسه على شخص هندوسي، فإنّ الإجابة ستكون حتما مختلفة. لكن هل يمكننا الحديث عن ثقافة دون تابوهات؟.

حتما لن نحصل عن إجابة واحدة لهذا السؤال. فالقارئ الذي نشأ في ثقافة كونية منفتحة على ثقافات العالم سيجيبك: نعم. والقارئ الذي نشأ في ثقافة محافظة منغلقة على نفسها سيجيبك: لا.

إذن فالمسألة تبدو محسومة مع القارئ الأول، فهو يستعمل معايير فنية خالصة ليزن بها العمل الأدبي، ويقيس بها عمقه. أمّا القارئ الثاني فإنه لن يكتفي بهذه المعايير الفنية، سيستعمل معايير من خارج النصّ تكون مصنوعة من تابوهاته، وستكثر الاصطدامات بينه وبين النص الذي لا يعترف بتلك التابوهات، وعادة ما يكون نصا منقولا عن ثقافة أخرى، أو قد يكون صنيع كاتب تجرّأ على تابوهات ثقافته، وفي هذه الحالات تكون ضجة النصّ أكثر دويّا، فالمسألة هنا تتجاوز النص لتلاحق كاتبه.

كثير من الكتّاب يسلّحون نصوصهم بالرّموز قبل دخولهم غابة التابوهات، فيغلقونها أمام المقروئية العامية، وبذلك يتمكّنون من

تانيا الكيالي

التعبير عن أفكارهم دون توجّس من سدنة التابوهات، إنهم يستعملون سلّم ابن رشد في الصعود إلى أفق المعنى: للعامّة ما للعامّة وللخاصة ما للخاصة. فكرة الرّموز هذه كانت حلا للكاتب وللسلطة الرقيبة معا، فالكاتب لن يضطرّ لختن أفكاره وتحجيمها لأجل ألا تحتكّ بتابوهات ثقافته، والسلطة الرقيبة سيزول عنها الحرج أمام العامّة التي لن تفهم النص المتخفي برموزه، وهي لا تمتلك الأدوات المعرفية لفكّ تلك الرّموز والأحاجي.

لكن كيف خُلقت التابوهات؟ وهل في خرقها تهديد لوجود الإنسان؟ إذا كان الإنسان يعتقد في مقدّس ما ويراه منزّها عن كلّ قول فما خوفه من كلام يحاول المسّ من معتقده؟ وما خوف الإنسان المتدثّر بالقماش من ظهور إنسان عار على خشبة مسرح أو في ظهور عاشقين يتعانقان في فيلم أو في رواية؟

نحن هنا نسأل فقط، ببراءة طفل يسأل والديه عن طريقة مجيئه إلى هذا العالم، فيجيبانه بأمثولة زرقاء عن لقلق ألقى به من مدخنة البيت، وحلّق بعيدا، وحين لا تكون لهما مدخنة في بيتهما ولا تكون لهما مخيلة تطير فيها اللقالق، يجيبانه بصفعة تسكته فورا، وتخلق داخله عقدة نفسية اسمها التابو. إذا كانت المسألة تبدأ بعقدة نفسية، فعلينا إذن أن نطرق باب كوخ الشيخ فرويد، ونطلب منه فانوسا لنعود به إلى غابة الإنسان الأول، ونحاول فهم عقدته النفسية الأولى التي تناسلت منها كلّ هذه التابوهات.

يقول فرويد في كتابه "الطوطم والتابو"، تحديدا في مقالته "التّابو وازدواجية الانفعالات العاطفية"، "تابو هي كلمة من أصل بولينيزي 'السكان الأوائل في أستراليا'، نجد صعوبة في ترجمتها، لأننا لم نعد نملك المفهوم الذي تدلّ عليه، لكن ما نفهمه هو أنّ معناها يتشعّب إلى اتجاهين متعاكسين، يعني لنا من جهة: مقدّس، مبارك. ومن جهة أخرى: مدنّس، خطير، محظور. وما يعكس كلمة تابو في البولينيزية كلمة نوا، أي اعتيادي". ويحاول فرويد توضيح مفهوم التابو، فيستشهد بقولة لعالم النفس التجريبي "فونت"، الذي يقول "إن التابو يشمل جميع العادات الاجتماعية التي تعبّر عن التهيّب من مواضيع معيّنة مرتبطة بتصوّرات عبادية، أو من تصرّفات تتصل بهذه

المواضيع".

نفهم من كلام فرويد وفونت أنّ التابو يرتبط بتشكّل نفسية الإنسان، بمعنى آخر هو مرتبط بوجوده وبتمثّلاته للعالم قديما وحديثا، وعلينا الآن أن نقلب السؤال الذي طرحناه قبل استشارة فرويد، بحيرة الوالدين اللذين سألهما ابنهما: كيف جاء إلى هذا العالم؟ ولم يمتلكا أمثولة فيها لقالق ومدخنة يكفّان بها إلحاحه للفهم.

ما جدوى أن يمسّ الكاتب تابوهات ثقافته؟ وهل شرط الإبداع هو في اختراق هذه التابوهات؟

يقول فرويد في المقالة نفسها "إنّ الشعوب البدائية (يصفها هو بالمتوحشة) لديها موقف ازدواجيّ تجاه محظوراتها التابويّة، ففي لا شعورها ليس هناك ما هو أحبّ إليها من انتهاك هذه المحظورات، إلا أنها تتخوّف من ذلك، وهي لا تتخوّف منه إلا لأنها ترغب فيه، والخوف أقوى من اللّذة".

يقصد فرويد، أنّ من ينتهك التابو تكون لذّته أقوى من خوفه، ثمّ إنّ الجماعة لا تحسّ بتابوهاتها إلا بوجود من يمسّها، وفي حديث آخر لفرويد يقول فيه "إن من يلمس 'تابوا' يصبح هو نفسه 'تابوا'، لأنه يملك الأهلية الخطيرة لإغراء الآخرين باتباع مثاله، إنه يوقظ داخلهم حسدا: لماذا يُسمح له بفعل ما هو محظور دون الآخرين؟ هو حالة عدوى إذن، ولذلك وجب تجنّبه هو الآخر".

إن الكتابة التي تلمس التابوهات لن تخرج من لعبة التابوهات، بل إنها تزيد من تثبيتها، إنها تلعب بكرتيْ اللّذة والخوف لا غير. تضع الثانية قبل الأولى، لتنهض الجماعة وتعيد الكرتين في وضعهما الأول، وتضيف تابوا جديدا إلى تابوهاتها، تسمّيه النص الملعون، وتمنعه من دخول مكتباتها الرسمية، بينما تقرؤه في غرفها السرّية كما تفعل مع تابوهاتها الأخرى.

كاتب من تونس

مقال

خارج الكلام وخارج الصمت

المرأة والكتابة وجسد اللغة

هيفا نبي

”وتلزم أنت الصمت، فكثيراً ما يؤدي الكلام إلى سوء التفاهم“. هذا ما يقوله الثعلب للأمير في رواية الأمير الصغير لأنطوان دو سان أكزوبيري. لن نحتاج للكثير من إعمال الفكر لنجد أن التلازم بين الكلام وسوء الفهم دقيق إلى درجة أن الصمت يصبح الحل الأوحد في الكثير من الأحيان.

في المواقف المماثلة حيث تتطلّب الإيضاحات صياغات تعبيرية خاصة قد يجد أيّ منّا نفسه أمام أزمة غموض، إذ يصبح المرء عاجزاً مكبّل اليدين أمام ضيق ثوب اللغة على جسد الفكرة أو الإحساس المراد وصفه. فيتراوح العجز بين الشعور بأننا أسأنا التعبير وبين اعتقادنا أن اللغة لا تسعفنا إما لأنها قاصرة أو مغلقة أو أن التعبيرات التي نودّها لا تمرّ بمضائق اللغة التي نعرفها. وكحال مريضٍ لا يعرف ما الذي يؤلمه بالضبط، نترك غالباً شعور العجز أمام اللغة بعد عراكٍ قصير أو طويل، محيلين عجزنا لقصورٍ فينا أو لعدم رؤيتنا للفسحة اللامرئية للاحتمالات التي من الممكن أن تتضمنها اللغة، أو قد نشعر أننا لم نصل بعد لمرحلة تجاوز أزمة التعبير لأننا لم نعرف لها بعد من اسم أو مسبّب.

تصف هيرتا مولر الروائية الألمانية الحاصلة على النوبل عام 2009 هذه الحالة بدقة في واحدة من أعمالها الفريدة فتقول ”كان يجب عليّ عدم إظهار هذا الضياع في الذهن. وعلاوة على كل هذا لم يكن في اللهجة المحلية كلمات تستوعب تلك الحالة ماعدا الصفتين ’كسول‘ لتوصيف الجزء الجسدي من الحالة و’مكتئب‘ للجزء النفسي منها. وأنا لم أملك لنفسي الكلمات المناسبة، وحتى الآن لا أملك به.. لا في اللغة الرومانية، لا في اللغة الألمانية الشرقية ولا الغربية، ولا في أيّ كتاب أيضاً.“ أذكر أنّي مررت في العديد من المواقف بهذا الضيق أمام اللغة، وقرأت أو سمعت نساءً غيري أحسسن بقلة الحيلة ذاتها أمام عروض اللغة الفقيرة. لما قلت نساء؟ وهل يتعلق الأمر بالنساء وحدهن؟ بالتأكيد لا، هذا العجز اللغوي قد يعاني منه أيّ منّا، ذلك أن اللغة منشئة ومتغيرة ومتوافقة مع الحد المطلوب من حاجتنا، وتأتي في خطوة لاحقة لما نفكّر به ونعتقده. إضافة إلى أنها تُخزّن في تشكيلها مجموع الأيديولوجيات والمفاهيم والثقافة والأفكار التي شكّلتنا، وهذا بحد ذاته يُعتبر إغناءً وإفقاراً لقوانا التعبيرية على حد سواء: فنحن من نضع اللغة قيد الوجود باستعمالها وهي مَن تحدّنا وتقيّدنا من جهة ثانية بقيودها التي حُدِّدت سلفاً بمجموع أفكارنا وثقافاتنا وحاجاتنا العامة. غير أن ما أود ذكره هنا لا يتعلق بهذا العجز العام بل بنوع من النقص التعبيري فيما يخص جوانب محددة من العواطف والأحاسيس الإنسانية، منها شيئاً. ليس صحيحاً أن اللغة تملك لكل حالة ما يصفها من كلمات. ومن غير الصحيح أيضاً أن المرء يفكر مستخدماً الكلمات. حتى هذه الأيام أفكر بأشياء كثيرة من دون كلمات، لأني لا أجد أيّ كلمة تفي بالغرض الذي أفكر الجندري للغة لأني أرى أن هناك نقصا في مخزون تعابيرنا الخاصة بالجوانب العاطفية والإنسانية والشعورية وحتى الخيالية.

اعتقد الناس لوقت طويل أن اللغة هي مجرّد ناقل ووسيلة للتعبير وأنها هنا لحاجتنا واستخداماتنا ولذا فهي حيادية، سلبية، لا تتفاعل مع أيّ من المعطيات النفسية أو الاجتماعية أو التاريخية للناطق بها. من هذا المنطلق قد يعتقد أيّ منا أن اللغة هي واحدة، لا تُغيِّر صبغتها سواء استخدمها ذكر أو أنثى، طفلٌ أو بالغ لكونها أداة للاستعمال لا أكثر ولا أقل. لكن الاتجاهات الفكرية التي تناولت اللغة بدءا من سوسير ومروراً بالبنيوية والتفكيكية أظهرت لنا أن اللغة هي الحامل الأعظم لثقافتنا وتاريخنا، ولذا فهي ليست ولن تكون حيادية بل هي مشارِكة ومؤسِّسة لحد بعيد لأفكارنا وتوجهاتنا وثقافتنا، فاللغة هي ”نحن“، كما أننا ”هي“.

فيما يخص العجز أمام اللغة يمكننا أن نرى أن تطوّر اللغة لعب دوراً كبيراً في تضييقها، وتوزَّعَ هذا التحديد على مراحل تاريخية إذ أجد أن ثمة حدّا من هذا العجز أمام اللغة تجسّده النساء بصفة خاصة دون أن يعرفن ما مصدر هذا اللاتطابق بين ما يودّن قوله وبين ما تعرضه اللغة من إمكانياتها عليهن. تستوقفني هذه الجزئية المتعلقة بالاستخدام طويلة تتعلق ليس فقط باللغة كأداة بل بطرق إخضاعها لتكون معبّرة عن فئة دون أخرى وفي هذا الصدد فالفئة المقصودة هي فئة الذكور ذلك أنهم وعلى مدى عقود طويلة كانوا هم أكثر من يستخدم اللغة (اللغة المكتوبة) ويحرِّكها ويسبِكها، من رجال الدين إلى الفلاسفة فالحكماء فالكتاب فالشعراء فكتبة القانون فالساسة وغيرهم. وهذا يعني من ضمن أشياء كثيرة أن اللغة أخذت الكثير من تكوينها من طرف واحد على حساب الآخر، أي أن لحم اللغة صار إلى حدٍ ما لحماً ذكرياً، وهذا يترتب عليه أن بعض أوجه التعبير الخاصة بغير الذكر فُقدت أو لم يكن لها أساساً مكاناً في اللغة المُعتَمدة وخاصة المكتوبة منها. في قلب هذه الأكثرية الذكورية للغة تبدو اللمسة النسائية ضعيفة وأقلية. وإن قلت لمسة فلا أقصد بذلك لمسة تحسين أو تجميل، بل لمسة مشاركة.

تخيل أنك في مملكة كل الكتابات فيها هي من صياغة الأطفال ومن الكلمات الخاصّة بعالمهم وتفكيرهم وخيالهم، هل يمكنك تخيل اللغة التي ستصعد خلال سنوات قليلة إلى قمة الهرم بينما تندثر كلمات أخرى هي بالضبط تلك التي لا تنتمي لعالم الطفل؟ قد يبدو المثال فانتازياً لحد كبير لكنه ليس بعيداً عن الحقيقة.

إن العالم المكتوب الذي كان حكراً على الرجل لعب دوراً في انخفاض قيمة أو أهلية أو على الأقل حضور اللغة الأنثوية. وخلق ربما هذا التراجع في اللغة الأنثوية تراجعاً حقيقياً في بعض الجوانب التعبيرية التي ربما كنا سنتلافاها لو أن الصبغة الأنثوية كانت مشارِكة جنباً إلى جنب مع الكتابة الذكرية. يُضاف إلى هذا الاستخدام الذكري المستدام للغة تمرير الثقافة الذكورية الكاملة عبرها، بوعي أو بغير وعي، مما جعل اللغة مشدودة لأوتار تقيّدها من كل الجهات.

يشير الناقد عبدالله الغذامي مستنداً إلى مفاهيم النقد الثقافي إلى أننا بحاجة لنظرة أخرى لتاريخ اللغة العربية وكتابتها الإبداعية إذ أنها تبطن عكس ما تُظهر، وما تبطنه ليست قيم الحب والتسامح والانفتاح نحو الآخر بل قيم رجعية استبدادية تحتاج منا لتفحّص وتدقيق وتصحيح، وفي إيراده لأمثلة من كبار المبدعين العرب كالمتنبي وأبي التمام وأدونيس وقباني يقول ”نكتشف ما تنطوي عليه نصوصهم من أنساق مضمرة تنبئ عن منظومة طبقية/فحولية/رجعية/استبدادية، وكلها أنساق مضمرة لم تكُ في وعي أيٍّ منهم، ولا في وعي أيّ منا، ونحن وهم ضحايا ونتائج لهذه الأنساق. وظلت هذه الأنساق اللاإنسانية واللاحضارية تتسرب في ضميرنا الثقافي، دون كشف أو ملاحظة، حتى لنجد تماثلا مخيفاً بين الفحل الشعري والطاغية السياسي والاجتماعي، مما هو لبّ النسق وبؤرته غير الملحوظة. ولقد آن الأوان لممارستنا النقدية بأن تتحرك باتجاه نقد الخطاب الإبداعي، من بوابة النقد الثقافي لتكشف ما يحمله الإبداع، لا من جماليات نسلّم بها، ولكن من قبحيات نسقية لم نكن ننتبه لها.“ يضاف إلى ما

نهاد ويشو

نهاد ويشو

سبق من أثر سبب آخر لتراجع اللغة بشقها الأنثوي ويتلخص بعدم أخذ الكتابة النسائية على محمل الجد والتي قد تكون أيضاً إحدى مفرزات "العقلنة" التي أصابت العقل الغربي لتسير باتجاه رفض كل ما ينتمي للطبيعة وللعاطفة والغريزة واعتبارها معايير سلبية، غامضة، هشة، مراوغة لا تنتج إلا الضرر والضعف. والتي كانت نتاج عمل فلسفات وأفكار رسخت لعقود طويلة منذ ديكارت على وجه أكمل أولوية العقل والعقلانية وجعلها المعيار الوحيد للحكم، فأصبح الحضور الإنساني مختَزلاً بمعرفته والمعرفة مقيدة بالفكر فقط "أنا أفكر، إذن أنا موجود". هذا التكريس للعقل لم يلقي بظلاله على المرأة فقط، بل على الطبيعة أيضاً إذ يرى العديد من المفكرين أنها بررت استخدام الطبيعة بكائناتها الحية كأشياء للاستخدام فقط وبررت العنصريات بكل أنواعها (فمبدأ كل من يمارس العنصرية هو أن الذي أدنى منه هو أدنى عقلياً وغير صالح للسيادة سواءً أكان أسوداً أو امرأة أو عبداً).

ومن نتائج هذه الأفكار التي آمنت بالعقل والعقلانية هو أنها جعلت اللغة ذاتها عقلانية أي جعلتها جافة، أحادية النظر، مجردّة وتعبر بشكل مباشر دون النظر لثقل كل أشكال التواصل التي تترافق مع اللغة فيما لو سُمح لها أن تعبر عن الجانبين الأنثوي والذكري فيها. عقلنة اللغة ربما تكون السبب في عجزنا عن التعامل مع الجوانب الداخلية فينا ذكوراً وإناثاً. وقد يجد أيّ منّا نفسه في هذا التعبير الدقيق لهيرتا مولر حين تقول "لا تتطابق المجالات الداخلية للتفكير في آلية فعلها مع اللغة، إنها تجرّك لأمكنة لا تستطيع اللغة تغطيتها. وغالباً ما يأتي الحسم حين يقف الكلام، ومع ذلك يستمر النبض المولّد لهاجس التكلم في الفعل، حينئذ يتجاوز هو الحالة دون أن ينطقها."

لكن هل تبقى اللغة عالقة في قصورها فيما يخص الكتابة النسائية؟

بالتأكيد لا، فرغم هذا التضييق على اللغة إلا أن هناك نوعاً من الكتابة النسائية التي استطاعت، بقصد أو بعفوية، تجاوز عائق ثوابت اللغة لتعطي بالمحصلة لغة بحلة جديدة. فكلما قرأت كتابة نسائية مميزة وجادة أرى بوضوح أن العجز اللغوي يتخلخل ويتراجع أمام قوّتها، وأن ضيقها يغدو مسألة نسبية.

ما يجعل الأمر يبدو كأنه صراع داخل اللغة هو أننا نجد في كتابات هاته النسوة طريقة خاصة في التعامل مع اللغة وصياغات فريدة تثير حساسية ونشوة أمام المكتوب، فاللغة في كتاباتهن تتفجر كينابيع وتغدو كأنها أفلتت للتوّ من قيود غير مرئية. هؤلاء الكاتبات يتمكّن من جرّ اللغة لطريقٍ غير معهود، طريق أكثر من لغوي، حيث الأدوات المستخدمة فيه وإن بدت حروفاً وكلمات هي أوسع من الصيغ المتُّفق عليها في استخدام اللغة. ويستطيع القارئ من خلال حسه وتذوّقه للمادة الأدبية أن يدرك أن انبثاق المعاني والرؤى الجديدة متعلقة بحضور مميز واستثنائي للغة بحد ذاتها. من بينهن أذكر توني موريسون، دوريس ليسينغ، هيرتا مولر، إريكا يونغ، مارغريت دوراس، جورج إليوت، أليس مونرو، كارسن ماكالرز وعربياً إيمان مرسال وغيرهن ممن كتبن بحرية حقيقية في التعامل مع اللغة.

لا يعني كلامي هذا أن اللغة النسائية هي لغة جميلة، فلا علاقة لحرية تناول اللغة بجمالها، فالجمال قد يكون في كثيرٍ من الأحيان مصطنعاً، متحايلاً، مخادعاً أو ببساطة تطويعاً للغة بالإكراه لمآرب شكلية، وعلى العكس ما أستشفّه من بعض الكتابات الأنثوية هو عفوية صارخة تجعل الفاصل بين الكتابة وبين الإحساس الكامن خلفها شفافاً وواهياً. كأنهن يلملمن طرفي "الكلام" و"سوء الفهم" الذي تحدث عنه ثعلب أكزوبيري لا ليحلن عوضاً عنه الصمت بل ليقدّمن إبداعاً هو خارج الكلام وخارج الصمت.

كاتبة وأكاديمية من سوريا مقيمة في ألمانيا

قص

أيامي القادمة

يوسف وقّاص

الترام

ينزلق الترام على السكة الحديدية مصدراً الضجيج نفسه الذي كنت قد سمعته يوم أمس خلف معمل صغير لانتاج عيدان الثقاب في شارع ستاديرا. عددنا خمسة، لا أرى السائق، لأنني اخترت مكاناً في أقصى مؤخرة العربة. أراقب الأشخاص خفية واحداً تلو الآخر: بنغالي، صيني، عربي، إيطالي من الشمال، إيطالي من الجنوب. كلمة واحدة بلهجتهم تكفي لفضح انتمائهم. استهل الحديث مع الجنوبي الذي يحمي أنفه وفمه بلفاع من الصوف: هل تعرف مكاناً يبيعون فيه الكمامات؟ وكيف لي أن أعرف ذلك؟ يجيب بحنق.

آسفة، ولكن لا يمكن العثور على الكمامات في الوقت الحاضر، حاول أن تصنع واحدة في البيت، ثمة فيديوهات كثيرة يمكنها أن تساعدك في هذا الشأن، ثم علينا أن نبدع، أن نتدبّر أمورنا، إنه الوقت المناسب لذلك، ألا تراني مصيبة؟ تبادرني السيدة بلطف. لا يساورني الشكّ في أنها واحدة من أولئك اللاتي يقرأن بشغف أغاثا كريستي وسفيفا كازاتي موديلياني، ملكة الروايات الارستقراطية.

أعرج على البنغالي أيضاً: كيف حالك يا أخي، أثناء المطر تبيعون المظلات، وأحسبكم الآن تبيعون الكمامات، أليس كذلك؟ البنغالي لا يرد، ولكنه يبتسم بوداعة. هؤلاء غالباً لا يتحدثون، ولا تعرف ما إذا كانوا يتكلمون الإيطالية أم لا. أتراجع إلى مكاني في الخلف وأفكّر: لو كان بإمكاني الاختيار، لسافرت في الحال إلى إحدى جزر بحر الكارايبي، لأبحث عن عزلة تناسب بؤس هذه الأيام، غير أنه، لسبب غريب، تخطر ببالي حكمة مُرَابٍ عجوز كنت قد التقيته أكثر من مرة في ساحة دي أنجيليس. ففي كل مرة، كما لو أنه يختبر جلادتي، كان يبدأ حديثه بتلك النغمة المعهودة لرأسمالي عتيق: ها قد وجدتم الخبز والزبدة، تعملون وتلبسون جيداً، وعذراً لوقاحتي، تنعمون بالحرية أيضاً، تلك التي لم تتذوقوها في حياتكم. لا عليك، كنت أجيب، ليس من ثمّة وقاحة، مجرد صفاقة تأنس لها نفسي لما تتكرمون عليّ بنصائح ثمينة. كان العاهر يضحك عندها من كل قلبه: وتعلمتم البراغماتية أيضا! يضيف بخبث.

يتوقف الترام، أنزل واتجه مباشرة نحو السوبر ماركت، ساعات ويبدأ الحجر الصحي، خطوة عملية لتطويق هذا الكائن اللامرئي، ولا أدري من يطوّق الآخر في هذه الحالة، هو أم نحن؟ في الطريق، تشدّ انتباهي شجرة زمزريق أثيبي ((Cercis siliquastum تضج بالألوان البراقة، فأتوقف والتقط صورة لها، وكأنني بهذا أودع العالم الخارجي. واسم هذه الشجرة، حسب المصادر المتعددة، مشتق من المصطلح اليوناني "Kerkis"، للإشارة إلى شكلها الانسيابي ومن اللاتينية Siliqua، أو بالأحرى "البدن المحدب"، وكلاهما يتعلق بشكل ثمارها.

إلا أن الاسم الشائع لهذه الشجرة هنا هو "شجرة يهودا"، في إشارة إلى منطقة ما يسمى "يهودا والسامرة"، أي الضفة الغربية في فلسطين، حيث منشأها، والتي انتشرت منها في جميع أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط. ولأنها تزهر تقريباً قبل عيد الفصح بمدة قصيرة، ولدت حولها بعض الأساطير القديمة المرتبطة بالمسيحية المبكرة كتمثيل رمزي لبعض أحداث الأيام الأخيرة للمسيح في الأناجيل.

فالظهور المفاجئ لزهور ذات لون أرجواني بنفسجي مكثف على اللحاء المجرد، حتى قبل الأوراق، سيمثل بشكل رمزي آلام المسيح، ويقال أن يهوذا الإسخريوطي منح "قبلة الخيانة" للمسيح تحت هذه الشجرة، وبعد ذلك، لم يصمد أمام وخز الضمير، فشنق نفسه. أقارن في ذهني بين قبلة يهوذا وقبلة كورونا، وأتساءل: هل تعتبر اليوم القبلة، أو حتى المصافحة، خيانة بحق الآخر؟

السوبر ماركت

تتوالى غمزات الشمس من خلف أشجار كستناء الجبل وزهرة العنقود السنطية (كنا نأكل عناقيد أزهارها البيضاء في صغرنا!)، ثم إطلالة خاطفة قبل أن تحجبها حانة إزولا أنيتا. حالما آخذ مكاني في الرتل الطويل أمام السوبرماركت، أبدأ في تأمل الأشخاص الذين ينتظرون دورهم في الأمام وفي الخلف. نظرة بانورامية مع إمعان في تفاصيل الأزياء والملامح والأحذية. يتناثر الفرح هنا على وجنات فتاة شابة ترتدي جينز ضيق وسترة جلدية تبرز ماركتها المشهورة على ظهر الياقة. أصابعها الرقيقة تلمس بخفة شاشة الخليوي. ثم بصوت دافئ: ثقي يا أمي.. اطمئني يا أمي.. طبعاً، طبعاً، لن أتأخر. وتلقي نظرة على الأشخاص الذين يسبقونها: لا يزال أمامي عشرون شخصاً أو ربما أقل، ثقي يا أمي لن أتأخر يا أمي. تنهي المكالمة وتبتسم. حتى أنها للحظة تكاد أن تضحك من أدائها الفجّ، لكن حياءها يخنق الضحكة فتعضّ شفتيها وتخفض نظرها نحو عربة التسوق.

ينتبه شاب إلى الأمام قليلاً، يقيس المسافة ويرجع خطوة إلى الوراء. يحملق فيه الرجل الذي يليه، يهز رأسه ويرسل لي نظرة ذات مغزى،

أحدق بدوري في الشاب، والآخرون معي، ونصل جميعاً إلى تبادل نظرات لا نعرف كنهها. حتى أن أحدهم يوشك أن يتكلم معي، ولكنه يكتشف أن المسافة لا تساعده، فيحول نظره نحو الحارس الأفريقي على الباب.

البعض منهم يشعر بضيق عندما "يأمرهم" بالدخول: "تفضلوا". ولكنه أمر في النهاية. ألا يكفي الكورونا ليأتي أفريقي ويأمرنا، اسمع صوت سيدة في المقدمة، حيث تبحث حالاً عمّن يعاضدها. ابتسم لها بقوة، لعلها بادلتني الابتسامة، فقد تحرك قناعها الواقي قليلاً وتقلص فكاها ثم صدرت عنها زفرة طويلة.

خطوة أخرى، ويصعد الضباب من النفق. خطوتان، وها أنت أمام العملاق الغاني. كلا أنا من ساحل العاج. بدلة سوداء، قميص أبيض وربطة عنق كحلية. هندام يفرض الرهبة، بالإضافة إلى القامة الطويلة والمنكبين العريضين. في النهاية، أفضل من لا شيء، الديكتاتوريات واحدة سواء في أفريقيا أو في آسيا، والمصير واحد. أنت مثلاً ماذا تعمل؟ لا تدّعي بأنك وجدت عملاً أفضل من عملي. تصوّر أنني لا أعمل. كيف تعيش إذن؟ ألّح له بأنني من "أولئك". آه، يعبّر عن دهشته، ولما لا، إذا سنحت لك الفرصة! هيا، تفضلوا... واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة... كفى.

نمشي بوقار، الواحد خلف الآخر، ونحافظ بدقة على المسافة التي حددها المرسوم الوزاري: متر واحد. ثم تبدأ لعبة من نوع آخر بين أقسام المواد الغذائية والخضراوات. فإذا ظهر أحد ما من أقصى طرف القسم، كنا نتراجع بسرعة، كما لو أننا بوغتنا بحيوان مفترس.

ومما لا شك فيه أن القلق من لقاء محفوف بالمخاطر، كان له تأثير حاسم في نسيان شراء نصف الأغراض. حتى أن كلماتنا، بعد أن أصبحنا

في الخارج، كانت متشابهة تقريباً: يا مريم يا يسوع، نسيت السكر وسلق كتالونيا. يا الله، نسيت العدس والبطاط. وهكذا، كلما تقدمت في الطريق، كانت تتتالى في ذهني الأغراض التي نسيتها، ومنها الخبز.. نعم الخبز. وأين كان عقلك؟ صاحت الزوجة، كالعادة شدهتك إحدى الفتيات الجميلات! نَفَسٌ عميقٌ، من الأفضل عدم الردّ، فالعزلة طويلة، ومن الأفضل التزام الصمت، وإلا سيكون مصيري مثل مصير العجوز الإيطالي الذي لجأ إلى الشرطة وأعلن بكل هدوء أن الكورونا أفضل من البقاء مع زوجته طيلة اليوم!

اليوم الأول

في اليوم الأول انتابني حنين جارف إلى تناول فطور الصباح بجانب المدفأة، كما كنا نفعل في زمن يبدو لي الآن سحيقاً. الخبز الطازج بالسمسم والجبن والزيتون اللذان تغرق نكهتهما أرجاء الدار. ثم تلاشى ذلك الحنين مع وصول طلائع الكتّاب، وهم يحملون مؤلفاتهم بأيديهم ويدورون تائهين بين الجدران. استعيد الكتب منهم، وأضعها على الرفّ. لا أسمع أحاديثهم، أشعر وكأنها موجودة في ذهني منذ أمد بعيد.

شذرات من هنا، وحِكَمٌ من هناك، وفي كل هذا، موسيقى أوبرا إيطالية قديمة، لعلها "لا ترافياتا"، تتناهى من الشقة المجاورة. ابتهج، فها أنا ذا أشهد التغيير الأول بعد فرض الحجر الصحي، فحتى يوم أمس كنا لا نسمع سوى أغان أميركية صاخبة، أو في أفضل الأحوال أغاني كلاوديو فيللا العاطفية التي كان يسمعها الجدّ أو الجدّة، آهات وتأوهات أين منها مطربينا في الستينيات!

ثم فجأة شيء ما في عقلي الباطني، أخذ يذكرني بالمساحات التي يجب أن نكتفي بها طيلة هذه المدة. والأدهى من ذلك بدأت أراها حالاً وهي تتقلص أمام عينيّ: هنا لا.. هناك لا.. البلكون بارد، الحمام ليس مكاناً للمطالعة، فأعود إلى نفس الزاوية التي كنت اشغلها بضع ساعات في اليوم، واستغرب كيف كنت معتاداً على ذلك الحيز الصغير، ولا أذكر بأنني اشتكيت منه أبداً.

أتجول قليلاً بين الأريكة وطاولة الوسط، أربع خطوات ونصف، أكتشف ألوان السجادة، وأنحني لأفحص خيوطها. ماذا تفعل بحق السماء؟ أنهض كمن أصيب بلسعة أليمة، وأعود إلى مكاني وراء طاولة الكمبيوتر. أكتب بداية قصة قصيرة: " إذا كنت تريد أن تعيش في بيت وسط غابة من أشجار الغار، يكفي أن تنزل في محطة "واغنر" من قطار الأنفاق وتنتظر بجانب كابين الهاتف. سيمرّ وقتاً طويلاً قبل أن تحضر فتاة سمراء، ذات شعر طويل وعيون حالمة مثل أمسية صيفية". ألاحظ بأن أفكاري تلتمس شيئاً لم يعد في متناول اليد، وأتوقف طويلاً أمام هيئة الفتاة السمراء والأمسية الصيفية. هل كانت تلك الأمسية حقيقة أم خيال، أرجّح في النهاية، أنها كانت حقيقة، إلا أنني لا أستطيع أن أتذكر لا المكان ولا أي تفصيل من ملامحها.

المطبخ

تُكدّس الوقت جزءا بعد جزء، بينما بيد تحرك الطعام في القدر، وباليد الأخرى تمسك بالنوطة الموسيقية لابتداع حركة أخرى. إنه الجنون بعينه، كلا، إنها تقريباً الحياة الاعتيادية لزوجة تريد أن تعيش بكلتا يديها. لكن هذا الهدوء الذي يكتنف الروح فجأة، هل مرده بداية نغمة جديدة، أم بحر الاخضرار الذي يلج من النوافذ، أو ربما لأنني ذهبت لمرة واحدة إلى لقاء أفكاري السوداوية ولم أطلب منها أن ترافقني؟

القطعة الموسيقية تجذبها الآن، والاثنتان تلتقيان في مكان بعيد لا يسمع فيه سوى صخب أنفاسها المضطربة، القطعة تصل إلى نهايتها مفسحة المجال للتأمل، ولكن هذه المرة من منظور مختلف، تتعمد اللغة أن تنساب بنفس إيقاع النغمة. يخامرني الشعور بأن النغمة المفردة تبدو جنوناً، نادراً ما يتمكن مؤلف مجهول من جذب جمهور متعدد الأذواق، يمكننا على الأقل طرح برنامج متكامل يضم أسماء مؤلفين مشهورين، نتعرف قبل كل شيء على أفكار هذا الموسيقي. لن نفعل أكثر من إضاعة الوقت. المعرفة ليست مضيعة للوقت أبداً. ها قد وصلنا إلى لبّ الموضوع! إذن، أنت تدّعي المعرفة ولا تعرف كيف تتذوق لحناً موسيقياً؟ أحاول إعادة السؤال بصيغة مختلفة: هل يخال لك أنني من أتباع الهائم المجنون؟ ومن يكون هذا؟ ساشرح لك كل شيء منذ البداية. أيّة بداية؟ يوم التقينا أم عندما ضبطتك معها في محطة القطارات؟ يحتدم النقاش، ولحسن الحظ لا تطير أطباق المعكرونة الساخنة في الهواء.

الشرفة والنباتات

يحاول الإنسان أن يفصل تنفّسه عن تنفّس الطبيعة، وهنا ينشأ عدم التناغم: الإنسان يبني نوعاً من الحضارة مصنوعة من الخيال والأوهام النمطية التي يحاول من خلالها أن يتجاوز الطارئ وحدود الطبيعة، ومن جهة أخرى، يعتقد بأن الطبيعة يجب أن تعتني به. في عصرنا هذا الذي يتميز بقمة التكنولوجيا، فيروس مجهري تمكن من تحجيمنا وإعادتنا تقريباً، مع مخاوفنا، إلى فجر التاريخ، عندما وقف الإنسان مشدوهاً أمام النار.

كيف نعيش في طبيعة فقدت طبيعتها، وفي هذا النطاق ينحصر المرض. فمن جهة علينا أن نعترف أن الأمراض تنتمي إلى الطبيعة، مخلوقات حية بين مخلوقات حية أخرى. ومن جهة إنها مسألة معرفة، لهذا لا يمكننا أن نستبعد إمكانية أن الإنسان، عبر العلم والخيال، يمكنه أن يساهم في بناء علاقات متميزة مع شيء من التوازن المنظور.

علاقات مؤسسية حول الاعتراف بالألم الذي هو خاصية إنسانية، في ذلك الألم يكمن الفرد، والفرد الذي يتألم يستدعي العطف والتقرب منه. ولكن كيف؟ التقرب ينقل العدوى، أليس كذلك؟ ربما كنت تعني اللمس، أو أنه تعبير مجازي. عليك أن تحدّد، فلن تنفعك الألغاز، منذ ساعة وأنت تتهرب من أي سؤال أطرحه عليك. هاك، لقد فكرت بالأمر، أنت تريد أن تستغني حتى عن تلك الأمور الصغيرة التي كانت تمنحني بعض السعادة، مثل إصلاح درف الخزانة، سقي النباتات وتنظيف رمل القطط. إنما الأمور تتغير بسرعة، هذا ما أحس به، ولا علاقة لكورونا بالأمر.

يمكننا دائماً أن نكون سعداء، حتى في اللحظات الحرجة، يكفي أن تنسى قليلاً، ولنفترض بأنك لا تستطيع أن تنسى الحروب وآلام الناس في بلدك، فمن الطبيعي أن يشعر المرء بآلام الآخرين، ولكن على شرط أن لا يجعل من ذلك مناحة تملأ القلوب بالغم وتجعل سهوب النفس أرضاً قاحلة. ها نحن، ها هي السماء تطفح بالنجوم، وبعد قليل، في الساعة التاسعة، سنغني مع الجميع "بيللا تشاو... تشاو... تشاو"، ثم نتفرج على فيلم السهرة، وبعد ذلك سنخلد إلى اليوم. كل ما هنالك، هو أن تعرف كيف تنظّم برنامجك اليومي، بلا تهويمات وأفكار لا نعرف بعد ذلك كيف نتخلص منها!

غرفة المعيشة

عندما يسري الزمن في شكله الاعتيادي والآلي، يتسلل خطر العيش بلا فكر. في مجتمع مثل مجتمعنا المعاصر، المبرمج بالإيقاع، تبدو حياة الإنسان مرتهنة بإرادات خارجية، ليس من أشخاص آخرين، إنما من آلية غير شخصية، الوسيلة نفسها التي نستعملها اليوم كإمكانية في التواصل الاستثنائي مع الآخرين. الإنسان نشط دائماً حتى في الثبات. إننا أمام ضربة مباغتة وكارثية، ليس فيما يخص الوقت فحسب، ولكن انهيار النظام الاجتماعي برمته. أي خلل ينسف حياتنا من أساسها: العمل، الراتب، الفواتير، العائلة، المواد الغذائية. والمشكلة الأساس هي الريموت كونترول. من يجرؤ؟ فلنحاول.

أتكلّم بخفوت،مع إضفاء لمسة حنان على صوتي المزعزع: يا حبذا لو تنتقلي إلى القناة الثالثة، ثمة فيلم جميل. أي فيلم؟ ترد بحدّة، وهذا يعني الرفض. فيلم "الطريق" لفيلليني. وتريدني أن أشاهد فيلماً من عصر الكوكو؟ حسناً، نتابع الفيلم التلفزيوني الأمريكي. عشرات القتلى خلال دقائق، كميات كبيرة من القهوة ووقفات طويلة أمام بائع الهوت دوك في شوارع نيويورك، هارلم بالضبط.

المشهد الأخير، نتابعه بصمت، حياكة الصوف وقراءة قصص قصيرة جمعها هيتشكوك في كتاب جيب، أشعر بارتياح كبير بعد قراءة القصة الأولى، الثلاثي الكلاسيكي: الزوج والزوجة وعشيقها. الزوج يفكر بحلّ مثالي، يأتي بثلاث زجاجات من النبيذ، إحداها مسمومة، ويطرح احتمالات البقاء: أنا وأنتِ، هو وأنتِ، أنا وهو. يوافقون بعد تردد، ينتقي كل واحد زجاجته، ويتفقان على موعد اللقاء في مقهى قريب. في اليوم التالي، تحضر الزوجة وهي تتلهف للقاء عشيقها، فتجد أن من ينتظرها كان زوجها. أرأيتِ؟ أبادرها، زجاجات النبيذ لم تكن مسمومة، والعشيق اختفى عن الأنظار، لأنه لم يجرؤ على شرب زجاجته.

لقد خدعونا بنفس الطريقة دائماً، منذ الثورة العربية الكبرى. ولا زالوا يخدعونكم، تجيب بتشفٍّ، ألا تذكر عندما باعوك نظارات يمكنك أن تشاهد من خلال عدساتها النساء عاريات! صحيح، ولكن الشركة البائعة أفحمتني عندما اعترضتُ. كيف؟ لقد أكّدت أنه يكفي أن أستخدم خيالي، فالنظارات مجرد حافز ليس إلّا!

غرفة النوم

ملجأ العواطف الرتيبة وهمسات الأيام الأولى التي تشربتها الجدران وطفحت هنا وهناك كبقع من الرطوبة لا يمكن إزالتها بأي منظف. تعود بنا الأيام إلى الوراء، ولكننا قلّما نتذكر أسعد اللحظات. بل نختلف فيما إذا كانت تلك التي شهدناها بعد احتفالنا بعيد زواجنا الأول، أو بعد تلك المشاجرة العنيفة التي انتهت بالتصاق أجسادنا في عناق طويل كتبت بعدها في دفتر يومياتي: إنها العاصفة البحرية الأولى التي تحدث على اليابسة. حتى أن هذه العبارة لا زالت تضحكني حتى الآن. الوسائد تتباعد تلقائياً، وأي كحة بسيطة تبعث على الشك. انهض واشرب جرعة من الماء. هل حرارتك مرتفعة؟ هل تشعر بالدوار؟ انتظر، لا تنم، سأجلب مقياس الحرارة. بعد كل غفوة، نستيقظ ونروي كوابيسنا لبعضنا البعض.

كانت بيوت داكنة، تقتات من الظلّ، وفي ذروة الشجرة كان يقبع بوم كبير، ينادي الريح، فأتت العاصفة وجرفت خمسة بيوت وبقي القمر معلقا على غصن شجرة. نتناول كتاب تفسير الأحلام ونبحث عن مغزى البوم والريح والعاصفة، ولكننا لا نجد اثراً لمغزى القمر المعلق على غصن شجرة.

إنه الخوف الناشئ عن الفيروس، الذي سيبقى معلقاً دائماً في كل ركن من كوابيسنا، كما حدث معي عندما وجدت ذلك القزم الأخضر الذي يأكل قشور البطيخ في أرض البيدر. ثم أخذ يلاحق الناس بالمذراة، ووصلت صرخات النساء إلى السماء، فانهمر مطر غزير وتدفقت السيول في كل مكان. إنه هو بلا شك، أكدّتْ قبل أن نغفو ثانية.

التواصل الخارجي: نحن بخير، وأنتم؟

إن ألطف الاتصالات هي تلك التي تحدث بعد منتصف الليل، أو بالضبط ما بين الساعة الواحدة والثالثة. يأتيك الصوت بين الجدّ والهزل من الطرف الثاني: لقد أردنا أن نطمئن عليك، طالما أننا "سهرانين"! تعود بي الذاكرة إلى تلك العادة الخبيثة التي كنا نقابل بها أولاد الموظفين أو الشرطة القادمين من محافظات أخرى، عندما كنا نرافقهم في جولة إلى الأماكن التي حدثت فيها جرائم أو مشاجرات عنيفة أدت إلى جرح وكسر عظام العشرات، لإخافتهم فحسب.

أبدأ بقراءة النشرة حالاً: اليوم 21 آذار 2020، عدد ضحايا فيروس كورونا في إيطاليا 793 شخصاً، ليزداد بعد النشرة الإخبارية التالية، بعد ثلاث ساعات تقريباً، إلى 810 أشخاص. 535 منهم في لومبارديا، المقاطعة التي أعيش فيها. أسمع من الطرف الآخر عبارات التعجّب وصفير طويل، يتبعه صوت نسائي: يا لطيييييييييف! وما العمل؟ يلتقط المحادثة قريب آخر. لا شيء، ستبقى الأمور هكذا، وتقديرات الخبراء تقول بأن العدوى يمكن أن تقضي على حياة الملايين من الأشخاص. مرة أخرى يا لطييف! بعد عشر دقائق تقريباً، اضيع بين

الأصوات، ولا أعرف بالضبط مع من أتكلم، حتى أن أحدهم يصيح كما لو أنه يؤنبني: كيف لا تعرفني، أنا ابن الحاج محمد، بيتنا بجانب البازار!

يؤلمني كل هذا التلهف، اشعل الضوء وأتناول أول كتاب تصله يدي، وأبدأ بالقراءة. يبدأ ذهني بتحليل هذا الشغف البريء تجاه الموت والحياة. لعلّي أخطأت، فهم ينظرون إلى الشمال بقدسية ترسبت في قلوبهم منذ اكتشاف الراديو والتلفزيون وظهور أول طائرة حربية في سماء بلدتنا. حتى جموع بحالها، ما بين الكبار والصغار، كانوا يهرولون نحو ساحة انطلاق الباصات لرؤية سائح أوربي أو أمريكي، ليتفرجوا على "الحضارة" ويعاينوه هو وألبسته من رأسه إلى أخمص قدميه. بينما هو ينظر إليهم كإنديانا جونز قبل أن يتلقّف سوطه ويأتي بتلك الحركة التي تخيف البشر والحيوانات.

تتواصل الاتصالات، ويبزغ الفجر محمولاً على أكتاف الضباب، وشعاع طفيف يلمس قلبي فأرتعش وأحنّ إلى سريري، لكن الضوضاء لا تلبث أن تغطي على السكينة المبللة بالندى، إنهم يتبادلون تحية الصباح، وآخرون يحملون ماكينة القهوة بيد ويلوحون باليد الأخرى للجيران الذي خرجوا لفسحة الكلاب. عواء وضحكات وعبارات تأنيب من أولئك المتزمتين الذين يجدون في هذا الخرق لقانون العزل، بداية النهاية للبشرية.

موكب الشاحنات العسكرية

أمد أصابعي لأتلقف تلك الصورة. ما زلنا نصعد. شاحنات الزيل الروسية تئن وإحداها تتوقف عند بعلشمية، قبل عدة كيلومترات من بحمدون. حرّك.. حرّك، يصيح الضابط من الأمام. ينزل السائق، يرفع بنطاله، ويهمهم ببعض الكلمات. يدي تصل إلى الشرفة، تمسك بمزهرية الفخار وتلقيها في الشارع. شخص ما يدخل الصالة، يناديني. أقف باستعداد وأعلن عن رتبتي ورقمي العسكري. يسألني عن الحمولة: ستة عشر صندوق، والبقية في الشاحنات الأخرى، يا سيدي. سجّل أسماءهم، اريدهم أن يتحركوا فوراً. لكن الشاحنة التي في المقدمة تعطلت. دعهم يمشون، ليس لدينا وقت. يشتم ويلعن، ثم يختفي في الفرن الذي صادرناه قبل أيام.

الجنود ينزلون الصناديق على الأرض، يفتحونها، وأحدهم يصيح: قوموا ولاك، أمر عسكري، بدنا نروح مشي عالشام. عالشام وإلا على بيرغامو؟ يسأل جندي ضئيل البنية. يضحك الآخرون. أضع الصورة على حافة الطاولة، وأحرك بالملعقة الخشبية صلصة البندورة. اسمع صوت زوجتي من غرفة المعيشة: لا تسرد مع ذكرياتك، والا ستحترق الصلصة! ينطلق الموكب من بيرغامو في صمت الليل، ونحن نتبعهم. لاجئون سوريون؟ ربما! يرتفع صوت شرطي من الحاجز الذي يفصل ما بين بيرغامو العليا وبيرغامو السفلى. نحن قادمون من لبنان، يجيب الضابط، نحمل "البضاعة" نفسها لكننا فقدنا الطريق.

بكاء الممرضات

في الجناح الأقصى للمستشفى، يتردد صدى نحيب خافت. هالات سوداء تركتها الكمامات والنظارات الواقية حول العينين والأنف والفم. نتفرج على الصور والفيديوهات، ونتقاسمها مع الأصدقاء. جمالهن الشاحب والعيون التي تخبئ الألم، تتراءى لنا مثل جيش من المحاربات اللاتي فقدن المعركة وهنّ الآن في طريقهن للبحث عن جواب لكل هذه المعاناة. إنه جمال من نوع آخر، الوجوه الشاحبة وتلك النظرة التائهة نحو اللا شيء، تلتمس أي موضع لتلقي فيه جسدها المنهك، وربما تنتظر ما هو أكثر من ذلك.

نتبادل أكثر من نظرة عبر شاشات الخليوي، نتحدث عنهم، نمدح بطولاتهم، وفوق كل شيء، نقارن بينهم وبين الجلادين الذين، ربما بدورهم، يضعون الآن الكمامات أثناء تعذيب المعتقلين. هم أيضاً يخافون من فيروس الكورونا، نقول وكأنما نعزي أنفسنا، على الرغم من يقيننا أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخيفهم وبقوة، هو قاعة المحكمة.

انحلال الصمت

هذا ليس لقائي الأول بالصمت، فأنا أعرف كل أسراره، وعبثاً يحاول الآن تضليلي بهمساته الكئيبة، وبحركاته التي لا يسمع منها سوى صدى بعيد لا ينتمي إلى هذا العالم. كلما استنبطت معانيه، يزداد غموضاً، ليس له ذاكرة، فهو ولد هكذا، بلا ضجيج، ولم يشعر حتى بألم المخاض. نحن الآن نعيش على ضفافه، نغدو جيئة وذهاباً بين ظلاله الوارفة، ولا أحد منا يشعر بالآخر. تلتف أطيافه الرصاصية على الردهة، وتتسلل ببطء إلى أركان البيت، ليحجب أدق الأصوات.

للحظة لا أسمع ولا أرى، أتوكأ على ما تبقى من قوتي، وأذهب إلى الشرفة. الريح والطيور والسحب، كلها تتجمع هناك، على المرج الأخضر، ولا تجد طفلاً في حديقة الألعاب. لقد مرّ من هناك أيضاً، وطغى على كل قطعة من الطبيعة بوطأته الثقيلة. المباني والأشجار والطرقات والحقول. إنه يثير فيّ شعوراً قوياً بالرهبة، وكل ما أسمعه الآن هو تدفق الأفكار التي تسكنني.

تنغلق نافذة البصر وتنفتح نافذة الرؤية الداخلية. لقد تمكن الصمت من أن يثبتني في مكان لم يعد بوسعي الخروج منه. إلا أنه في لحظة خارقة، من تلك التي تعشش في القلب لمدة طويلة، تخرج صرخة لا يتحملها حتى الجسد المرتخي على كرسي الخيزران بعد وجبة دسمة، وتنسف السكون من أساسه. لا أعرف كيف تذكرت ذلك، ثمة دندنة أو ربما كلمة بقيت مهملة في ركن قصي من نفسي هي التي جعلتني أنهض بتلك القوة وأبحث بين الكاسيتات التي احتفظ بها منذ سنين طويلة. في الحقيقة، ما أبحث عنه، كان هناك في علبة القصدير المستطيلة، ولكن أي واحد منها. في النهاية، وقع نظري على كاسيت عتيق، ربما الوحيد الذي لا يحمل أي اسم. وضعته بتلهف في المسجلّة وضغطت على زر التسجيل. مرت ثوان دون أن يُسمع أي صوت، ما عدا بعض الخشخشات وتمتمات غامضة. كدت أفقد صبري عندما هدر صوت دافئ، كأنه قادم من أماكن طفولتي. في تلك اللحظة، بدأت أعي نفسي وجلست أنظر إلى الجدران ببهجة لا مثيل لها، بينما الصمت ينحلّ إلى ذرّات من البخار الفضي، وينسل بهدوء من شقوق باب الشرفة.

روائي سوري يكتب بالإيطالية - مقيم في مقاطعة لامبارديا- إيطاليا

روجر ألن

حِكايتي العربية

روجر ألن من أهم المستعربين البريطانيين المعاصرين. أرتبط اسمه بترجمات ناجحة لعدد من الروايات العربية من بينها روايات نجيب محفوظ وعبدالرحمن منيف وحنان الشيخ وأحمد توفيق، فضلا عن إسهامه في إثراء المكتبة ألنقدية الأميركية بكتب ودراسات عن الأدب العربي الحديث، والكتابة السردية على نحو خاص. كما عرفناه أستاذا جامعيا مرموقا في جامعة ب. بفيلاديلفيا في ولاية بنسيلفانيا حيث اشتغل لنصف قرن تقريبا على التعريف بالأدب وألنقد العربيين، وفي خدمة اللغة والثقافة العربيتين أيضا.

وبعد مشوار حافل، أحيل على المعاش مؤخرا. ولا شك أنه يستعيد اليوم ببعض الرضا عن ألنفس مسارا من العطاء والحضور والأداء الفكري والجامعي منذ أن التقى الدكتور مصطفى بدوي في جامعة أكسفورد، وتحققت له الدهشة باللغة العربية وآدابها وثقافتها الغنية وعالمها الواسع، ثم بدايات مسار الدكتوراه بدراسته لكتاب "حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي، وصولا إلى التحاقه بالعمل الجامعي في بنسيلفانيا حيث دَرّسَ ووجّه وأشرف على مسارات العديد من الدارسين والباحثين المستعربين خلال سنوات عطائه الغزيز محاضراً ومدرّسا ومشرفاً.

روجر ألن هو الشخص ذاته الذي تعرفت إليه وأنا في المغرب إلى أن التحقت بجامعة بنسيلفانيا كأستاذ وطالب في القسم نفسه الذي كان يرأسه ويحاضر فيه. بشوش، مرح، يتّسم بالجدّية المفرطة للبريطاني. لكنه خدوم ومتعاون ومحب للآخرين.

هذا الحوار نسافر معه عبر تجربته المديدة ميمّمين شطر جانب من مساره الأدبي والعلمي، ورؤيته الفكرية وألنقدية وإسهامه الكبير في الترجمة من العربية إلى الإنجليزية.

قلم التحرير

الجديد: هل تسمح لي أن أبدأ هذا الحوار بالسؤال عن خلفيتك العائلية؟

روجر ألن: ولدت في مدينة صغيرة في "ديفون" (ولاية في جنوب إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية)، لكنّني قضّيتُ سنوات الشباب في مدينة "بريستول"، وكانت عائلتا أبي وأمي تسكنان فيها منذ وقت طويل. أنا الابن الوحيد لوالديّ، وكنت هناك طالبا في المدرسة الابتدائية وفي الثانوية أيضا، وتخصّصتُ في اللغات اللاتينية والإغريقية العتيقة، وكان أملي (وآمال مدرسيّ وعائلتي على العموم) أن أستمر في هذه الدراسات كأول عضو في العائلة كان سيدرس في الجامعة، ويجتاز المرحلة الجامعية.

الجديد: أعرف أنك عازف للبيانو والأرغن، هلاّ حدّثتنا عن ذلك؟

روجر ألن: بدأت الدراسة الجدية للبيانو في سنة 1954، وذلك بعد فترةٍ قضيتُها في المستشفى (بسبب مرض شلل الأطفال الذي أصبتُ به لمدة ثلاثة أشهر، ولكن دون آثار مستمرة، ولله الشكر!) علماً أن بيتنا كان ملآنا بالموسيقى من قبل لأن أمي كانت راقصة باليه ومدرّسة لهذا الفن. وبعد سنتين من بدايتي دراسة البيانو، اقترح مدرسي أن أضيف الأرغن إلى البيانو فدرست الأرغن كذلك وعزفت الآلة كثيرا أثناء فترة الدراسة في كنائس كليات جامعة أكسفورد، وأصبحت فيما بعد مدير الموسيقى والكورال في الكاتدرائية في القاهرة (أثناء بحوثي هناك في سنوات 1966 و1970 و1971 و1975)، وكذلك بعد وصولي إلى فيلادلفيا صرتُ مدير الكورال وعازف الأرغن في الكنيسة الأسقفية (القديسة مريم) على حرم جامعة بنسيلفانيا من 1974 إلى 2000.

الجديد: كيف انتقلت من بريطانيا الى أميركا؟

روجر ألن: كانت مناقشة أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه في أكسفورد في سنة 1968 فرصة، وكان الأستاذان المشهوران جدا، ألبيرت حوراني وبيير كاكيا مشتركَين فيها. وبعد نهاية المناقشة (وبنجاح، والحمد لله!)، ركبتُ سيارة ألبيرت حوراني في العودة إلى كليّتي. وأثناء السفر أخبرني عن منصب جديد أعلن عنه في جامعة بنسيلفانيا واقترح عليّ أن أكاتب المسؤولين هناك بخصوصه، وأن أقدّم أوراقي. وهكذا، أجبتُ عن اقتراحه وأرسلت أوراقي إلى المسؤولين في فيلادلفيا. وبعد بضعة أسابيع استلمت تليغراما يخبرني بأنني حصلت على المنصب وأن مدير المركز لدراسة الشرق

الأوسط في فيلادلفيا سيزور أكسفورد بعد بضعة أسابيع! فقابلت الأستاذ توماس نعاف، مدير المركز، للمرة الأولى في بيت الأستاذ ريشارد فالزر الذي دعانا كلنا إلى بيته للعشاء في ضواحي أكسفورد. بعد ذلك بأسابيع قليلة فقط، عبرتُ المحيط الأطلنطي منتصف شهر أغسطس سنة 1968 (بعد الحصول على الدكتوراه بأقل من شهر) ووصلت إلى "مدينة الحب الأخوي" وأنا لا أعرف الكثير أو القليل عن المدينة أو المجتمع الأميركي أو النظام الجامعي في أميركا. ومن المعلوم أنه كان عليّ أن أتعلم الكثير وبسرعة وفي أكثر من مجال (ومن المهم جدا أن أشير هنا إلى أن هذه الفترة كانت تضجُّ بمظاهرات عنيفة بسبب الحرب في فيتنام، فكان الجو العام في حرم كل كلية وجامعة أميركية مختلفا تماما عمّا كان عليه في الجامعات الإنجليزية التي تخرجت منها!).

الجديد: وكيف كان اختيارك للعربية لغةً وتخصصا؟

روجر ألن: كما أشرتُ من قبل، في البداية كنت أركزّ على الدراسات الـ"كلاسيكية"، اللغتان اللاتينية والإغريقية. وحصلت على منحة من الحكومة البريطانية للقيام بهذه الدراسات في جامعة أكسفورد سنة 1961. ولكن بعد بضعة أشهر فقط مللت تلك الدراسات وبدأت البحث عن بديل لها. والحق يقال، اخترت اللغة العربية دون أيّ معرفة سابقة بها وبثقافتها وبتاريخها، وذلك كنوع من أفق التجريب فقط (وهذا في صيف 1962)، ولكن في خريف 1963 وصل إلى جامعة أكسفورد الدكتور محمد مصطفى بدوي فبدوت مبتهجا جدّا باختياري!

الجديد: وكيف كان سفرك في هذه اللغة بكل خلفياتها اللسانية والثقافية والحضارية؟

روجر ألن: كما أشرت إليه من قبل، بدأتُ دراساتي للغة في سنة 1962. وكانت من المقتضيات للحصول على البكالوريوس في الدراسات العربية قراءة عدة نصوص مهمة من تراث العرب والإسلام ومنها القرآن وصحيح البخاري ومقدمة ابن خلدون وبعض المعلقات ومختارات من الشعر العباسي ورسائل الجاحظ. ولكن كانت أمثلة من النصوص الأدبية الحديثة غائبة تماما إلا لمن اختار من الطلاب "موضوعاً خاصاً" للامتحانات النهائية، ألا وهو "الأدب الحديث". (وكان من بين النصوص المختارة للقراءة آثار جبران والمنفلوطي وشوقي). وبعد وصول الدكتور بدوي إلى الجامعة، كنت أول طالب اختار هذا المنهج ليس للحصول على شهادة البكالوريوس فحسب بل للحصول على الدكتوراه. فقضيت ثلاث سنوات في القيام بالبحوث في أكسفورد وفي القاهرة (1966 - 1967) وأنا أركز نشاطاتي على عمل محمد المويلحي المشهور جدا "حديث عيسى بن هشام" الذي كتبت دراسة تحليلية له وترجمت الجزء الأول منه إلى اللغة الإنجليزية. وفي سنة 1968 حصلتُ على أول دكتوراه في الأدب العربي الحديث في تاريخ جامعة أكسفورد (لأن الموضوع نفسه كان جديدا تماما). وإثر حصولي على الشهادة هاجرت إلى أميركا فقد بدا المستقبل مفتوحا أمامي وإنْ كانت تلك الفترة لم تزل غامضة إلى حد بعيد.

الجديد: هل لي أن أعرف كيف تتلقى شخصيا المعجم العربي، وهو معجم له تاريخ من الاستعمالات، خصوصا الاستعمال الديني؟ ونحن نعرف أن اللغة العربية لدى العربي تكتسي طابعا مقدسا باعتبارها لغة القرآن والحديث النبوي.

روجر ألن: من المعلوم أن نزول القرآن كان له تأثير واسع النطاق على اللغة العربية، وفي الوقت نفسه كان المرحلة البدائية في حركة جمع وبحث وتطور تراث تعليمي وأدبي وثقافي، والتي كان لها تأثير عظيم ليس على العالم العربي والإسلامي فحسب بل على كل الثقافات العالمية (والغربية الأوروبية أثناء العصور الوسطى عن طريق الأندلس بوجه الخصوص). وكان من مقتضيات الوضع عند النزول البحث في أصول اللغة، ولهذا السبب العودة إلى العصر السابق للنزول الذي كان مصدر أمثلة الإبداع العربي (الشفهي منه خاصة، والشعر الجاهلي وسجع الكهان) التي وفّرتْ للمهتمين بتفسير "مُشكل" القرآن ذخيرةً نفيسةً للغة في مراحلها القَبْل إسلامية (وهنا أفضل أن أجتنب استعمال مصطلح "الجاهلية" الذي أعتقد أنه غير مناسب في أيّ محاولة تريد أن تصف تلك الفترة بدقة). وفي عصرنا هذا، ساعدنا كثيرا التطور المرموق في البحوث في علم اللغويات (النظرية منها والتطبيقية) في قيام المهتمين بعدة بحوث في المستويات الكثيرة للغة العربية (بين القطبين التقليديين، الفصحى والدارجة - العامية) ومنها في دراسة التراث السردي للعرب في صيغة السير الشعبية الكثيرة وطرائق أدائها في المجتمعات العربية المختلفة (من المحيط إلى الخليج).

وفي جامعة بنسيلفانيا، كنت قد شاركت في مشروع يُعدُّ قواميس للغات العربية الدارجة (العراقية منها منشور عند مطبعة جورج تاون، والمغربية والمصرية في مرحلة الإعداد).

> اخترت اللغة العربية دون أيّ معرفة سابقة بها وبثقافتها وبتاريخها، وذلك كنوع من أفق التجريب فقط

وبالإضافة إلى ذلك كنا قد بدأنا مشروعاً آخر لإعداد قاموس تاريخي للغة العربية، ولكن من الواضح أن مشروعاً من هذا النوع يتطلب وقتا طويلا واشتراك الكثير من الزملاء المهتمين بتاريخ تطور هذه اللغة المهمة غاية الأهمية عبر القرون.

الجديد: لماذا اخترت الاشتغال على الذاكرة السردية وليس على الشعر باعتباره جنساً أساسيا مميّزاً للهوية العربية؟ كيف كانت محددات هذا الاختيار؟

روجر ألن: أشرت من قبل إلى النصوص التي كان علينا قراءتها وإعدادها للامتحانات النهائية في جامعة أكسفورد. فمنها ما جذب اهتمامي أكثر من الأخرى، كانت المقامات وما يمكن أن نسميه "بالمقامة الحديثة"، ألا وهي "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي الذي أصبح فيما بعد موضوع أطروحتي للدكتوراه.

وأثناء فترة البحث التي قضيتها في القاهرة في سنتي 1966 - 1967، بدأت قراءة بعض النصوص السردية المعاصرة من جيل الستينات، الروايات والقصص القصيرة بالخصوص، ترجمت بعضها إلى الإنجليزية "كمشروع معاصر" إلى جانب اهتمامي بالمشروع الأصعب بكثير، وهو ترجمة أثر المويلحي بسجعه وتعقداته الأسلوبية الأخرى إلى الإنجليزية كذلك.

وإن اهتممتُ إلى حد ما أثناء حياتي الأكاديمية بالتراث الشعري للعرب (كتبت عنه بالتفصيل في كتابي "تراث العرب الأدبي" وكان من الواجب عليّ طبعا أن أدرّس أمثلة للشعر العربي لأجيال الطلاب). الحق يقال إنني بقيتُ أفضّل دائما التركيز على الأجناس السردية (ولأني أدرّسها أيضا في برنامج الأدب المقارن في الجامعة، يمكن أن أضيف: وفي أيّ لغة وأيّ ثقافة عالمية).

الجديد: ترجمت العديد من الأعمال العربية من المشرق والمغرب العربيين. وبعد كل هذا التراكم، وبعد صحبتك الطويلة للنصوص العربية المختلفة، كيف يمكنك اليوم تثمين المتن العربي ورسم أهم ملامحه التي يمكنها تشكيل نواة صلبة ما لهويته؟

روجر ألن: في أواسط السبعينات من القرن الماضي أعددت سلسلة محاضرات عن "الرواية العربية" التي ألقيتها للمرة الأولى في جامعة مانشستر الإنجليزية. وأصبحت هذه المحاضرات أساس كتابي "الرواية العربية" الذي نشرته في طبعة أولى سنة 1982 وطبعة ثانية سنة 1995 (وتُرجمت الطبعتان إلى العربية). وأشير هنا إلى هذه التفاصيل لأنني أعتقد أنّ التطورات في الأنواع العربية السردية بلغت الآن إلى مستويات الامتياز والتنوع (في نفس الوقت) حتى أصبح من المستحيل أن يفكر أيّ متخصص مثلي في القيام بمثل هذا المشروع مرةً ثالثة. ومن الممكن في هذا السياق أن نبدأ باتّساع الحركات الإبداعية (ودور النشر) في الخليج العربي مثلا (والروايات المنشورة التي فازت بجوائز أدبية عالمية) كذلك الشأن في بعض المناطق العربية الأخرى. بالإضافة إلى ذلك هناك ازدياد واضح وملموس في اللجوء إلى بعض الأجناس التحتية، التاريخية منها مثلا، وفي كتابات الكاتبات (النسوية منها وغير النسوية) وعلى وجه الخصوص، ازدهار عدة تجارب في إبداع أشكال جديدة للرواية (والسيرة الذاتية كذلك) وأساليبها.. الخ.

> في القاهرة في سنتي 1966 - 1967، بدأت قراءة بعض النصوص السردية المعاصرة من جيل الستينات

وإذا كانت للرواية العربية هذه الصفات العامة والمستمرة في تطوراتها، فمن أكثر العوامل المثيرة للاهتمام والعجب الآن في هذا الميدان وجود خصوصيات فنية في كل منطقة تحتية عربية توفّر للقارئ صورة حية للعالم العربي بكل تنوعاته الثقافية والاجتماعية والسياسية.

الجديد: ضمن اهتماماتك المتعددة بالكاتب العربي المصري الكبير نجيب محفوظ (جائزة نوبل للآداب 1988) الذي أثّر تأثيراً بالغا في الأدب الحديث، إذ ترجمت نصوصه الإبداعية، واشتغلت عليها نقدا ودراسة، مثلما اقتربت منه ككاتب وإنسان. كيف يمكنك استعادته اليوم بعد رحيله؟

روجر ألن: بعد موت نجيب محفوظ - رحمه الله - أخبرني مسؤولو مطبعة الجامعة الأميركية في القاهرة بأنهم يرغبون في إكمال مشروع قاموا به منذ وقت طويل، وهو ترجمة كل آثار الفائز العربي الوحيد بجائزة نوبل إلى اللغة الإنجليزية. وكنت آنذاك أترجم إلى الإنجليزية روايته "خان الخليلي" والأرجح أنها أول رواياته "الحديثة" (1945؟). وفي سنة 2006 طلبوا مني أن أقوم بترجمة رواية أخرى، "الباقي من الزمن ساعة" (1982). وأذكر هذه التفاصيل الشخصية هنا لأني أدركت فورا أثناء عملية ترجمة الرواية الثانية مدى التطورات والتغيرات التي قام بها محفوظ طوال حياته الإبداعية. وفي هذا السياق يمكن القول - على الأقل في رأيي المتواضع - إن محفوظ أكمل وأنهى برواياته المنشورة في الأربعينات (فعلا حتى نشره "الثلاثية" المشهورة في 1956 و1957، والتي أكملها قبل ثورة 1952) الفترة الابتدائية للرواية العربية (والتي بدأت في القرن التاسع عشر). وكان فوزه بجائزة نوبل إشارة تتويجية لدوره التأسيسي المهم غاية الأهمية. وفي الستينات وحتى موته اشترك محفوظ في كثير من التجارب السردية (بادئا من "أولاد حارتنا" سنة 1959) مع زملائه الكثيرين، المصريين وغير المصريين، في عملية واسعة النطاق لاكتشاف مواضيع ونواح فنية وأساليب جديدة للتعبير عن واقع مصر والعالم العربي عامة في العصر ما بعد الكولونيالي، وبعد نكسة 1967. ومن المعلوم أيضا أنه ساعد كثيرا من الكتاب المصريين من الجيل الجديد في هذه الأبحاث الخلاقة وتبناهم، وعلى وجه الخصوص كل من جمال الغيطاني ويوسف القعيد.

الجديد: انشغلت من الناحية الأدبية بتجربتنا الروائية العربية. ولا شك أنك لاحظت تفاعلها مع تقنيات الكتابة السردية الغربية، خصوصا منها الأميركية والبريطانية والروسية والفرنسية. ولَعلّك لمستَ عن كثب أنواعا من الابتكارات التقنية والجمالية

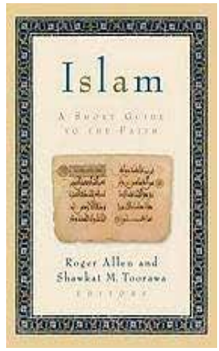

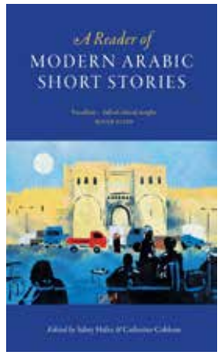

التي استحدثها الروائيون العرب أنفسهم، وبالأخص تلك التي استلهموها من التراث السردي العربي القديم (ألف ليلة وليلة، المقامات والرحلات على سبيل المثال لا الحصر).

روجر ألن: حتى وإنْ كانت بدايات جنس الرواية داخل الثقافات الأوروبية، لكان من المهم في الوقت نفسه الإشارة إلى الدور المركزي لآثار سردية مهمة أخرى في مسارات هذا التطور، إما على هوامش القارة الأوروبية أو حتى خارجها تماما ("دون كيخوتي" مثلا وتأثير المؤلفات السردية العربية الأندلسية المباشر عليه، وكذا "ألف ليلة وليلة" التي لعبت دورا مهما في توسيع فكرة السرد وأنواعه المختلفة وشعبيتها المتزايدة أثناء مراحل تطور الرواية البدائية). أما الآن فأصبحت الرواية نوعا أدبيا عالميا، الإفريقي منها والآسيوي والأميركي - اللاتيني.. إلخ. إلى جانب التراث الأوروبي والأميركي. وطبعاً، لكل تراث روائي عالمي صفاته العامة وصفاته الخاصة المحلية المختلفة. ففي سياق أيّ بحث في هذا الموضوع بالضبط، أفضّل تعديل الرأي التقليدي الذي يتركز على الأصول الغربية لجنس الرواية، وذلك لسببين: أولا التأثير الواضح لعدة مصادر غير أوروبية في عملية تطوير نوع أدبي معقد مثل الرواية، وثانيا الاختلافات المرموقة في طرق تطور الرواية في الثقافات العالمية المختلفة التي تزدهر الرواية فيها الآن.

الجديد: تبقى "ألف ليلة وليلة" أو "الحكايات العربية" كما تسمى عند الغربيين، أفضل وأهم تعبير عن تجذر الحضور السردي والحكائي في الذاكرة الثقافية العربية. كيف قرأتَ هذا النص وتفاعلتَ معه؟ وكيف تنظر إلى الطرائق التي تمثّل بها القراء الغربيون هذا النص العظيم؟

روجر ألن: بدأت الإجابة على هذا السؤال من قبل. وهنا يجب علينا أن نواجه مشكلة أساسية فيما يخص هذه المصادر العربية السردية. وأساس المشكلة هو في الإهمال حتى التام لها عند النقاد والأخصائيين" في الأدب العربي أثناء القرون السابقة للعصر الحديث (بسبب المواقف المعروفة بالنسبة إلى المستويات اللغوية غير الفصحى). من أهم التطورات في هذا الميدان في العصر الحديث التغير في هذه المواقف وتطور البحوث في علم اللغويات، النظرية منها والتطبيقية، والـ"فولكلور" واهتمام المهتمين بهذا الموضوع بالبعد الشفهي لتراث السير الشعبية العربية عامة (وبكل تنوعاتها) وبأدوار الحكواتيين و"الحَلايْقيّة" (صناع الفرجة في الساحات العامة)، وجمهور المستمعين في تلقي أدائها.

وفي كتابي "تراث العرب الأدبي" أو "مقدمة للأدب العربي" (مطبعة جامعة كمبردج)، حاولت أن أجيب عن هذا الوضع بإدماج فصل كامل عن الأجناس السردية الشعبية في بحثي عن تراث العرب الحكائي، ليس لأنها مهمة في حد ذاتها فحسب بل لأن هذا التراث السردي الشعبي قد توفّر ولا يزال يوفّر لمؤلفي الروايات والقصص (والمسرح أيضا) أمثلة عديدة لشخصيات وأساليب وحبكات قد أدمجها كثيرون (وكثيرات) منهم داخل كتاباتهم المعاصرة.

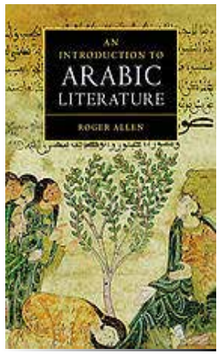

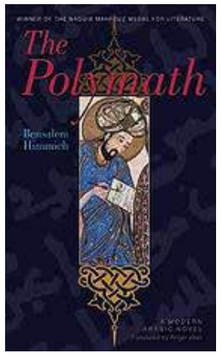

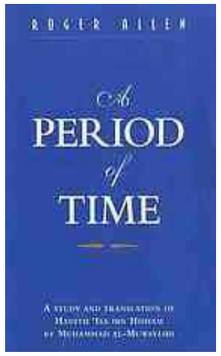

الجديد: ضمن ترجمتك لعدة روايات عربية، أوليت بعضا من اهتمامك للنص الروائي المغاربي، وأشير بالخصوص إلى ترجمتك للكوني وحميش والتوفيق ونجمي، ودون شك، هناك سمات مشتركة على مستوى التخيل الروائي المغاربي والمشرقي، لكني أعتقد أن هناك جملة من العناصر التي تميز النص المغاربي نظرا لوجود خصوصيات تاريخية وثقافية واجتماعية أيضا. ويهمني بهذا الصدد أن أعرف طبيعة ائتلاف التجربتين المغاربية والمشرقية واختلافهما في نظرك.

روجر ألن: لقد قررت أن أركز اهتمامي في ميدانيْ البحث والترجمة على مؤلفات الكتاب المغاربة قبل أكثر من عقدين وكان السبب الرئيسي علاقاتي الأكاديمية الزائدة بالزملاء الأوروبيين (وبوجه الخصوص مشروع اسمه "ذاكرة المتوسط" حيث اجتمع المشتركون فيه في مدينة طليطلة الأندلسية وقاموا بترجمة عدة أمثلة للسير الذاتية العربية إلى لغات أوروبا الكثيرة والمختلفة. فأدركتُ، وأنا أشترك معهم في هذه المبادرات وفي مناقشات عديدة في أغراض البحث والتدريس والترجمة، أن الأخصائيين في الجامعات والمعاهد الغربية الأوروبيين منهم والأميركيين، وعن وعي أو عن غير وعي، ولأسباب أغلبها عملية (يعني تمويلية)، أنهم في واقع الأمر قد قسّموا إنتاج العرب الأدبي في العصر الحديث حسب أنماط الاستعمار وحسب وجود (أو عدم وجود) معاهد أجنبية في عواصم البلدان العربية (ومن المعلوم أن القاهرة هي الأهمّ في هذا الميدان دون منافس). فبعد سنوات عديدة ركزت فيها اهتمامي (مثل زملاء كثيرين) على مصر وأدب كتابها، قررت أن "أنقل" اهتمامي إلى المغرب وانضممتُ بذلك إلى فرقة زملائي الفرنسيين والإسبان الذين ركّزوا في بحوثهم على إنتاج المغرب الأدبي منذ وقت طويل.

ومما لاحظت، إثر وصولي إلى البلاد (وكانت الظاهرة الأكثر وضوحا) السيطرة المستمرة للغة والثقافة الفرنسية في الميدان العام وفي عالم الأدب خاصة. فإذا لم تكن هذه الظاهرة مفاجأة تامة بالنسبة إليّ، كان مداها مثيراً للاهتمام والعجب. فمن النتائج الإيجابية لهذا الوضع الثقافي مستوى التعليم العالي الذي يتمتع به كثير من الكتاب المغاربة ومعرفتهم واهتمامهم بالحركات الأدبية المبدعة على المستوى العالمي وفي المناطق العربية الأخرى (وهنا يختلفون عن إخوتهم المصريين الذين لا يهتم أكثرهم بمنشورات الكتّاب في المناطق العربية الأخرى بالمستوى نفسِه).

وفي اهتمامي بالثقافة المغاربية خاصة، لاحظت كذلك فرقاً ملحوظاً في مواقف الناس من التاريخ ودوره المركزي في تأسيس الهوية الشخصية والوطنية. وأشرت أعلاه إلى الحضور المستمر لآثار الاستعمار الفرنسي في البلاد - الإيجابية منها والسلبية - ولكن المغربي يتمكن من النظر إلى الوراء تاريخيا (وكذلك في الروايات التاريخية العديدة) دون أن يأخذ في الاعتبار حضور الدولة العثمانية التي سيطرت لمدة قرون على أغلب المناطق العربية الأخرى. وكما يكتب عنه أحمد التوفيق في "جارات أبي موسى" مثلا، كانت العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب وبلدان البحر المتوسط متينة جدا طوال القرون الوسطى. فإذا أضفنا هذه الحقائق التاريخية وتأثيرها المستمر إلى وضع البلاد الجغرافي والعلاقات الحميمة المستمرة بإسبانيا وفرنسا، فإنه من المتوقع وجود هوية مغربية شخصية ووطنية تعبّر عن أحوالها واهتماماتها ومشاكلها في الصيغ الأدبية المختلفة التي تتوفر لكتّابها المبدعين.

الجديد: دعني أتسلّل قليلا إلى مختبرك كمترجم للرواية، كيف تترجم؟ ربما كنتُ أعرف كيف تشتغل بحكم الصداقة وروح الأخوة اللتين تجمعاننا، لكن يهمني أن تشرح للقارئ أسرار طقوسك الخاصة في الترجمة.

روجر ألن: منذ تقاعدي في سنة 2011 ركزت نشاطاتي على الترجمة وليس على البحوث والنقد. ومنذ بداية حياتي كأستاذ جامعي قمت

بمشاريع الترجمة حتى أستعملها في عملية تدريس الأدب العربي للطلاب الأميركيين الذين لم يدرسوا اللغة إلى حد الكفاية ولكن لم أترجم أثر أيّ كاتب عربي لم أكن على معرفة شخصية به أو بلغته (باستثناء محمد المويلحي طبعا الذي مات سنة 1930 وعلى أيّ حال كنت على الاتصال بحفيده).

أما الترجمة نفسها فالمرحلة الأولى طبعا هي اختيار النص؛ وفي أكثر الأوضاع أقوم شخصياً باختيار نصوص أعجبتني. وأعتقد أن القارئ الإنجليزي أو الأميركي سيستمتع بقراءتها وسيفيد منها. وفي هذا السياق أتصرف مثل أغلب المترجمين من العربية إلى الإنجليزية. وعلى المستوى الأكثر عمليا أقوم بالمشروع حسب عدة عوامل: هل النص المترجم جزء من مشروع أوسع مثل "ذاكرة المتوسط" المشار إليه أعلاه أو المكتبة العربية (جامعة نيويورك في أبو ظبي) التي كنت قد أكملتُ لها مؤخراً طبعة جديدة لأثر محمد المويلحي "فترة من الزمن". وفي مثل هذه الأوضاع من المعلوم والمنتظر أنه هناك مبادئ ومقتضيات متعلقة بنوع الترجمة والتحرير والنشر. ولكن في أكثر المناسبات أقرأ نصا يعجبني وأتصل بالمؤلف لطلب موافقته على الترجمة. وتسرّني الإشارة إلى أن كل كاتب اتصلتُ به بهذا الصدد وافقَ على الفكرة! وبعد الحصول على موافقة المؤلف، أبدأ المشروع وأترجم بضعة صفحات كل يوم (في واقع الأمر كل صباح) حتى أُكمل النص الأول للترجمة، ثم أترك هذا النص جانبا لمدة شهر أو شهرين حتى أحس ببعض البعد مما ترجمت. وبعد ذلك أراجع هذا النص الإنجليزي الجديد وأحوّله إلى ما أسمّيه بنص إنجليزي - إنجليزي (يعني، نص يريد أيّ قارئ ناطق باللغة الإنجليزية قراءته). ثم أترك هذا النص جانبا كذلك لمدة زمنية مماثلة. وفي المرحلة الثالثة والأخيرة (والأصعب) أقوم بعملية المقارنة بين النص العربي الأصلي والنص الإنجليزي الجديد وأنا آخذ في الاعتبار عندئذ كل العناصر المتعلقة بتلقي الترجمة في الثقافة "المضيفة" كما هو المصطلح في تنظير الترجمة: الاختلافات الثقافية مثلا ومناسبة اختيار العنوان للنص المترجم وطرق التسويق للنص المنشور.. إلخ. وإذا نجحت في القيام بكل هذه المراحل على مرور أشهر عديدة، فتبدأ المرحلة النهائية في المشروع وهي إقناع دار نشر بامتياز النص الأصلي وإفادة نشر النص المترجم.

الجديد: من خلال بعض النماذج، وأخص بالذكر التوفيق، وحميش ونجمي، كيف ترجمت أعمال التوفيق ونحن نعرف أنه مؤرخ كبير في بلده وله اهتمامات دينية وصوفية، فضلا عن موقعه كرجل دولة في المغرب (وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية)، وترجمت أيضا بعض الأعمال الروائية لبنسالم حميش أستاذ الفلسفة، ورجل الفكر، والشاعر؟ كيف تقرأ رواية "جرترود" لحسن نجمي التي تمثل تجربة الجيل الروائي الجديد؟

روجر ألن: فيما يخص علاقاتي بهؤلاء الكتّاب المغاربة المشهورين والمهمّين - زملائي وأصدقائي في مشروع نشر نتائج الإبداع الروائي العربي في ميدان أوسع ألا وهو جمهور القراء على المسرح العالمي - كانت البداية في كل حالة هي النص: "مجنون الحكم" و"جارات أبي موسى" و"جرترود" على وجه الخصوص. يعني أني قرأت النص وأعجبني فاتصلتُ بالمؤلف. ومن المعلوم أني كنت مسرورا جدا فيما بعد بفرصة اللقاء معهم وبالتعاون معهم وبصداقتهم وأنا أقوم بعملية ترجمة بعض مؤلفاتهم.

أما ما لاحظته فورا أثناء قراءاتي لروايات حميش وأحمد التوفيق فكان اهتمامهما بتفاصيل تاريخ المغرب والعالم العربي عامة ومعرفتهم العميقة بالمصادر المحلية منها والعربية - الإسلامية الأكثر اتساعا (وهنا أشير إلى ما هو معلوم، أنهما حصلا على شهادة دكتوراه جامعية ودرّسا موضوع اختصاصهما في الجامعة). وفي عدة محادثات معي وعلى المستويين الشخصي والعمومي، ألحّ حميش مثلا في أن بعض رواياته ليست روايات "تاريخية" ولكنها (وحسب آراء الناقد المجري المشهور جورج لوكاش) روايات فحسب. ومن المعلوم كذلك أن كلاً من هذين المُبدِعَيْن في الإبداع الروائي يصفان في مؤلفاتهما كثيرا بعض الأمثلة من العنف والجَبَر ونماذج متنوعة للسلطة والسيطرة السياسية والدينية، ظواهر لا توجد لها أمثلة في العصور ما قبل الحديثة فقط.

أما حسن نجمي وروايته "جرترود" فقابلته للمرة الأولى أثناء سنة بحث قضيتُها في الرباط. ومن المعلوم أني كنت على معرفة بمؤلفاته كشاعر فإذا به يخبرني بأنه كان يكتب رواية عن جرترود شتين. ما أثار اهتمامي بالموضوع وبحثنا إمكانية ترجمة الرواية بعد إكماله لها. عندما نُشرت، أرسل إليّ نسخة منها وأثارت النتيجة المنشورة اهتمامي مثل الفكرة التي بحثناها من قبل إكماله لها. وعندها بدأت قراءة النص، كان من الواضح أن حسن نجمي قد قام ببحوث طويلة مدققة في حياة جرترود شتين المعقدة من عدة نواحٍ، الفنية منها والشخصية والنفسية والجنسيةَ وقد بحث كذلك المشهد الفني العام الذي كان سائداً في باريس في العقود الأولى من القرن العشرين والدور المركزي الذي لعبته جرترود شتين فيه. فإذا رواية "جرترود" تُصوِّر مجموعة الشخصيات المعقدة هذه بدقة بالغة، فتقدّم للقارئ في نفس الوقت حكاية راوٍ مغربي عاد من باريس إلى وطنه وعاش حياة ذكريات بعضها مثيرة وبعضها الآخر محزن فعلا. وينظم لنا كقرّاء الراوي هذه العلاقات وهذه المواقع

> لعب كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق" دورا مهما غاية الأهمية بالإشارة إلى المشاكل المتعلقة بمواقف بعض المختصين

وهو يلجأ إلى سرد "إطاري" يوصل تفاصيل ذكريات الماضي بواقعيات المغرب الحديث بكل تعقداته السياسية والثقافية. فأكثر ظني أن ما يثير اهتمام القارئ لرواية جرترود (وأتكلم هنا عن النص المترجم إلى اللغة الإنجليزية) هو هذا المزيج من المعلومات المعروفة عن حياة جرترود شتين وعن شخصيته ومن المشهد المغربي الذي يسكن ويشتغل فيه الراوي.

الجديد: ما هي الوضعية الراهنة للثقافة العربية في المتخيل الغربي، خصوصا في ظل التطورات التي يعيشها العالم اليوم على إيقاع ما يحدث في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا؟

روجر ألن: هنا نواجه عدة مشاكل أغلبها متعلق بالتعاريف: معنى "العربية" (الشعب أم اللغة؟) وعدم إمكانية التفريق (ولكن لهُ لزومه) عند أكثر الناس في الغرب بين العرب والشرق الأوسط والإسلام. وإذا تكلمنا عن "الغرب" (يعني أوروبا وأميركا) فأكثر ظني أن الناس لا يعرفون الكثير أو القليل عن الثقافة العربية وأكثرهم لا يريدون أن يتعلموا أيّ تفاصيل عن ثقافة المنطقة. وفيما يخص مجال الثقافة وظواهرها الفنية (والأدب منها) فمن المعلوم أنه هناك اختلافات عميقة في الاهتمام بمنتوجات المنطقة بين بعض البلدان الأوروبية (فرنسا وإيطاليا وإسبانيا مثلا) والأخرى (مثل ألمانيا والولايات المتحدة خاصة). الحق يقال، هناك بعض علامات تَحسُّن الوضع في مستوى اهتمام المجتمعات الأوروبية الشمالية والأميركية في هذا المجال ولكن من الواضح والمعلوم - وللأسف الشديد - أن أكثر اهتمام هذه المجتمعات يتركز على الوضع السياسي والاجتماعي السيئ في أكثر بلدان الشرق الأوسط وعلى بعض الطوائف الإسلامية التي قد نجحت إلى حدّ ما في جذب اهتمام "الغرب" إلى آرائها وأعمالها الفظيعة.

الجديد: كيف عشت سؤال ظاهرة الاستعراب في الثقافة الأدبية الغربية؟

روجر ألن: قضيت أغلبية حياتي الأكاديمية في الولايات المتحدة الأميركية وإن تخرجت من جامعة إنجليزية وهي جامعة أكسفورد في سنة 1968. وفي بداية حياتي الأكاديمية في الولايات المتحدة كان الاختصاص في موضوع اسمُه "الأدب العربي الحديث" شيئاً نادراً وغريباً وجديداً تماما. ولكن من المعترف به الآن أن الوضع تحوّل إلى أبعد الحدود حتى وصلنا إلى فترة تكون فيها دراسة الأدب العربي أثناء القرون قبل الحديث شيئاً ليس بالعادي المنتظر عند أكثر الطلاب بل موضوعاً أقل شعبية بكثير.

وإذا تحسنت الأوضاع فيما يخص الاستعراب في العقود الأخيرة (ولحوادث سبتمبر 2001 دور مهم في هذه التطورات، وفي الازدياد المرموق في عدد الطلاب الأميركيين الذين يدرسون اللغة العربية في الجامعات الأميركية وفي بعض المناطق داخل أميركا، في المدارس الثانوية أيضا)، فالاهتمام الأكثر تركيزا عند الحكومة التي تموّل أكثر البرامج، وعند الطلاب الذين يقومون بدراسة اللغة هو على تطور المهارات المطبقة والأكثر عملية وفي ميادين أكاديمية مثل السياسة والتاريخ الحديث خاصة وليس على المواد الفنية. ولكن والحق يقال، من الواجب علىّ أن أضع هذه التعاليق في سياق عام وهو "أزمة" الإنسانيات في المجتمع الأميركي وفي أنظمته التعليمية وفي الجامعات والكليات على وجه الخصوص.

الجديد: ما هو وضعك الاعتباري ما بعد إدوارد سعيد؟ ما معنى أن تكون مترجما وخصوصاً للنصوص العربية؟

روجر ألن: لعب كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق" دورا مهما غاية الأهمية بالإشارة إلى المشاكل المتعلقة بمواقف بعض المختصين (وألح هنا على استعمال كلمة "بعض" وليس "كل") فيما نشروا من دراساتهم للثقافة العربية والإسلامية. ولكن يمكن أن نقترح أن هناك بعضَ التحسن في معرفة المختصين باللغة العربية وإمكانية تطبيقها في البحوث (وكذلك لغات شرق - أوسطية أخرى) وازدياد مرموق في تبادل الزيارات البحثية بين المختصين العرب والغربيين؛ وأكثر ظني أننا نعيش الآن فترة مختلفة تماما فيما يخص المواقف الثقافية والمناهج المطبقة. وكما فسّرتُ عدة مرات للمراسلين العرب أثناء محادثاتنا، لستُ بمستشرق، بل أنا مستعرب، بمعنى أنّني مختص يريد أن يشتغل مع زملائه العرب والغربيين في مشروع مشترك هو دراسة إنتاج العرب الإبداعي (والأجناس السردية خاصة) وتوصيل هذه الآثار إلى جمهور أوسع.

الجديد: في تقديرك، ما هي طبيعة الإسهام الحقيقي الذي أنجزه المستعربون في إثراء الثقافة الغربية الحديثة؟

روجر ألن: لقد أشرت إلى بعض أبعاد هذا المجال من قبل. والمستعربون هم أقلية صغيرة جدا في ميدان الثقافات الغربية ومؤسساتها الأكاديمية والتعليمية. وكما فسرت أيضاً، فالمستعربون في المجتمعات الناطقة بالإنجليزية يواجهون جمهورا لا يعرف الكثير عن العالم العربي وما يعرفونَهُ أكثره سلبي جدا. ونحن - المستعربين القلاقل نسبيا - نواجه حواجز كثيرة في القيام بموضوعنا المفضل، وفي الحصول على آمالنا وأغراضنا. ولكن أضيف هنا وأقول إن النتائج التي حققناها إلى حد الآن في هذا السياق كانت مثيرة للعجب!

> قضيت أغلبية حياتي الأكاديمية في الولايات المتحدة الأميركية وإن تخرجت من جامعة إنجليزية وهي جامعة أكسفورد

أجرى الحوار في بنسلفانيا: الشاعر والاكاديمي الأميركي من اصل مغربي مبارك السريفي

ملف

الكوكب الأسير

تأملات وأفكار ويوميات المعتزلين في البيت

شارك في إعداد الملف

عواد علي أبو بكر زمال، عمار المأمون

فسحةُ تأمّلٍ في ضيافة الحَجْر

محمد برادة

مع تقدّم العمر ومرور السنين، يُخيّل إليّ أنني أعيش منذ أمدٍ طويل في ضيافة الحَجر، أيْ في فضاء الغرفة المحدود، وأنا أقرأ أو أكتب، مُعرضا عن ضوضاء العالم، ناشدا ذلك الانطواء الإرادي الذي يجعلني أطلّ على الدنيا من مسافةٍ أحسبها كافية لأن تُسعفني على تقليب التّربة وإعادة النظر في علائقي بالحياة والآخرين، بما عشتُه وبما أتطلع إلي مُعانقته... لكن الحَجْر الذي فرض على ساكنة العالم منذ شهر مارس 2020 له مذاق آخر، أقرب ما يكون إلى مذاق العلقم. كأننا كنا في غفلةٍ مديدة مستسلمين لرحلةٍ لا نعرف مآلها، حين ارتفع نفيرُ الفيروس «كورونا» ليُوقظنا من سنةِ الكرى المُخدّر، ويضعنا وجها لِوجْه أمام شبح الموت الماثِل شخصيا في الطرقات والبيت، في المعامل والمصانع، في المساجد والكنائس، يترصّدنا ونحن لا نراهُ ولا نقوى على مُداراته أو صرفه عنا إلى حين... تلك طبيعة الكوارث والأوبئة الفتّاكة التي رافقت رحلة الإنسان من المجهول إلى المعلوم، على امتداد عصورٍ ودهور، كان الطاعون أبرزها، وصولا إلى الأنفلوزا الإسبانية (2018) ثم «السيدا»، وصولا إلى كوفيد 19.

إلا أن ما يُميّز هذه الجائحة الجامحة التي هبّت اليوم علينا هو أنها تزورنا في سياقٍ مختلف، بلغتْ فيه العولمة ما يُشبه الأوج، إذْ تلاشت الحدودُ والخصوصيات، وتوحدتْ السلوكاتُ عبر التقدم المُذهل لوسائط التواصل ورقمنة مجالات العيش، فأصبح الإنسان الآلي قابَ قوسيْن أوْ أدنى من تسلم القيادة نيابة عن الإنسان المُنهك الذي نخرتْه الأمراضُ والتلوث والرفاهية المعادية لصفاء الطبيعة... في مثل هذا السياق الخانق الذي لم تعُدْ فيه فرصٌ سانحة للنازحين والباحثين عن شغلٍ يقيهم من ذلّ السؤال، قرعتْ الكورونا أبوابنا وفضاءاتنا كأنما لتقول لنا: «شتوبْ . هل تودون الاستمرار في هذا الطريق المسدود المُفضي إلى الخسران والانكسار والانهيار؟ هل ستتقبّلون إلى ما لانهاية لعبة الشركات عابرات القارّات، المُتحايلة على عقولكم وجيوبكم؟ هل هذا ما وعَدَ به آدمُ حواء عندما نزلا إلى الأرض ليملآها سعادة ومودة وأنغاما تجدد الروح وتزرع السكينة في النفوس»؟

لكنْ،إذا دققنا النظر، سنجد أن أسئلة كوفيد 19 هي ذات وجهيْن يشملان معضلة الإنسان منذ الأزل: وجهٌ ماديّ يتصل بهذا الاختلال المُتفاقِم الذي انتهى بالعالم إلى طريق مسدود أوْ يكاد؛ إذْ آل التسابق إلى حمّى التصنيع والعمران والمخترعات والحروب، أي إلى تلويث الطبيعة وتدنيس البيئة وتفكيك العناصر التي كانت تسمح بالتعايُش بين طبيعة رحيمة وتكنولوجيا مُتهافتة على الربح، تقودُ إلى اهتزاز توازن الطبيعة الحاضنة لرحلةِ الناس فوق الأرض... والوجهُ الروحاني أو الحميمي، الذي يُحيلنا على سؤال الوجود انطلاقا من الجذور: كيف نستمرّ في المُراهنة على الحياة، والموتُ هو مستقبلنا؟ صحيح، نحن نعلم منذ البدء أن الموت هو الأفق النهائي الذي يبتلع الإنسان لينقله إلى منطقة العدم؛ إلا أن الكورونا تجسّده بفظاعة أمام أعيننا، بعد أن ظنّنا أننا تناسيناه، وأننا نجحنا في معانقة الحياة الدنيا وكأنها هِبَة أبدية لا تكفّ عن التجدّد.

في كلتا الحالتيْن، يُرغمنا فيروس كوفيد 19 على أن نولي وجهنا شطر الفلسفة والفلاسفة، علنا نجد ما به نتعلّل، ما به نتمسّك لتصليبِ عُودنا، وتقوية إرادة مواجهة الكرونا التي تخبط خبْطَ عشواء. في هذا الصدد، نكتفي بما قاله الفيلسوف جاك دريدا، سنة 2004، قبيْلَ وفاته: «الخطابُ الذي أتلفظ به ليس مُناصرا للموت، على العكس، إنه تأكيدٌ صادرٌ مِنْ حيّ يُفضّل العيش، أيْ يُفضّلُ الاستمرار في الحياة على الموت، لأنّ البُقيا (survie) لا تعني فقط ما يتبقى، بل هي الحياة الأكثر كثافة (...) ذلك أن التمتّع، والبكاء على الموت المُتربّص، هما بالنسبة لي شيء واحد» (من حوارٍ مع جريدة لوموند).

مهما تكن القشّة التي نتشبث بها لتبرير حبّنا للحياة، فإنّ جائحة الكورونا تؤكد، بكيفيةٍ صارخة، خطر الهشاشة التي تحاصر حيواتِ الناس وتجعلهم مدفوعين، في كلّ حين، إلى تبرير تناسيهم للموت وحرصهم على مقاومة العدم بالارتماء في بحر الحياة المُتدفق. هكذا، وأمام إنذارات الموت الفاغر فاهُ صباح مساء، نلجأ إلى بلورة معنىً لحياتنا، يحُدّ قليلا من الهشاشة ومخاطر الزوال: نراهنُ على الحميمي وعلى العواطف التي تُنعش اللحظات المميّزة وتوهمنا بأن «على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة». نحرص على أن نبلور هُويّة فردية تسندُنا ونحن نصارع المؤسسات الوصائية والقيمَ الماضوية التي تريد أن تدفننا أحياء. وفي الآن نفسه، نواجهُ الهشاشة من خلال إعطاء دلالة متميّزة لوجودنا داخل المجتمع الذي ننتمي إليه.

هذا الحرص على مقاومة الهشاشة الوجودية، من خلال ابتداع الهوية الفردية والانتماء المجتمعي، هو ما يتجلى في المراهنة على العلم والعقل والإحساس، لتحقيق نوع من التوازن داخل عالمٍ غامضٍ في مَنشأهِ وتطوراته ومآله.لأجل ذلك، لن تكون تجربة كوفيد 19 مثل زيارات سابقة لجوائح أخرى، بل إنها ستفجّر أسئلة عميقة وفاصلة، تخصّ وجود الإنسان على البسيطة وموقعه من السلطة / الغول(Léviathan)، التي تتحكمُ في مصائر الأفراد والشعوب، وتُلامسُ تساؤلاتٍ عن طبيعة المستقبل البشري الذي قد يُخفّفُ من حدّة التدهور والهشاشة. ذلك أن هجمة الكورونا وطقوسها الإرغامية قد جسّدتْ، ولوْ لِفترةٍ محدودة، المساواة بين جميع الفئات والطبقات، لا فرق بين حاكم ومحكوم... تلك المساواة التي طالما تغنّتْ بها الإيديولوجيات، وحلمَتْ بها قلوبُ الفقراء؛ لكنها ظلتْ مُتمنّعة دونَها خرطُ القتاد. وها هو الخوف المعانق للكورونا يكشفُ الهشاشة المشتركة بين الأنام، ويُرغمُ الجميع على تقبّل المساواة في الموت الذي توزعُه الجائحة، من دون تمييز بين مَنْ يتبوّأ أعلى الدرجات ومَنْ دَحرجَتْه أقدامُ التعسف إلى الحضيض...

يبقى أنه من الصعب تخمين التحدّيات التي ستحظى بالأسبقية بعد انحسار جائحة كوفيد 19. إلا أن الوضعية الاقتصادية المتدهورة ستفرض نفسها، ومعها شكوك في فعالية العولمة وأطماعها الرّبْحيّة المعادية للبيئة والقيم الإنسانية... سيُصغي العالم لأطروحاتٍ وتصوراتٍ تترجمُ شغف الإنسان بأن يجعل من رحلته الحياتية فرصة لتحقيق ما يُميّزه عن وحوش الغاب، ويمنحه لحظات تضمن حريته وحقوقه في العيش الكريم... نعم، دائما كانت المصائب والحروب والأوبئة فرصة لتحقيق قفزاتٍ إلى الأمام، استهداءً بالعقل والعلم والإحساس، غير أن التجربة التاريخية تشير أيضا إلى أن ما فرضتْه سياسات العولمة والشركاتُ القارية، الرّبْحية، ومغامرة الرّقمنة الشاملة، في ظلّ سيطرة الذكاء الاصطناعي، قد تجعل هذه القوى المضادّة لسعادة الإنسان تستعيد سيطرتها فتُغمض العين عن دروس الكورونا، وتعود إلى ما كانت عليه من عماءٍ واحتقار للقيم الكونية...

كل الاحتمالات واردة؛ لكن الحَجْر الذي نعيشه منذ أكثر من شهر قد يجعل الأغلبية من سكان العالم المحبّين للحياة يتصدّوْن لغيلانِ الأسواق ومُنتهكي البيئة، المفتونين بالتسلط وجبروت الحكم الفُوقي. لأجل ذلك، نحن على وشك أن ندخل في دورة جديدة من جدلية التاريخ وتقلبات الطبيعة، ما سيجعل الصراع أكثر واقعية وملموسية، ويجعل بوابة الأمل أكثر انفتاحا على ما يحقق المساواة والعدالة والأخوة واحترام الحريات. عندئذٍ، تصبح مواجهة الجائحات والأوبئة ممكنة وفاعلة.

كاتب من المغرب

فؤاد حمدي

فؤاد حمدي

ملف

عزل متبادل

أبوبكر العيادي

عندما اندلعت الأزمة في مدينة ووهان الصينية، كنت أتابع أصداء الكورونا كما أتابع أحداثا بعيدة نحن عنها في مأمن، أو أخبارا تُتداول في عالم افتراضي، قد تكون مجرد "فيك نيوز"، ولم أعِ تمام الوعي أن ثمة خطرًا محدقا يتهدد الناس جميعا، إلا حين تصدّر المشهدَ محللون وخبراء أوبئة وأطباء ورجال سياسة يتناوبون بانتظام متصل على البلاتوهات، ليؤكدوا أن ثمة عدوّا يتربّص بنا عند كل منعطف.

كان لقرار الحكومة الفرنسية غلق سائر المؤسسات وإيقاف كل الأنشطة الثقافية والتعليمية وقعٌ كبير في النفوس، بعضهم رأى فيه حدّا للحرية، وخرقا للديمقراطية، ولكن الأخبار التراجيدية القادمة من الجارة إيطاليا أخرست أكثر الأصوات ميلا إلى التمرد على ذلك القرار. وبانقطاع الأبناء عن المدرسة والزوجة عن العمل وركوننا جميعا في البيت، صرنا معنيين بما يجدّ، وتغير مفهوم البيت فلم يعد سكنًا بل ملاذٌ نعوذ به من شرّ مستطير.

بالحَجْر الصحّيّ تغيرت علاقتنا بالفضاء، فالذي هو في مثل حالي منغلقٌ داخل شقة، ليس له من سبيل إلى الهروب إلى الريف، حيث الخضرة والهواء النقي والطبيعة الغنّاء، صارت المدينة في عينيه أشبه بمكان قفر لا يشوب سكونَه حِسّ، جامدةٌ جمودًا يوهم بخلودٍ وقتيّ. مدينة تذكر بلوحات الإيطالي جورجو دي كيريكو، حيث الشوارع خالية، والساحات كئيبة، والزمن فيها معلّق، ساكنة سكونا يوحي بوَشْك زوبعة أو هجمة كائنات غريبة ؛ أو بفيلم "على الشاطئ" (1959) للأمريكي ستانلي كرامر، الذي يصوّر مدينة ملبورن وقد خلت من سكانها بعد اندلاع الحرب العالمية الثالثة وتفشي إشعاعات الأسلحة النووية.

أمام هذا الوضع، ليس للناس إلا أن يرتدّوا إلى الداخل، أن يلوذوا ببيوتهم مرغمين بالقانون، أو بالكورونا، هذا الوباء الذي لم يروه بعد، ولكن الأخبار المتلاحقة عن ضحاياه جعلتهم يدركون أنه هنا، يرود بالأماكن كالأرواح الشريرة. انسحبوا إلى فضاءاتهم الخاصة، يرتّبون حياتهم على قدر طاقتهم، كلّ على طريقته لا محالة، ولكنهم يلتقون في أشياء كثيرة لا تختلف عن نمط معيشهم اليومي المعتاد، حتى لكأن كل فرد منهم حمل معه قطعة من هذا العالم المشترك، الذي بات مهدّدا بخطر داهم، غامض لا يُدرَك، ملتبس لا يُفهَم، شبحيّ لا يُمسَك، سفّاحٌ يحصد الأرواح، حيثما حلّ، دونما شفقة ولا رحمة.

ومن عجب أن هذا الوباء الذي ألغى الحدود الطبيعية والدولية أوجد حدودا أخرى، فردية هذه المرة، حيث انعزل كل واحد في بيته، ليصون نفسه دون ريب، ولكن ليصون الآخرين أيضا، ويقيهم إصابة محتملة. أي أن انعزاله ليس لحماية نفسه فقط، وإنما أيضًا لحماية من يعرف، ولا يعرف، حَسْبُه أنهم بشرٌ مثله. ففي مناخ اجتماعي غلبت عليه الأنانية، جاء الفايروس يحمل رسالة مفادها ألا سبيل للنجاة إلا بالتضامن، والإحساس بالانتماء إلى مجموعة نحرص على حياتها كما تحرص على حياتنا. وبذلك نتمثل استعارة بليز باسكال عن "الغرف المنفصلة"، في حديثه عن مجالات النشاط العام كالتربية والصحة والعدالة والاقتصاد وما إلى ذلك، ليقيم غرفة خاصة به قصد الحفاظ على نفسه وأسرته، والحفاظ في الوقت نفسه على الغرف المنفصلة التي تشكل العالم، على أمل أن تساعده وسائل الاتصال الحديثة في إعادة نسج الروابط الاجتماعية ولو بطريقة مغايرة. فقد أثبتت وقائع التاريخ أن الأوبئة لا تفتك بالأرواح فقط بل تفتت النسيج الاجتماعي أيضا، وتفقد السلطات قدرتها على إدارة الأزمات، وكان المؤرخ اليوناني توسيديديس (465-395 ق م) قد لاحظ أن "طاعون أثينا"، وكان شاهدا على وقائعه، لم يصب الأجساد وحدها، بل أدخل اضطرابا على قواعد الحياة المشتركة وعمل المؤسسات، فالتوتر يبلغ أشدة زمن الأوبئة.

لتجاوز القلق والضيق في مثل هذه الحالات، يبتكر الناس ميثولوجيات شخصية أو جماعية، وبدل أن ينساقوا إلى الجزع والهلع، يجنحون لبناء عوالمهم، لأن الانكفاء على الذات وملاحقة الأخبار ليل نهار قد يفقدهم القدرة على الثبات، وخاصة القدرة على الحلم. في "شعرية الفضاء" كتب غاستون باشلار "لو يسألونني عن أنفَس نعمةٍ للبيت سأقول: البيت يحمي الحلم، البيت يحمي الحالم، البيت يسمح لنا بأن نحلم في سلام". ولكن هذا يصحّ حينما يكون المرء وحيدا يرتّب حلمه كما يشاء ويوزع وقته كما يهوى، فما الحيلة إذا ألفيت نفسي مرغما على مقاسمة أفراد أسرتي الوقت كما أقاسمهم المساحة، على

ضيقها، حتى هجعة الليل؟".
في سكون الليل، يلتهب الذهن بتساؤلات لعلّ أهمّها كيف نحيا مع الشك، حين يفقد العالم تماسكه، دون أن نقع في الكآبة والخوف من المجهول؟ لا يكون ذلك إلا باتخاذ التجربةِ والعادةِ بوصلةً، الأولى تعلمنا تواشج الأشياء في ما مضى من حياتنا، والثانية تحثنا على توقّع الشيء نفسه في المستقبل، وكلتاهما تساعد على تنشيط الخيال وابتكار بعض الأفكار. فالأوقات الميتة، أي لحظات العزلة التي يسمّيها القدامى تحررا، ذات أهمية بالغة لإنعاش تجربتنا الحياتية، وربما نجد فيها انعتاقا من هذا النسق المحموم الذي طبع هذا العصر، عصر التسارع بعبارة الألماني هارتموت روزا. ولكن المفارقة أننا انشغلنا عن عيالنا وإخوتنا وأصدقائنا بالتواصل الافتراضي، لضيق الوقت وكثرة الالتزامات، فلما أحالتنا العزلة على البطالة (إلى حين)، حرمَنا الفايروس من إعادة الروح إلى تلك العلاقات واقعيا، فأقمنا بيننا وبينهم هذه المرة مسافة حقيقية، يصدق فيها قول فريد الأطرش "قدّام عينيّ، وبعيد عليّ"، لنعيش في عزلة.
أنا أحب العزلة، حينما تكون باختياري، أغنمها فرصة للقراءة، والكتابة على وجه الخصوص، فلي من المشاريع ما لا يفي به عمر واحد، ولكني أكره العزلة حين تُفرَض عليّ، وتُقيِّد حركتي، فأغدو حبيس فضاء لا أغادره إلا بترخيص. انزعجت في البداية، ثمّ أقنعت نفسي بأن الحَجْر لم يفقدني أدواتي ولم يحرمني ممّا أريد، فأن أكون معزولا بإرادتي أو بإرادة هذا الوباء أهوَنُ بكثير من أن أكون تحت قصف المدافع والصواريخ زمن الحرب، حيث تنعدم كل شروط الحياة الآمنة، ولا مجال عندئذ غير التفكير في تأمين سبل البقاء. عدت أمارس طقوسي المعتادة، وإن بشيء من التحوير فرضه الوضع العائلي الجديد، فلي التزامات مهنية لا يمكن أن أخلّ بها، أيّا ما تكن الظروف، ومشاريع في الإبداع والترجمة تنتظر الإنجاز أو الإنهاء. انشغلت بها لكونها من صميم عملي دون ريب، ولكن لكونها أيضا جدارا يقيني أصداء الكورونا وما يحوم حولها من إشاعات. بعضها تتحدث عن حرب بيولوجية خفيّة بين القوى العظمى، وبعضها يردّ الفايروس إلى عمل مخبري تتنافس إثره مؤسسات تصنيع الأدوية العملاقة للهيمنة على السوق العالمية. وما هي في نظري سوى نتيجة حتمية لإساءة الإنسان إلى الطبيعة، فالاحتباس الحراري والتصحّر وتدمير الغابات وتلويث البحار والمحيطات واستنزاف الطاقات الجوفية نجمت كلّها عن جشع إنسان هذا العصر، وخاصة إنسان البلدان المتقدمة الذي جعل التنمية الدائمة ديانة جديدة.
ولئن عزلتني الكورونا عن العالم، فإن الكتابة عزلتني عن الكورونا، ولم أشعر لحظة أن وجودي مهدّد، لأني أعرف أنها زائلة مهما طال بها الزمن، ونحن باقون أيّا ما يكن عدد الضحايا. والذين يهوّلون المسألة بذكر أرقام لم تتجاوز الثلاثين ألفا عبر العالم حتى الآن، يتناسون عدد ضحايا الأوبئة السابقة، فالإنفلونزا الإسبانية وحدها (وإسبانيا منها براء) خلّفت نحو خمسين مليون قتيل. نعم، لست خائفا، فالموت آتٍ بالكورونا أو بغيره، وإن داخلني خوف أحيانا فعلى أهلي في تونس، وقد حلّت عليهم المصيبة هم أيضا؛ بل أنا متفائل، واثق أن علماء هذا "الغرب الكافر" الذي ندعو عليه بالوبال في كل صلاة، سيتوصّلون إلى استحضار ترياق ناجع، مثلما توصل سابقوهم إلى القضاء على سائر الأوبئة. ولا تراودني أيّ صورة عن فناء العالم، التي تروجها الروايات والأفلام الديستوبية، فلست من أنصار "الكَلّوبسولوجيا"، ذلك التيار الذي ظهر في بداية هذا القرن، وتنبأ دعاته بانهيار الحضارة الصناعية وزوال العالم في صورته الحالية. قد أستخلص من هذه الجائحة عبرة، أو فكرة، ولكني لا أتخذها فرصة لمحاسبة الذات والنظر في ما مضى من مسيرتي الحياتية والأدبية، فأنا ممن يداومون ذلك كل ليل، قبل أن يكّحل الكرى أجفاني كما يقول الشعراء.
ولكن ينتابني أمل وخوف. أمل بأن يعي الإنسان أخيرا أنه سبب البلاء في هذا الكون، فقد رافق انتشار الكورونا تراجع الأنشطة الصناعية والاقتصادية، وتوقفها في بعض الحالات عندما اعتكف كل فرد داخل بيته، فاستعادت الطبيعة بعض عافيتها، إذ تناقص التلوث وتحسن الهواء وخفَت ضجيج المحركات، حتى أنه يمكن القول إن أكبر مستفيد من الوباء هي الأرض. أما الخوفُ فهو من تكذيب النيوليبرالية كل التوقعات المتفائلة، التي تتوهم أن هذه الجائحة ستكون حدّا فاصلا بين عهدين، ما قبل "كوفيد - 19" وما بعده، وأننا سنشهد نظاما عالميا جديدا يزيل الحدود ويقرّ بأن مصيرنا على هذا الكوكب واحد، فقد تعالت أصوات في بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وأميركا تؤمن بالفلسفة الأخلاقية النفعية، التي تقوم على النظر إلى الأشياء وفق المصلحة العامة، تدعو إلى التضحية بالفئات العمرية الهشة كالمرضى والمسنين، للحدّ من أزمة اقتصادية رهيبة سوف تتسبب مستقبلا في أموات أكثر، بسبب البؤس والجوع وتفشي أمراضٍ سوف تعجز المنظومات الصحية عن علاجها لغياب الموارد المالية. ففي زمن الأوبئة، "عادة ما توجه المجموعة الإصبع نحو الضحية، الذي يتحول إلى كبش فداء، فيتم عزله، ثم تدميره" كما يقول الأنثروبولوجي الفرنسي فريدريك كيك.
فكّرت أن أستغل العزلة في تجميع أعمالي الكاملة، وإرسالها إلى بعض الثقات كي تنشر من بعدي إن حان الأجل، ثم طردت من خاطري هذه الفكرة التي توحي بالنهاية، نهاية مشروعي الأدبي والفكري، ونهاية وجودي ككائن حيّ. ومضيت أرتّب أوقاتي على ضوء الوضع الجديد، فأدرّس ولديّ، وأساعد زوجتي في إعداد الأكل، وأسمع الموسيقى في الشرفة، وأرد على مكالمات الأقارب ورسائل الأصدقاء، وعندما يخلد الجميع إلى النوم، أنصرف إلى حاسوبي لأحرر مقالة جديدة، أو أضيف بعض الفِقَر إلى رواية لا تريد أن تكتمل، أو أعكف على ترجمة رواية من عيون الأدب العالمي.
ومن الصدف العجيبة أنني، عند اندلاع أزمة الكورونا في الصين، شرعت في ترجمة رواية للفرنسي جوزيف كيسّل تتحدّث عن معزولين في مصحة بمرتفعات الألب السويسرية، أصابهم السّل في مطلع القرن الماضي. ورواية ثانية للروسي يوري بويدا عن قطار لا يعرف أحد من أين يأتي ولا أين يمضي، ولا طبيعة حمولته، حتى عمال المحطة التي يتوقف فيها فقط للتزود والصيانة. فهل تكون الكورونا كهذا "القطار الصّفر" الذي لا تعرف له وجهة؟ ربّما. ولكن لكل شيء نهاية، وكل وباء إلى زوال.

وصيّة كاتب

نص قصصي

عندما أصابني هذا العدوّ الغامض، وجاءت سيّارة الإسعاف تنقلني إلى مستشفى بومبيدو، تساءلت كيف أدركني وأنا منه في منَعة، ليس في جواري غير زوجتي وأبنائي. عزلت نفسي عن الناس، وامتنعت حتى عن القيام بمشيتي الصباحية المعتادة في حديقة الحي. تناسلت في ذهني تساؤلات لا تفضي إلى يقين، وأسلمت أمري للأطباء يفعلون بي ما يشاؤون، وقد باتت روحي معلّقة بين أيديهم.
في غرفة الإنعاش، كانت أنفاسي حشرجة. غرفة صغيرة بلا نافذة، تنير فضاءها أضواء خافتة، وتزدحم فيها آلات إلكترونية وأسلاك ووصلات كهربائية... لم أعد أتساءل عن سبب إصابتي، صرت أسأل نفسي، بين سَعلة وأخرى، عن هذا الفايروس الذي ليس بيني وبينه عداوة، ولا أحسب أنه يعرفني أو أعرفه. تساءلت أيضا عمن أرسله إليّ، وليس لي في الكون كلّه من يضمر لي الشرّ، ثم ماذا سيكسب حين يزهق روح رجل مسالم، يحبّ الخير لكل الناس، على اختلاف أجناسهم وأديانهم. تساءلت أيضا هل هي نقمة إلهية عن خطيئة اقترفتها دون وعي، أم هو عقاب عن معصية ارتكبتها في شبابي؟ وإذا كان الفايروس تعبيرا عن غضب من الطبيعة، فما ذنبي وأنا الذي يعشق الخضرة والهواء الطلق شأن كل من نشأ في الأرياف، أتألم لوردة ذاوية، وغصن مقطوع، ودوريّ تدعسه سيّارة.
استبدّت بي الوساوس والهواجس والخوف من ترك أبنائي بلا عائل، وبتّ ليلة عسراء يجفو فيها جنبي عن موضعي. لم أدر هل نمت أم غُشي عليّ. كانت الأوجاع قد سكنت قليلا، وأنفاسي تتردد عبر جهاز التنفّس في نسق ضعيف، حين فتحت عينيّ. تراءى لي الرواق خافتَ الإضاءة. رواق يزفر رائحة أدوية وأمصال يدركها وعيي وتخطئها حاسّة شمّي، يشهد حركة في الاتجاهين تنبئ باستفحال الكارثة. ولم يمض وقت طويل حتى أقبلت ممرّضة في بدلة صحية بيضاء تلتم على جسدها القصير، وواقية ورقية تغطي شعرها وتنحدر على جبينها، وكمامة تستر الوجه فلا تبدو منه غير عينين زرقاوين محوّقتين. خلعتْ عن وجهي جهاز التنفّس، ووضعتْ بدلها كمامة. وما كادت تغادر الغرفة حتى دخل طبيب في بلوزة بيضاء مستور الرأس والوجه. جاء يعلمني بأن حالي ميؤوس منها، وأن نهايتي وشيكة.
ألجم الخبر لساني، فغمغمت من بين أسناني: "ما شاء الله كان."
نظر إليّ من خلف كمامة لا تبين منها غيرُ عينيه الضيّقتين، وبدا متردّدا قبل أن يضيف في لكنة توحي بأصول آسيوية، فيتنامية أو كمبودية، لست أدري:

- يؤسفني، قال. يؤسفني إعلامك أن دفنك... أنّك ستدفن مع كل من قضى نحبه خلال هذين اليومين.

غصصت بما تبقّى في حلقي من ريق ناشف، وانتابني سعال حادّ وهو يقول:

- دون حضور أحد.

أزحت كمامتي رغمًا عنه وسألت:

- حتى أسرتي؟

- حتى أسرتك. توقّيًا للعدوى.

قال ذلك وتراجع نحو متر، وربما أكثر. لمحت في عينيه ما يشبه الحدّة وهو يقول في غضب جهد في كبحه:

- من فضلك، أعد الكمامة.

تجاهلت أمره وسألت:

- وأين سيكون الدفن؟

- في... في حفرة جماعية... خارج باريس، ردّ وهو يتراجع خطوة.

"حفرة، قلت في نفسي. وهل القبر إلا حفرة؟ ... جماعية؟ يعني أنها تحوي موتى من كل الملل والنحل؟ ... إلهي، ألا أجد الراحة حتى في موتي؟".

- لي وصية، قلت أباغته قبل أن ينطق. ووصية الميت... في كل الثقافات... تُحترم.

التفت خلفه كمن يبحث عمّن يساعده، وأراد الكلام فسبقته إليه:

- أنا كاتب، أتفهم؟ ولا يعقل أن... أن أعامَل كسائر الموتى.

- ليس في هذا الظرف، رجاء، ردّ بجفاء.

قلت في صراخ واهن مبحوح:

- إذا لم يكن من الحفرة بدّ، فأنا... أريد... أن تكون لي حفرة وحدي.

كنت قد بذلت في الصّراخ كلّ جهدي، رغم أنه كان من الضّعف ما لا يتجاوز مسافة شبرين. انتابني الألم من جديد، وتسارعت أنفاسي، وأدركت أنها ستنقطع، فقلت في همس وكأني أحدّث نفسي، وربما خيّل إليّ أني نطقت، وما فاه لساني بحرف:

- أريد أن يكتب على شاهدتها: هنا... هنا يرقد من تحدى الكورونا. الكورونا إلى زوال ... وهو باقٍ.

بدا أنه لم يسمعني، أو لم يفهمني. وقبل أن أعرف رأيه، غامت الأشياء أمام ناظري، وضاقت أنفاسي، وشهقت شهقة فاضت معها روحي.

كاتب من تونس مقيم في باريس

أغلفة العزلة

"الجائحة"، الوقت، الكتاب، وفراغ التوقعات

حاتم الصكّر

إطالة من وراء الغلاف

لم تمثل لي الفسحة الوقتية المتاحة اضطرارياً أهميةً كبيرةً، فمتقاعد مثلي- يحف صدى مموسق بمهنته "للقعود" عن العمل - لم تأت العطالة هبة طارئة جلبتها تداعيات فايروس كورونا ، ولا دلالة إضافية لها عن الفراغ الذي يحسه العاطلون بالضرورة ، وبمفاجأة كورونا الزائرة بلا حياء، تداعياً من زائرة الحمّى في قصيدة المتنبي.

ازداد إيقاع الفراغ أو العزلة بالمعنى الأدق، إيقاع يتألف يومياً حين يطلع من نشرات الأخبار ومن هواتف الأصدقاء الذين صار لمكالماتهم مدى زمني أكثر، فلا أجمل من مهاتفة في وقت مفتوح كما نشاء. العادات اليومية ستأخذ وقتاً أطول: إزاحة الستائر لاستقبال كمية الضوء الخارجي الممكن - نكاية بنا وتضامناً للطبيعة مع تسونامي كورونا لم تظهر الشمس خلال أسبوعين في هذا المكان القصي من الجنوب الأميركي المعتاد على الشمس الربيعية الخجول في مثل هذا الوقت - ثم التوجه لإعداد كأس الليمون بالماء الدافئ. سألاحظ أنه صار بطعم الدواء منذ تكررت التوصية بأن يكون علاجاً، ثم كأس الحليب الساخن والفطور السريع.

لا طعم لشيء، فالهاجس العلاجي والوقاية، تؤطّران الأفعال كلها، وتنزعان المتعة عن أفعالنا اليومية. تمارين رياضية قليلة لا يتقبلها الجسد بسلاسة، بعد أن انقطعت يومية المشي في ساحات التريض في الهواء الطلق، أو في النادي الرياضي الصحي الذي أقفل أبوابه منذ البدء.

من خلف الشبابيك لن ترى حركة زائدة. ثمة فراغ موحش لا تقطعه إلا سيارة البريد التقليدية، أو عربة النفايات الخضراء التي لا تزال تشع بشعارها فكّر بالأخضر!

للأخبار وجودها الكابوسي حين أذهب للتلفاز: أرقام تتدافع وتملأ الذاكرة بالخوف.. تتزايد وتتعقد الأمور كلها. والترقب يغدو معلقاً بالنشرات والبريد القادم عبر الرسائل النصية والفيديوهات.

للكتاب الآن وجود خاص .حتى ما كان موجوداً بالقوة على الأرفف صار له وجود بالفعل بين الأيدي. أعود للمجلات وأعدادها الخاصة: سيميائيات وتآويل، سير حياتية وذكرى، وقصائد جديدة وقاصين جدد، ونظريات في النقد والسرد، في الرسم والرسامين، في الكتابة كقدر واختيار ولعبة ماكرة، وبحر لسفن تائهة وسيرينيات تغوي البحّارة والمبحرين ولا شمع لِحجُب أصواتهن.. وانزلاق لذيذ نحو المصير.. ثم حنين للهرب والراحة بعيداً.

دواوين محمّلة على النت.. وروايات لأصدقاء أتجول بين صفحاتها وأقارنها باللحظة الكورونية القائمة.. ثم أنتقي شيئاً للقراءة وأنتظر بتعب. أغلفة الكتب جمدت في اليدين تمددت حتى صارت مجازاً . فأرة الحاسوب (ماوس الكيبورد) تتمثل لي حقيقة، فأنفر منها متحاشياً نداءات المواقع والصفحات والفيسبوك والصحف الرقمية والبريد. سأكتفي منعزلاً بما برمجته على الهاتف منها بعد فراغي من فراغ الفطور والمرور بالأشياء التي غدت أيقونات ذات هيئة تمثالية، ثم أهرع ثانية للتلفاز. أتغافل عن النمو العددي والأرقام المرعبة، وأبحث عن أمل في أنباء تتواتر عن علماء من بلدان عدة يتسابقون لدرء الوباء بعقار مناسب. أتساءل كل مرة: أيبحثون عن وقاية لمن لم تصبه الجائحة أم علاج لمن أصابته؟ وبين الوقاية و العلاج يتأرجح الأمل ولا جديد يطمئننا. وتظل أسئلتنا كقلقنا.. كخوفنا في مهب الريح العاتية.

التسوق هو الآخر صار فعلاً محفوفاً بتداعيات الفراغ الكوروني المفاجئ. العربات الطافحة بالمواد شيء لم أعهده في أسواق مدينتي والحي الذي أعيش فيه منذ تسعة أعوام. كنا نتندر إذ ينتقي المتبضعون حبّات مفردة من الأشياء، ويمضون خفافاً دون عناء. وها هم اليوم يتسابقون كما في ميدان تنافس ليحصلوا على ما هو متاح. عربات التسوّق المثقلة. الأيدي الناعمة والأرجل المرتبكة ، وتترك دلالة الشراء علامة على زيارة السيدة المتطفلة كورونا، تصاحب حمّاها حمّى التبضع والخزن بآلية الخوف الذي أعاد الإنسان إلى طبعه لا تطبّعه مثل سنورات (قطط) الحكاية الشعبية اللائي ألقين الشمع المدرّبات على حمله في مجلس الوزير تأدباً، وتراكضن ليصطدن الفأر الملقى بحيلة خبيثة أمامهن. وعدنَ قططاً فحسب، يلقين شموع الأناقة والتأدب؛ ليصطدن ما يحسبنه للقادم من أيام العزلة.

الجائحة أنثى.. والفايروس ذكر

تأتي لفظة العزل عربياً مرادفة للحجْر.. ذلك موجع. فالحجْر يُستخدم للقاصرين والمسوسين والمخرّفين، فيحجر عليهم ذووهم، ويقيدون تصرفهم بما يملكون. لكنّ العزْل يحمل معنى الإبعاد والتبرؤ؛ فيكون المعزول مداناً بخطر عدواه. كلاهما مرٌّ بالغ القسوة. وأقرب تمثيل صوري له هو عزلة الطائر عائداً إلى محبسه بعد أن سئمه الفضاء.. وذلك الحَجْر يأخذ قسوته كالعزل من إيقاعه اللغوي في هذه الجائحة. ولكن ما الجائحة؟ وكيف اهتدى المختصون إلى هذه المفردة ذات الوقع المنفّر المخيف؟

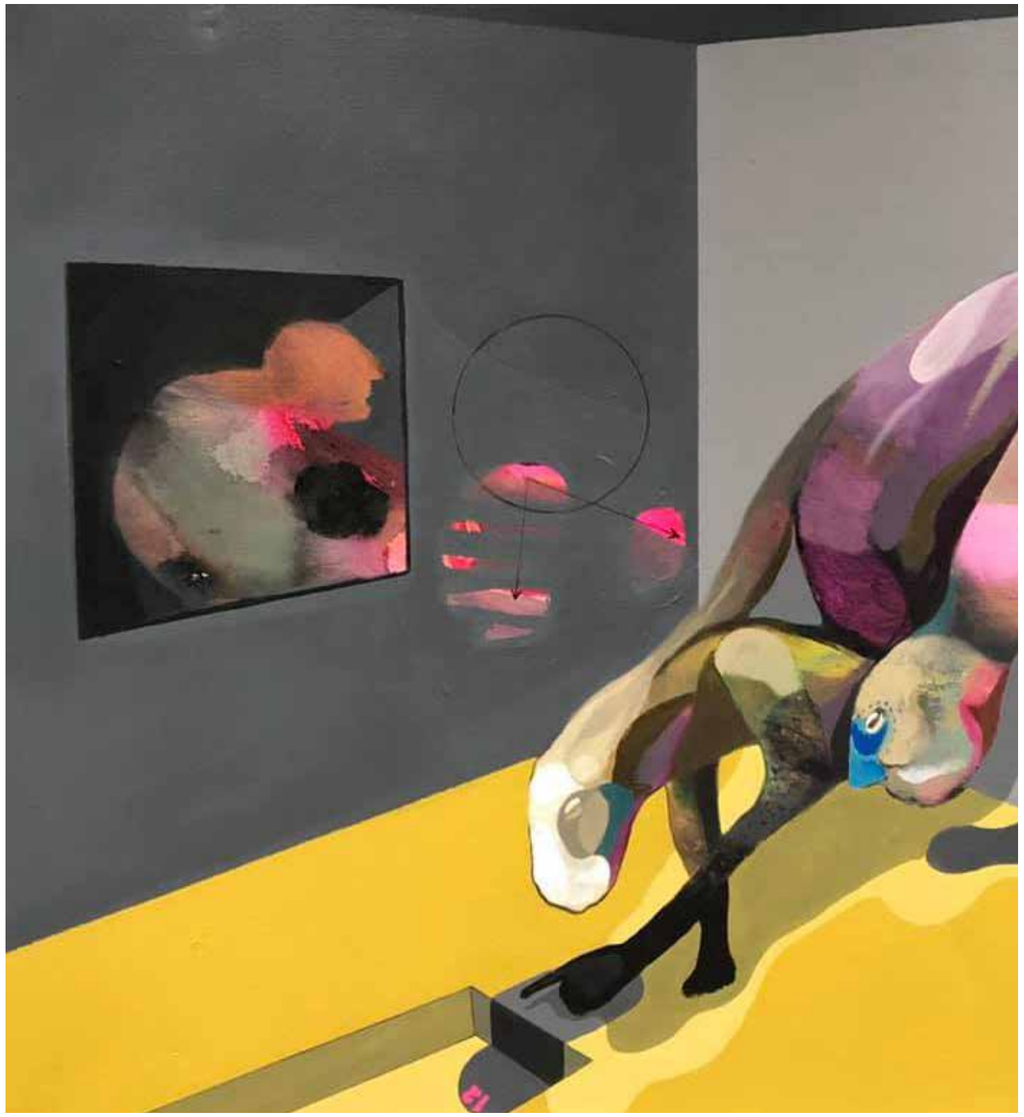

فؤاد حمدي

إنها مؤنثة، ارتاح لها العقل الذكوري، وهجر من أجل ذلك الوصف المذكر: الوباء. وحتى مرادفاتها المعنوية مؤنثات. هكذا يقترح المعجم للجائحة وجمعها المؤنث السالم- يا للسخرية من سلامتها! ألفاظاً مثل: المصيبة/الداهية. ويستطرد تأكيداً للعقلية الذكورية: الجائحة داهية أو مصيبة تصيب الرجل! في ماله فتجتاحه كله. والسنة الجائحة الجدبة هي الغبراء القاحلة. كلها مؤنث. ولا وجود لوباء أو مرض فاتك أو شديد. هناك المزيد من العداء الأنثوي: الجائحة في المعجم هي "آفة"

فؤاد حمدي

سماوية تتلف الثمر أو وتذهب له.
ربما هو اللاشعور اللغوي الجمعي الذي يلصق بالأدواء والمشكلات هذا الوصف: عاصفة/جائحة/داهية/قاحلة/آفة/غبراء..

التباعد الاجتماعي: روميو محجوراً

تطلب منا تعليمات الوقاية من الجائحة أن نسلك التباعد الاجتماعي. أبتسم مردداً لنفسي: وأيّ تقارب يفترضونه سوى حميم العلاقات وقريبها المؤقت. وإلا فأين الجوار والصحبة؟ والمعارف لا أحد.. فلماذا يقترحون التباعد؟ لأغراض في نفوسهم فحسب. الأسرة لن تتمكن من التقارب. الأحفاد عادوا في يومهم الدراسي الأخير قبل الإغلاق بوصية ينفذونها تماماً. ابتعد عن جدَّيْك لأن مناعتهم ضعيفة أو معدومة. لا تزرهم ولا تدخل سكنهم. الهاتف أيضاً سيعود لوظيفته العاطفية التقليدية مسرحاً للأسئلة البليدة: كيف الحال؟ كونوا على حذر.. وداعاً..
الرومانسيون والرومانسيات هم ضحايا نوعيون للجائحة، فالقبلات والأحضان وتشابك الأيدي ممنوع ضمن الحملة العاطفية لمقاومة الوباء. وصاروا مادةً لصانعي الطرف والنكات، ولرسامي الكاريكاتير - ضمير الجماعة في الأزمات والصعاب - بديلاً للرغبة بالقُبل قبَل قطتك والشريكة تفعل ذلك. أصبح تقبيل القطط إشارةً ذات محمول عاطفي (إيروتيكي في نشاط استثنائي وسط الجائحة؟) صارت الأمثولة: ويحب قطَّتها قطّي! انزياحاً عن الحماسة البدوية الساذجة: ويحب ناقتَها بعيري! أحد رسامي الكاريكاتير في مدينتنا نشر في الجريدة المحلية رسماً عن الكورونا مستدعياً مشهد الشرفة مقلوباً: جولييت من شرفتها تنادي روميو بدلال ولهفة: أين أنت؟
يخرج روميو لها من شرفته دامعاً حزيناً ليقول: أنا في الخَجَل!

2020 حيَّتان برأسين وحبلا مشنقة

لا أؤمن بالطِّيرة والتطيّر، إنها ربط لا علّي - غير سببي بين الشيء ودافعه ونتائجه. لكنني غير مطمئن لهذه السنة. هل كانت كبيسة؟ منذ البدء أهدتنا مصافحات قاسية مؤلمة: شفا حرب بين اثنين ثالثهما العراقيون بلا رابط! ثم هز مدينة ناشفل حيث أسكن إعصار رهيب، خلال الدقائق العشر التي سلّم بها علينا ممطراً عاصفاً مسرعا بدرجة 160 ميلاً في الساعة، ترك عند الثانية صباحاً أكثر من 25 قتيلاً جلّهم تحت أنقاض بيوتهم. هُدمت مبانٍ لمدارس ودور ومؤسسات وممتلكات خاصة.. كل شيء بدا في الصباح أثراً بعد عين.. الصور الجوية التي التقطتها درون (بلا طيار) تشي بآثار قصف أو معركة ليلية لمن لا يعرف ما فعل التورنيدو... لم نستفق من الواقعة حتى حلّت الجائحة.

أيّ سنة هذه؟

2020

تأملت هيأتها الخطية وأنا أعلق التقويم الجديد على الجدار. تراءت لي حيتان تطلان برأسيهما من العدد 2 المكرر، والصفران الدائريان كحبلَيْ مشنقة. أين نهرب منها. لا اختيار إلا الحبل أو رأسي الأفعوين. خيار نجا منه الرجل الهارب من الفيل الهائج في كليلة ودمنة: فاختار أن يتدلى بالحبل ويرقب الحيّات في الأسفل، متلهياً بغمس إصبعه في كوارة العسل على جدار البئر بانتظار أن يسقط إلى القرار.
حين دخلناها، بل قبل ليلتين منها كنت ممدداً في غرفة الطوارئ في زيارة لأسرة ابنتي في كندا. قضيت ليلة الميلاد الحوّائية التي تسبق الكرسمس أعاني من ارتفاع ضغط الدم بدرجة حيرت الأطباء.
ثلاث رسائل تلقيتها في نهار واحد: النادي الرياضي يرجو أن نستمر في اشتراكنا الشهري، معلناً توقفه (المؤقت)..، متحف فريست للفن البصري، مركز المتعة اللونية والحركية والمعارض المدهشة في مدينتي يرسل رسالة رقيقةً بالمعنى نفسه: مُقفل مؤقتاً، وانتظرونا وادعمونا، أخيراً مكتبة الحي راعية السأم ومعالجة فوضاي وارتباكاتي وتوتري وملجأ عزلتي الموسمية هي الثالثة تعتذر وتقفل، وتعِد بلقاء لا تاريخ له.
هل سيطول الأمر إذن أم سيحل السلام مع الغضوب الجائحة الكاسحة اللامرئية؟ ومؤقتاً نقتات صمت عزلتنا وسلامها العابر. ولكن أيّ سلام ستمنحه العزلة وأخبار الموت تتزايد، والوباء خارج السيطرة في أكثر الدول والمجتمعات تقدما تقنياً وطبياً...؟
أخبار الأهل والأقارب تزيد الأسى الذي أحسه على ما يضرب البشر في قاراتهم كلها: صرنا نفقد أفراداً قريبين. تجسدت الفاجعة وصارت ملموسة، وعلى القلب الواهن أن يحتمل: بأكواب الليمون والحليب، بكتب الورق والشبح الرقمي، وبالمذياع والتلفاز، خداع الهاتف وحيل الحاسوب، وتقاطعات الأمل واليأس.
أنظر الآن إلى المطر الليلي، ولا أجد له طعماً. تساوت الشمس والغيوم، غيوم العزلة وشمس الفضاء الطلق. عالم يتغير نحو المجهول لافتته الموت اليومي والفاقة والعزلة.. أغلفة تتضاعف.. تتوالد بكثرة كسرعة تمدد الجائحة التي لا يرضى المتداولون أن ينسبوها لوباء أو مرض أو قدر غاشم.. لأنهم أبطال خيّرون، والكون من صنع امرأة ولدتنا ثم تخفت في هيئة جائحة/ داجية/عاصفة/ جدباء/قفراء... خالية إلا من ابنتها الأقرب والأحب: المنيّة، بعد أن وأد الآباء ابنتها المدللة المتغنجة: الأمنية.

العزلة التالية

يختم ماركيز روايته "مائة عام من العزلة" بمشهد ذي دلالة في عزلتنا الراهنة. أوريلاندو يقرأ في رقاق ملكيادس المكتوبة قبل مائة عام، والتي أيقن أن قدره مكتوب فيها. تلك اللحظات تهب الريح العاصفة فتقتلع الأبواب والنوافذ والسقف والأسس.. فغدت ماكوندو إعصاراً مخيفاً من الغبار والخراب. مدينة المرايا أو السراب تجتثها الريح وتنفيها من ذاكرة الإنسان.. فالسلالات، التي منحها القدر مائة عام من العزلة، لا يمنحها القدر على الأرض فرصةً ثانيةً.
ولكن أما من أمل بأن يمنحنا القدر الغامض ذاته عزلةً تتجدد فيها النفوس والأمكنة، ويطلع منها نسل جديد كذلك الذي توقعه خليل حاوي وهو ينتظر الصاعقة التي تتفجر منها الحياة...؟

ناقد وشاعر من العراق مقيم في نيويورك

ميموزا العراوي

ملف

ماذا أفعل في البيت؟

فاطمة بن محمود

فرغتُ لتوي من نص أدبي وعاد إليّ هدوئي، قلتُ في نفسي: سأنتهي من بعض المقالات التي لم تكتمل إلى حين تطل فكرة جديدة لعلها الآن مازالت مجهرية، تحتاج أن تنمو قليلا لتدب في ذهني وأكتشفها. في تلك اللحظة كائن مجهري حقيقي لا يكاد يُرى يطل برأسه على العالم فيرتعب منه الجميع، يبدو الكائن المجهري مذهولا مما وصلت إليه البشرية، وأحدس أنّ الذهول أصابه خاصة من التكنولوجيا العظيمة التي تحيط به والتي طغت على العالم وحكمت العلاقات الإنسانية.

في مغطس الحمام

هدوء شديد في بيتي، دخلتُ المغطس وغمر الماء جسدي، فقط تركتُ عينيّ أطل منهما على رغوة الصابون التي أنتجت فقاقيع كثيرة مددت لها إصبع طفلة لا تحب أن تكبر. خارج غرفتي الرعب متبادل بين كائن مجهري لا يُرى يبدو ضئيلا جدّا حتى أنك لا تستطيع لمسه دون أن يُسحق تحت إصبع ناعم وبين عالم مدجج بكل ما وصلته البشرية من تكنولوجيا وعلوم.

أتمدد في المغطس وأختار أكبر فقاعة صابون، ألمسها بنعومة شديدة، أقرّبها مني وقبل أن تتلاشى أحاول أن أجعلها على رأس أنفي الذي يطل كجبل صغير. فجأة تتبخر فقاعة الصابون، أحاول مع أخرى، ما أكاد ألمسها حتى تتبخّر، زاد إصراري أحب أن أضع فقاعة صابون على الجبل الصغير ثم أنفخ عليها وأنا التي أجعلها تتلاشى، لكن في كل مرة تتبخر الفقاقيع بسرعة كأنها تسخر مني، في الحقيقة بدت لعبة تافهة لكن كيف تهزمني فقاعة ضئيلة وخاوية، سكبتُ المزيد من سائل الصابون وحركته بعنف ليصنع رغوة كثيفة وانتشرت الفقاقيع حول الجبل الصغير، بهدوء شديد مددت إصبعي لألامس فقاعة أحب أن أقرّبها من أنفي كادت تعلق بإصبعي حتى تبخرت، محاولات عديدة باءت بالفشل.. فقررت أن أختار أقرب فقاعة صابون ومرة أخرى ما أن تعلق بإصبعي حتى تتبخر.

خارج غرفتي المواجهة بدأت بين كائن مجهري لا يكاد يُرى بالمهجر الطبي وبين عالم متطور يستعمل كل وسائل التكنولوجيا وآخر ما تفتق عنه ذهنه في العلوم.. موازين القوى غير متكافئ فعلا. ما زلت في مغطس بيتي والمواجهة على أشدها بيني وبين فقاقيع الصابون، قلتُ ربما هذه الفقاقيع الخاوية لا تحب أن يتحكم بها أحد لذلك سأخاتلها، سأداعب أصغرها، آخذها بهدوء أقرّبها من فمي الذي يبدو تحت الجبل الصغير فوهة عميقة تؤدي إلى المجهول ثم بسرعة أضعها على أنفي وهكذا أفاجئها، نجحت حيلتي غير أنّها قبل أن أنفخ عليها.. تلاشت.

خارج غرفتي كانت المواجهة تشتد، العالم المدجج بالتكنولوجيا استنجد بأبرز العلماء وأشهر الأطباء وأمهر المهندسين لمحاصرة الكائن المجهري الضئيل جدا، يبدو أن أسلوبه في الحرب واضح وبسيط وفق قاعدة قديمة لم يبذل جهدا لابتكار غيرها "أفضل طريقة للدفاع هي الهجوم" وكان يتقن الهجوم.. لم يفكر أنه ضئيل جدّا وخاو مثل فقاعة الصابون وقدره أن يخسر هذه الحرب الشرسة وغير المتكافئة، بل فكّر في أن يحوّل ضآلته الشديدة إلى نقطة قوة، لن يراه أحد وهو يتكاثر بمهارة فائقة، ينتشر مثلا من خلال قُبلة أو لمسة بريئة أو مصافحة عادية تصبح جميعها جرائم تؤدي إلى قتل عنيف، يمكن مثلا لشخص أن يُقتل برذاذ بصاق تطاير من صديق له وهو يحدّثه عن حبيبته.

في اللحظة التي بدأ يتسرب إليّ الملل من فقاعات الصابون الخاوية تركتها، بدا لي الأمر تافها جدا، حيث لم أصارح نفسي أنّني فعلا فشلت في السيطرة على تلك الفقاعات، فهي لا شيء في النهاية. لكن عندما غادرت المغطس شعرت بلذة وأنا أسحب سدّادة المياه التي انجرفت بسرعة إلى البالوعة وقد أخذت معها كل الفقاقيع. كانت لذة مشوبة بانتقام غريب..

دي سوسير والكورونا

خارج بيتي كانت الحرب قد أعلنت بين كائن مجهري وبين العالم المدجج بكل التكنولوجيا والمعارف والعلوم، كان الكائن المجهري الضئيل جدا والرخو الذي عشّش في مكان صغير من العالم ينتصر على الجميع ويتقدم حتى أنه لم يعد نكرة واضطر الإنسان أن يسميه. لكن حتى وهو يختار له اسما لم يشأ أن يصوغ له لفظا موحشا بحروف ذات وقع عنيف على الأذن، فترتجف له الأسماع، لم يختر أن يكون اسمه مثل الطاعون أو الكوليرا أو الجدري أو السل.

كل هذه الكلمات الموحشة تثير الرعب لسماعها كل حروفها لها إيقاع مدوّ يثير الخوف في النفوس، في "الطاعون" يبدو حرف "الطاء" وكأنه يأخذك عاليا إلى السماء ثم فجأة تأتي "عون" فتوقعك على الأرض، أما في "الكوليرا" يطل "الكو" فكأنه يرمي بك في نفق ثم تأتي "ليرا" فكأنها تلطمك ترفعك إلى الأعلى لتصطدم بوجه السماء فتتناثر شظاياك في كل مكان، أما لفظ "الجدري" فيبدو مثل لكمة تسدد مباشرة على العين فلا ترى بعدها شيئا، في حين أن لفظ "السل" يختصر الطريق ويرمي بك مباشرة داخل جب موحش وعميق.. هكذا كانت الدوال حادة وعنيفة تزلزل الإنسان وتخلف فزعا شديدا، الربط بين الوحدة الصوتية والحدة الدلالية أو لنقل بين الصورة المنطوقة والصورة العقلية عضوي وله مبرراته وليست اعتباطية وهو ما يؤكده العالم اللساني دي سوسير. لكن هذه المرة الإنسان المغرور جدا والهازئ من كل ما سواه اختار أن يسمي هذا الفايروس القاتل المتسلسل "كورونا"، تبدأ "كو" فتجعل الشفاه ممتدة كأنها تهمّ بقبلة تطبعها على خد من نحب وتأتي "رو" لتؤكد على فكرة القبلة ثم تأتي "نا" بفتحة ممتدة كأنها دعوة إلى رقصة التانغو، كأنه يسمي حركة في الموسيقى أو يسمي مطرا خفيفا على عاشقين مساء صيف. الطريف أن في الطريق إلى بيتي في أحواز العاصمة تونس وتحديدا عندما تصعد ربوة صغيرة يجلس عليها جامع الحي، في الجهة اليمني بناية فخمة اسمها "إقامة الكورونا" في الطابق الأرضي محل لبيع مرطبات الكورونا وفي الطابق العلوي قاعة رياضة الكورونا.

(أشهد أنّ هذه حقيقة وليست مجازا).

الوباء المستبد العادل

الأدهى في اختيار اسم لهذا الكائن الضئيل جدا هو ما سأقوله الآن. كأن الانسان وهو يمنح اسما لهذا الفايروس كان يسخر من ذكورته (إنه فايروس) فحوّله إلى أنثى، الحلقة الأضعف في كل المجتمعات تقريبا، غير أن هذا الفايروس الذكر والذي يتحول إلى أنثى اسمها كورونا ستنتقم من الإنسان، استراتيجيتها سهلة وواضحة وهي "باقية وتتمدد" تماما على طريقة الدواعش ولعلها استراتيجية ثابتة عند كل الإرهابيين.

حتى تضمن نجاعة ذلك لم تكن تظهر للبشر، تظل في حالة كمون لمدة أسبوعين تجعل فريستها تلتقي بالكثير من البشر وتسلّم على الأصدقاء وتحضن الأحبة، ثم تطرح غريمها أرضا، وهكذا بمعادلة بسيطة، كانت كل يوم تفتك بالعشرات تحولت العشرات إلى مئات ثم إلى ألاف، وهكذا تحولت الكورونا إلى قاتل متسلسل تفرّخ الموت في كل مكان وتتنقل بسرعة قياسية، انتقل معها الإنسان من حالة توجس، ثم خوف، إلى فزع، وانتهى إلى حالة رعب شديد.

لذلك عندما كان ترامب يهزأ بالصين التي فتك بها الوباء ويسخر من إيران التي أثخنت جراحها كانت الكورونا مثل تلميذ نجيب منشغل بدروسه، مثل عامل مجد منهمك في عمله، كانت الكورونا تنتشر بسرعة تكثف من عدد ضحاياها. في الحقيقة كانت أعدل من كل الأنظمة العربية في نشر الموت. لم تفرّق بين نائب ووزير وبين ماسح أحذية وبين عارضة أزياء وبين خادمة وبين لاعب كرة وسيم تحلم به الصبايا وبين عجوز في أرذل العمر وبين رجل دين وبين مغتصب أطفال.

كان الوباء دكتاتورا في تسلطه وديمقراطيا في ضحاياه.. عندما كان ترامب يسخر من أعدائه ويتباهى بشعره الذهبي وكانت دول أوروبا منشغلة بحياتها الناعمة كان الوباء الذي اختير له اسم أنثوي ناعم يزحف بوحشية يقطع المسافات بسرعة كبيرة يصعد الطائرة مع المسافرين ويركب القطارات ويدخل البيوت ويندس بين العشاق.. يبدو أنه لم يكن يستريح ليستعيد قوّته ويهاجم من جديد، كأنه كان يستمد قوته من توسعه، ويزداد وحشية مع كل شخص يرديه قتيلا.. وهكذا خلّف في كل المناطق التي مر بها جثثا كثيرة وانتشر فزع الإنسان منه وهو يرى كل أسلحته تتهاوى أمام جبروته الذي يزداد كل يوم.

خلت أني نسيت أمر فقاقيع الصابون وما كان لي معها في المغطس، صحيح أني لم أنجح في ترويضها لكن أدري لماذا تذكرتها، في الحقيقة فقاقيع كثيرة نواجهها كل يوم. من ذلك جاري الذي يفتح صوت التلفزيون عاليا فأضطر مكرهة أن أتابع معه مباريات كرة القدم. وأدعو من قلبي وبصدق شديد أن يخسر فريقه كل المباريات، التلميذ المشاغب الذي تبدو مهارته فقط في التنمّر على ولدي فيضطر أن لا يأخذ معه أقلامه الجميلة ولمجته حتى لا يفتكّها منه، الكاتب التونسي المغرور الذي يعتقد أنه رب المشهد الأدبي، وقد وفر له عمله الوزاري فرصة أن يعتقد أنه رضوان في جنة الرحمن، يمنح صكوك الإبداع لهذا ويمنعها عن ذلك. لم يخطر لأبي العلاء المعري أن مثله سيتطفل على الإبداع وإلا لجعله يمشي في الأرض زقفونة..

في الخارج الحرب أصبحت شديدة بين العالم وفايروس ضئيل جدّا ورخو جدّا لا يُرى أصلا. بدأ الناس حولي يتململون. وأوحى الجهل إلى بعضهم فاعتقدوا أن لهم باعا وذراعا في علم الفايروسات. يعتقدون أنهم أمام كائن أرسله إله الإسلام ليفتك بالصين لأنّ أهلها يأكلون الحشرات والضفادع ولا يبسملون. وليفتك بالإيرانيين لأنهم شيعة لا يؤمنون بمحمد.. وعندما دخلت الكورونا بلادنا عندها يكون الله قد أرسلها نكاية فينا لكثرة الانحراف وابتعاد الناس عن دينه وانتشار المقاهي المختلطة ومحلات بيع الخمور ولا تنسى سفور النساء وصوتهن المرتفع أمام الرجال..

لذلك في المرحلة التي دخل فيها العلماء إلى المخابر العلمية يتبادلون المعلومات والتجارب للوصول إلى دواء يضع حدا للكورونا كان رجال الدين في العالم يعودون إلى بيوتهم وقد أغلقوا المساجد والكنائس والمعابد حتى لا تتفشى الكورونا بينهم، لأول مرة يرى المؤمنون بعين العقل أن لا شيء يمكن أن يضمن لهم الحياة والصحة غير العلم، فالإله لن يضمن لهم شيء وإيمانهم ليس سوى وهم جميل يخفف عن الإنسان عبء الحياة..

الكورونا صديقتي

عندما أعلنت وزارة التربية والتعليم في تونس عن عطلة مفتوحة لكل التلاميذ والأساتذة، كدت أصرخ من شدة الفرح. الآن سأنشغل بمقالاتي المعلقة.. وسأستغل وقتي لروايات كثيرا ما أجلتها وأفلام لم يتيسّر لي الوقت لأستمتع بها بل عزمت أن أنهي مخطوطين لي في النقد. لذلك كانت جارتي الأرملة التي تعاني بدورها من جارنا الفقاعة الذي يحب أن يتابع مباريات كرة القدم من التلفزيون بصوت مرتفع فتلعنه أمامي ويصلني نشيجها خافتا من غرفة نومها الباردة، كانت جارتي تلك منهمكة بتكديس مشتريات كثيرة في مطبخها لأن الحكومة ستعلن حالة حجر صحي تلزم فيه المواطنين بالبقاء في بيوتهم حتى لا تنتشر الكورونا، في ذلك الوقت كنتُ أرتب الأفلام التي سأتابعها حتى أني نزّلت طلبا في صفحتي على الفايسبوك لأصدقائي بأن يقدموا لي اقتراحات لأفلام جيدة و روايات رائعة، لستُ مستعدة أن أهدر وقتا ثمينا في متابعة فيلم لا يشدني إلى نهايته ولا في رواية لا تأسرني في توهجها وصدقا وردتني عناوين مذهلة..

أن تتقهقر الشعوب وتعود إلى بيوتها خوفا من كائن فايروسي ضئيل جدا ولا يُرى ثم اسمه كورونا كان هذا أفضل هدية بالنسبة إليّ.

من الطريف أن تجتاح الكورونا العالم فيتوفر لي الوقت لأفعل أشياء أحبها.. ملأت خزانة المطبخ والثلاجة بما استطعت أن أوفره من أجل أن لا أغادر البيت، قد تفعل النساء ذلك من أجل أن يتفرغن للتلفزيون والفايسبوك. أما أنا فلي انشغالات كثيرة، أخيرا توفر لي وقتا مهما سأكتب فيه قصائد وقصصا وأقرأ روايات وأشاهد أفلاما وأنام كثيرا وهذه فرصتي.

مثل امرأة تحب بيتها خصصت اليوم الأول من الحجر الذاتي لتنظيف كل الغرف، يجب أن أعد نفسي جيدا للكتابة حتى لا يشغلني شيئا، أحب أن يأتيني إلهام الكتابة فيجد كل شيء مرتبا، أحذية أطفالي في خزانة الأحذية حتى أن خطر للإلهام في لحظة ضجر أن يدفعني لتفقدها وجدتها مرتبة كل فردة حذاء ملاصقة لأختها، الصالون يبدو مريحا مستعدا لاستقبال شيطان الشعر، آنية الزهر في مكانها وإن خلت من الأزهار، سلسلة المفاتيح معلقة بجانب الباب يتأرجح منها قلب رُسم عليه علم تونس. هدوء تام في الشقة. أطفالي جعلوا ليلهم نهارا يسهرون بين هواتفهم وحواسيبهم، وجعلوا نهارهم ليلا يغطون في نوم عميق. كل هذا في صالحي، كل ما فاتني سأعوضه الآن وهذه فرصتي فعلا.

شيء في قلبي - يخصني وحدي - يقول إنّ هذه الكورونا يمكن أن تكون صديقتي، فهي وفرت لي ما لم يوفره لي زوجي، الذي لا يكلف نفسه القليل من أعباء الحياة، لأنشغل قليلا بالكتابة. ولم توفره لي الدولة التي لم تمنحني امتيازا صغيرا يجعلني أتفرغ قليلا للكتابة، ولم يوفره لي أطفالي الذين لا تنتهي طلباتهم التي تعوقني كثيرا عن الكتابة. كل الوقت الذي كنتُ أختلسه للأدب كان يجعلني ألهث خلف فكرة حتى لا تضيع وكثيرا ما ضاعت مني أفكار وألهث خلف اللغة حتى لا تتلاشى مني ويحدث فعلا أن تخذلني. أعتبر الكتابة معجزة حقيقية بالنسبة إلى امرأة تجدّ في عملها، وملتزمة بأعباء العائلة وفواتير الحياة وبارّة بأبنائها ولا تستطيع توفير ثمن خدمات معينة منزلية.

تطل الكورونا بوجهها البشع تحمل الموت للعالم وتمنح حياة أخرى لامرأة مثلي تتنفس الكتابة. كنت دائما أغبط الرجال الذين يجدون وقتا غزيرا ينفقونه في الجلوس على المقاهي. وأمقت النّساء اللآتي يهدرن الكثير من الوقت أمام المسلسلات التركية وبرامج الشو وهن يقزقزن اللب ويرتشفن الشاي.. الآن الكورونا تمنحني هدية لا تقدر، كل الوقت أصبح ملكي، لن أخرج للشارع وسألتزم بالحجر الصحي كمواطنة صالحة في دولة فاسدة.

من أجل أن أستثمر وقتي جيدا كان يجب أن أنظم يومي سأخصص الصباح للكتابة ثم هدنة تكون مع فيلم وفي المساء أقرأ رواية، حتى أنّني حافظت على منبه الساعة يوقظني باكرا كالعادة لكن هذه المرة لن أستيقظ مثل شخصية كسولة في رواية فاشلة فأهرع إلى شؤون البيت الصباحية وألهث في اتجاه العمل حتى لا أتأخر، الآن أستيقظ باكرا وأفتح عيني على نصوصي ألتقط أفكاري بهدوء وأعيش حياتي التي أحبها.

مرت الأيام الأولى من الحجر الصحي على أحسن ما يرام، أتابع ما يحصل خارج بيتي من التلفزيون فكأني أنظر إلى كوكب آخر أراه يتداعى والناس في العالم في هلع من أعداد الموتى والمصابين وأنا في كوكب آخر منغمسة في مقالة ومنشغلة برواية ومستمتعة بأفلام اخترت جميعها بدقة.. تعمدت أن لا أتواصل مع الأهل والأصدقاء، لم أكن أحب من يشوّش عليّ هذا النسق الذي اخترته وصالحني مع ذاتي.

في الأيام الأولى للحجر الصحي نجحت في قراءة روايتين ومشاهدة خمسة أفلام وبدأت في كتابة مقالة نقدية، كانت الحصيلة جيدة رغم أني لاحظت أن الأفلام كان لها نصيب أوفر من وقتي بما يعني أنّني كنت أميل إلى تقبّل النشاط الذي يتطلب مني جهدا أقل، ربما جئت الحجر الصحي مُنهكة من نسق حياة لا يرحم، ربما هناك جزء مني لم يطمئن فعلا للكورونا التي بدأت مسعورة وكأنها في مهمة انتقامية من كل البشر.

كنت منشغلة بحياتي الجديدة ثم فعلتُ بنفسي ما لا يفعله العدو بعدوّه..

لا أدري لماذا تهديني الكورونا وقتا ثمينا ورغم ذلك أجلب النكد لنفسي؟

جلست أمام التلفزيون وتابعت الأخبار بتركيز ما فعلته الكورونا هذا الكائن الضئيل جدا والخاوي مثل فقاعة وصُعقت، هالني عدد ضحاياها الكثير جدا، منهم من جعلته جثة متعفنة لا يليق بها سوى الحرق والرمي في قبر جماعي ومنهم من جعلته جثة يتنفس خلف الأبواب المغلقة يتابع زحفها بقلب واجف وعينين زائغتين.

هل يمكن لكائن مجهري أن يفعل كل هذا بالعالم؟

كانت أعداد ضحاياها في تزايد مريع والعالم يتراجع في كل مرة أمام زحفها الكاسح ويقف عاجزا عن مواجهتها. يبدو أنّ الكورونا صديقة

ميموزا العراوي

قاتلة توفّر لي الوقت لأكتب لكنها أيضا توفر الموت للجميع وهي لا تميز في ذلك بين الناس ولا بين الدول. كانت الكورونا التي غيّرت نسق الحياة في بلادي وفرضت قوانينها على الناس من حولي، تهددني أيضا فهي يمكن أن تدخل بيتي من خلال جلسة نميمة مع جارتي أو مصافحة لصديق قديم أو قبلة على خد ابن الجيران، يمكن أن تُزرع في جسدي وأنا أطل من شرفتي على السماء لأتأكد أنها لم تستبدل لونها بتأثير من هذا الوباء القاتل كما يمكن أن تقتحم بيتي من ثقب الباب.. الوقت الذي أهدته إليّ واعتبرتُه غنيمة كانت قد بثت فيه من سمها، لم يكن لهذه القاتلة المتسلسلة والغادرة أن تكون صديقتي..

منذ أن تأكدت أنّ هذا الوباء الفتاك لا يأتي منه إلاّ الشر وأنه عدو للإنسان تلاشت سعادتي مثل فقاعة الصابون وتسرب لي الضجر، لم أستطع أن أنهي رواية "إحدى عشرة دقيقة" لباولو كويلو توقفت في وسط الرواية وتركت ماريا في تجربة حب غامضة مع رالف تشتهيه ولا تهمّ به ويتوق أن يدخل فيها ولا يفعل، كانت الأحداث في أوجها تجعل كل قارئ يتوق إلى معرفة كيف ستكون نهاية هذا الحب الذي يجمع بين رجل ومومس، هذه تجربة حب لا تشبه غيرها هل يمكن لمومس أن تحب رجلا ولا تمنحه جسدها وهل يمكن لرجل أن يعشق مومسا ولا يمد لها شهوته؟

كنتُ أقرأ بلهفة شديدة وفي ذهني نهايات مختلفة لرحلة ماريا في عالم الجنس ثم فجأة وقفت الكورونا بيني و بين باولو كويلو..

كنت مصرة أن ألتزم بجدول مطالعاتي ولن يتمكن مني الضجر، ذهبتُ إلى رواية علاء الأسواني "جمهورية كأن" ووصلت إلى منتصفها، بدت الرواية تضج بالحياة مشوقة كثيرا وممتعة جدا. ولا أدري لماذا لم أستطع أيضا أن أنهيها، كنتُ أحب أن أعرف ماذا سيحصل لأشرف ويصا الذي غيّرت الثورة تفكيره وبدّلت حياته كليا فترك الرتابة التي كان يعيشها واندفع بجموح إلى جسد خادمته إكرام التي أصبحت حبيبته كما اندفع إلى شباب الثورة الذين كان يراهم مجموعة من الفاشلين فأصبحوا بالنسبة إليه صنّاع الحرية، كان كل شيء يتغير في حياة أشرف ويصا وكنت أحب أن أقرأ النهاية التي اختارها له الروائي، ثم أصابني فتور.. مرة أخرى وقفت الكورونا بيني وبين علاء الأسواني.

قلتُ لا بأس لن أتراجع عن جدول مشاغلي الأدبية. في ذلك الوقت، أرسل إليّ الشاعر المصري سمير درويش ديوانه الجديد "يكيّف جرائمه على نحو رومنطيقي" أعجبني العنوان وشدتني قصائده التي قُدّت بمهارة وشعرية عالية وتقدمت في مقالتي قليلا، انتهيت من العتبات الأولى وكنت قد انطلقت في تحليل المشهدية السينمائية التي كتب بها الشاعر قصائده عندما أصابني الفتور الشديد، وتأكدت أن الكورونا تقف بيني وبين سمير درويش.

تسرب الضجر أيضا إلى الأفلام فلم يعد يروقني أيّ منها، لم تعد تشدني أفلام بصيتها العالمي فذهبت إلى أفلام لممثلين أحبهم أستمتع بأدوارهم اللافتة وبملامحهم التي تغريني لكن لا دينزل واشنطن ولا ليونادو دي كابريو ولا ريشارد غير استطاعوا أن يشدوني كعادتهم، وجدت نفسي أتأمل ملامح وجوههم التي أحبها ولم يعد يصلني سحرهم الذي يأسرني، يبدو أن الكورونا تقف بيني وبين الرجال الذين أحبهم أيضا.

قلت لا بأس قد يكون الضجر عاديا، لأغيّر وجهتي نحو الأفلام الوثائقية التي أحبها خاصة التي تتعلق بعالم الحيوان والشعوب البعيدة التي اختارت أن تكون في أماكن قصية تعيش حياتها بهدوء بعيدا عن ضجيج العالم.. لم أوفق إلى نتيجة أفضل، ووجدت وقتي تلتهمه قنوات الأخبار وهي تأتي في كل مرة بأرقام جديدة مفزعة عن ضحايا الكورونا القاتلة..

كل الوقت الذي أصبح ملكي واعتبرته غنيمة حرب نفثت فيه الكورونا سمومها فأصبح ملطخا بدماء ضحاياها في كل مكان، تسرب الضجر في حياتي ولم أعد أستمتع بشيء. أصبحت الكورونا تقف بيني وبين الحياة.

لم تعد كورونا صديقتي، أسقطتُ عنها ثوب الصداقة ورأيتها وحشا قاتلا لا يرحم، وهالني الأمر تقول لي ابنتي "لقد عدّوا في تونس منطقتي البحيرة والمرسى من الأمكنة الموبوءة" وضربت على صدري "يا إلهي هل زحفت الكورونا على تلك الضواحي التي أحبها؟ هل تراها جلست في مقهاي المعتاد في البحيرة؟ هل ولغت في فنجان القهوة التي أصر على

النادلة أن تقدمه لي؟ هل أعجبها التمشي على كورنيش المرسى بهدوء وهي تمتع نظرها بالبحر الهادئ وبالعشاق المنتشرين في كل مكان؟ هل تراها ربتت على خد بائع الورد الطفل الذي يتخلل الحشود وفي قبضته الصغيرة حزمة من الورود الجميلة؟ يا إلهي عندما تتجول الكورونا في البحيرة يعني أنها اقتحمت عوالمي ودنست أماكني المفضلة، يعني أنها تترك أظافرها في كل مكان أحبه ثم إنها تقترب من بيتي.. واشتد فزعي.

الكورونا وتنين هوبز

كان الضجر قد تسلل لحياتي غير أن عقلي لا يريد أن يصمت، عندما كانت حكومات الغرب الكافر تقدم لشعوبها امتيازات جبائيه ومساعدات اقتصادية لتغريهم بالبقاء في البيت ريثما تتكفل هي بمحاربة الكورونا يدا بيد مع العلماء في مخابرهم، كانت تونس تفتح نشاطها الأول لمواجهة هذا الوباء بحفل تليتون لتقديم مساعدات مالية للدولة، في الغرب الكافر الدول تساعد الشعوب، في بلادي التي قامت بثورة تسلقها تجار الدين الشعب هو الذي يساعد الدولة.

كان التيليتون يعرض في بث موحد عبر كل القنوات التونسية لم أشأ أن أتابع هذه المهزلة، التي أجدها فرصة من نظام دكتاتوري يدعي الثورة وصنع له لحية ومسبحة لتكون قناعا يخفي وجها مخيفا لمصاص الدماء لشعب مسكين استنزفته أوهام الحرية والعدالة الاجتماعية، لا أعتقد أني أغالي وأنا أعتبر كل هذه الحكومات الفاشلة في تونس التي تداولت على الشعب أشد دكتاتورية من نظام بن علي المستبد، تقدم نفسها خَمَلا وديعا لشعب جاهل في أغلبه يصدق تجار الدين ويصفق لمن يدفع له حتى ينتخبه ويبرر لمغتصبه إن كان يحمل كدمة صلاة على جبينه.

كانت الكورونا قد بدأت تعمل أنيابها في البلاد وأنا أرى الوضع مأساويا لشعب أعزل بلا دولة تحميه وبلا رب يرأف به، بدا لي أن الأمر كثير جدا على شعب يواجه فايروسا ضئيلا جدا اسمه الكورونا وفايروسا ضخما جدا اسمه الدولة، وتذكرت توماس هوبز كم بدا دقيقا في وصف "التنين".

خارج بيتي الحرب محتدمة والصراع شديد بين العالم مدججا بكل أسلحته العلمية وبين كائن ضئيل جدا لا يكاد يُرى خاو مثل فقاعة صابون، تم إقفال كل المساجد والكنائس والمعابد التي لم يكن فيها إله يحمي مؤمنيه من الكورونا ولأول مرة يشاهد الجميع أماكن مقدسة كانت محتشدة بالمصلين أصبحت فارغة وموحشة وبلا معنى، في المقابل كانت الحركة على قدم وساق في مخابر العلماء والتعاون شديد فيما بينهم من ينقذ البشرية ويحرر شعوب العالم التي سجنت في بيوتها ويدخل التاريخ من باب العلم ويعيد الحياة على هذه الأرض.

الكورونا والكلب الأسود

الضجر الذي تسلل لي يتمدد في بيتي ويستحوذ تدرجيا على كل الأماكن الصغيرة التي أتحرك فيها، ينتابني الضجر في كل فكرة أعالجها ولا أجدها صالحة لأي شيء لذلك كان سهل علي أن أرميها في سلة المهملات التي امتلأت بهواجسي وقلقي وفاضت بلا معنى.. تدريجيا تناقصت الأفكار التي تردني.. وجدت نفسي أدور في بيتي، تضيق بي غرفتي فأذهب إلى الصالون، ويضيق بي الصالون فألتجئ إلى غرف أطفالي النيام. أهرع إلى المطبخ الذي أصبح ملاذي، أطبخ أكلات وأجرب وصفات أخرى، وأشغل نفسي بغسل المواعين وتنضيدها بل قمتُ بتغيير ديكور المطبخ واستبدال ستائره.. تحول المطبخ الذي كان أحد أهم قيودي إلى مكاني المفضل وما يتبقى من الوقت أهدره أمام التلفزيون أبحث عن برامج تسلية تافهة وأهدر ما تبقى من الوقت في الفايسبوك أقتفي أثر الإشاعات التي تكاثرت والخرافات التي تمددت وكثرت الرسائل التي تصلني والتي تختم عادة بعبارة "أرسلها إلى عشرة أشخاص تنال أجرا عظيما".

الضجر الذي تسرب إليّ جعل حياتي بلا معنى أتى معه بقلق شديد يسيطر عليّ، لم يكن قلق إبداعي يمكن أن يتحول إلى نصوص متوهّجة بل قلق عبثي يشعرني بلا معنى للحياة، لذلك الوقت الذي كنتُ لا أكاد أظفر به واعتبرته هدية الكورونا وغنيمتي التي لا تقدر بثمن الآن يتحول إلى عدوي..

الكورونا خارج بيتي تهددني في كل حين والفراغ يملأ عالمي الصغير، ويعيدني إلى مربع الاكتئاب ذلك الكلب الأسود الذي يتربّص بي في ركن مهمل من حياتي ومستعد أن ينقض عليّ وقد اعتاد لحمي كثيرا.

صمت ثقيل يخيم على بيتي، أطل من خلف ستار النافذة التي لم أعد أفتحها على الشارع الكبير الذي فقد حيويته واستسلم للخوف يسري بين الناس ويفيض من البيوت وينتشر في الشوارع، أدور في بيتي وحيدة.. غيّرت الكورونا نسق حياتي، أصبح البيت جزيرة معزولة عن العالم وتحول كل فرد فيه إلى كائن وحيد.. ثمة شيء بصدد التغير في بيتي وفي العالم، الكائن المجهري استطاع أن ينازل الإنسان وهو في كامل جبروته وبكل غروره ويصرعه وتذكرت فقاعات الصابون في المغطس، فرضت الكورونا قوانينها في الحياة وألزمت كل البشر بتغيير أفكارهم وعاداتهم وبعثرت أيامهم، ولأول مرة أخرى في التاريخ تجعل الكورونا كل البشر لهم حلم واحد: الحرية.

الكورونا والسجن

ثمة شيء يحدث في بيتي وفي العالم؟

قطعت عليّ جارتي توجسي وهي تطل من نافذتها وتهتف بي "بخري البيت بالملح، لن تدخل الكورونا كليا إن شاء الله" وتضيف بصوت واثق "هذه مجرّبة" وعندما لا أرد عليها تترك النافذة وهي تتمتم لعلها تدعو الله أن يخلصها من جارة لا تصدق أن الملح يمنع الكورونا. في تلك اللحظة، كنت ألعن حظي الذي اختار لي من اثني عشر مليونا من البشر في تونس جارة تؤمن أن الملح يمنع الكورونا وأعود للدوران في بيتي، سجني الصغير.

كنتُ قبل الكورونا ألعن البلاد وأشبهها دائما بالسجن الكبير الذي نتحرك فيه وفق تعليمات الحكومات الدكتاتورية التي تداولت علينا والتي تخضع بدورها لسيستام منغلق لا يعترف بالإنسان ولا يهتم بالثقافة الا عند الحملات الانتخابية، كنت ألعن هذه البلاد ولا أجد مساحة حرية إلا داخل نصوصي فيها أحلم وأرقص وأنشج وأضحك وأنتشي..

ألعن البلاد سجني الكبير، وأتجول بسيارتي هنا وهناك، أجلس في مقهى صغير على الشاطئ، أرتشف قهوتي بهدوء وألهي نفسي بسرب النوارس تحلق عاليا، بعاشقين متلاصقين يتهامسان في ركن من المقهى، وأفكر هل يمكن أن أدخلهما إلى قصيدتي فأجعله يحضنها وتقبله وربما أتمادى قليلا فأكسوه ثياب الجرأة وأنزع عنها ثياب الخجل وأجعلهما يرتعشان من اللذة ويصلني فحيح الرغبة وهي تبحث عن منفذ في القصيدة لتستعيد أنفاسها؟

ألعن البلاد سجني الكبير، وأمرّ على أشهر محل للمرطبات في سيدي رزيق، أضرب عرض الحائط بقوانين الريجيم وأشتري للطفلة التي تسكنني كعكا محلى أقضمه بتأن وأرتشف قهوتي بهدوء وأفكر كيف استطاع هيمنغواي أن يجعل رحلة صيد واحدة رواية مذهلة دون أن يحتاج لامرأة تتزين من أجل حبيبها وتنتظره كل ليلة في زوايا الرواية؟ كيف استطاع أن يجعل رجلا عجوزا بطلا يأسر القراء دون أن يشير إلى ماضيه الحافل بالنساء ودون أن يجعله يشرب كأس نبيذ أو يغني لصبية تمرّ به؟

ألعن البلاد سجني الكبير، وأعدو في الملعب الرياضي أحمي جسمي من الكوليستيرول وأحوله إلى جسد يضج بالحياة، يكفي أن أقوم بأربع دورات حول الملعب الرياضي حتى أحقق ما هو مطلوب مني، أذكر أني عندما بدأت عادة التريّض في الملعب أحصي عدد الدورات بأصابعي ولأني أنسى كثيرا وتختلط عليّ الأصابع فقد عوضتها بحصى، في كل دورة أضع حصاة عند مدخل الملعب ولأنه يحدث كثيرا أن تدوسها أرجل الرياضيين فقد استبدلتها بعاشقين أختارهما في كل مرة، يمتعني أن أحصي الدورات التي أقوم بها وفق وضعية الجلوس التي يكونان عليها.

أذكر في زيارتي الأخيرة للمعلب في الدورة الأولى ركضا حول الملعب أن كان العاشقان يجلسان بهدوء يتحدثان بصوت بدا لي مرتفعا حتى أنه يمكن لمن يجلس على المقعد المجاور لهما أن يعرف أنه يحدثها عن اهتمامه بنظافة غرفته وتقديره الزائد لأخواته البنات و سيلاحظ أنّ العاشق يتعمد في كل مرة أن يقارن نفسه بغيره من الشباب الطائش فيكون دائما أفضلهم، في الدورة الثانية لي ركضا حول الملعب كان قد مال عليها قليلا وأراحت رأسها على صدره وبسهولة يمكن أن ألاحظ أن حديثهما قد تحول إلى همس، في الدورة الثالثة كانا قد التصقا أكثر ببعضهما بحيث يبدوان عن بعد وكأنهما جسد واحد وهذا ما يجعلك تغض البصر عنهما، في الدورة الرابعة لم أجدهما يبدو أنّهما اختارا ركنا منزويا لقبلات محمومة..

ألعن البلاد سجني الكبير، وأستمتع كثيرا بعزلتي التي اخترتها، بعيدا عن المشهد الأدبي التونسي الذي يعج بالضجيج، بعيدا عن الشللية القاتلة التي يتحكّم فيها كهنة من الكتبة يعتقدون أنهم آلهة ولا يعلمون أنهم من ورق، بعيدا عن مهاتراتهم ومدائح يكيلونها لبعضهم، بعيدا عن كل ما يوجع الرأس.. هذه العزلة التي اخترتها وأحبها وأشتاق إليها الآن.

ألعن البلاد سجني الكبير، ألعنها وأنا أرتشف قهوتي صباحا، ألعنها وأنا أهم بالنوم ليلا، ألعنها في قصائدي وأشتمها في نصوصي وأحلم بيوم أغادرها فيه إلى الأبد.

ألعن البلاد سجني الكبير، وأدور في بيتي.. السجن الجديد.

أدور في بيتي سجني الصغير، ولا أدري كيف أواجه الضجر الذي تملّكني فجعلني أضيق بالوقت الكثير الذي خلت أني أملكه وأفقدني معنى الأشياء، لم يعد للروايات التي أقرأها معنى ولا للدواوين التي أتصفحها معنى ولا للأفلام التي اختارها معنى..

أدور في بيتي سجني الصغير، ولا أدري ماذا أفعل بنفسي وبالخوف الذي تسلل إليّ من ثقب الباب، الكورونا في الخارج تترصدني وأنا داخل البيت أرتجف في يدي قارورة المعقّم أمسح على كل الأماكن التي قد تتسلل إليها الكورونا التي أحدس أنها تسخر مني وتتربص بعائلتي.

أدور في بيتي سجني الصغير، ولا أدري ماذا أفعل بالكلب الأسود الذي بدأ يتململ ويستغل الوحدة القاسية التي أصبحت عليها ليطل برأسه كأنه يطمئن لوجودي وعلى يقين أني وليمته القادمة التي عليه أن يزدردها بهدوء، ينقبض قلبي ولا أفهم لماذا اختار علماء النفس أن يصفوا الاكتئاب بالكلب الأسود حتى أني صرت أكره الكلاب بكل أنواعها.. وألعن الكورونا التي قوّضت حياتي البائسة فجعلتها أكثر بؤسا أخذت مني عزلتي التي اخترتها بوعي تام وفرضت عليّ وحدة قاتلة وحوّلت بيتي إلى سجن صغير داخل سجن كبير.

الكورونا بين العزلة والوحدة

في الخارج ترتفع أرقام مخيفة عن ضحايا الكورونا، يوميا أكثر من ست مائة قتيل في إيطاليا ومثلها في إسبانيا وينقبض قلبي، في تونس بدأوا يفصحون عن أرقام مفزعة تتصاعد ومعها تنتشر فضائح عن تهاون الدولة في مواجهة الوباء القاتل، يستبدّ بي الخوف وأشعر أني وحيدة في بيتي، يغط أطفالي في نوم عميق وينشغل زوجي بشتم الكفار وتتمعّش الدولة من الكورونا، من جهة تطلب المزيد من التبرع لمواجهة الوباء ومن جهة أخرى يرفعون في أسعار مواد ضرورية للحياة..

أشعر أني وحيدة في العالم..

يشتد بي الضجر وتتناسل الأسئلة في داخلي لماذا يحدث كل هذا؟ هل تعبت الأرض من غطرسة الإنسان الذي تمادى في غروره وأرادت أن تضع لجنونه حدا؟ هل تعبت السماء من صراخ المظلومين والمنسيين والمهمّشين في الأرض وتهيئ نفسها لتسقط فتسحق الجميع؟

كيف خطر ببال هذا الكائن المجهري الذي لا يُرى أن يضع حدا لهذه الحروب المنتشرة في العالم تحت مسمّيات عديدة وأعلن حربه ضد

الإنسان وانتصر عليه؟

هل فهمت الكورونا أنه يجب فعلا أن تضع حدا للعولمة والفوضى ودكتاتورية الدول الديمقراطية في استغلالها البشع للشعوب المنسية؟ هل التاريخ تعب من الزيف والعنف فأراد أن يتوقف قليلا ويمنح الأرض فرصة خلق توازن جديد تكون فيه الكورونا نقطة تمفصل فنتحدث في التاريخ القادم عما قبل زمن الكورونا وما بعده..

أعلم أني في سجني الصغير ستشتد وحدتي ويقتاتني الضجر وابتلعني الفراغ وسينفرد بي الكلب الأسود، وأعلم أنّي في السجن الكبير الذي اسمه الوطن ستكثر الخرافة وتزدهر تجارة الدين وسيفرّخ الجهل أكثر، أما في الدول العظمى فليس من عادة الإنسان هناك أن يرتدع سينسى ما فعلت به الكورونا ويواصل في مجتمع الرفاهة رعونته وتسلطه وتدميره للأرض واستخفافه بغيره من البشر.

لا أحب أن أتحدث عن سبل الخلاص، لا يروقني رجال الدين ولا أحب أن أكون مثلهم أقدم النصائح الجوفاء لكن كامرأة تتنفس الحبر سأراهن دائما على أنّ نجاتي من شراسة الكلب الأسود لا تكون إلاّ بالمزيد من الإيمان بالفن والاعتقاد في الحياة والثقة بالإنسان الذي يسكن نصوصي. وبما أني رهينة السجن الكبير الذي اسمه الوطن لكن هل ستُمنح قيمة للتربية والتعليم والثقافة وترفع من ميزانياتها لدعم الحياة في مقابل الكف عن نهب خيرات البلاد حتى تندثر الكلاب السوداء من حياة الكتّاب وتحلّق العصافير والفراشات والأحلام الجميلة؟

لا أعتقد ذلك، في الحقيقة يهمّني طرح مثل هذه الأسئلة لكن لا تعنيني إجابتها، فقط أنا مطالبة أن أنهي هذا النص وبعدها سأعد فنجان قهوة قليلة السكر، ليذهب العالم إلى الجحيم عليّ أن أفكر بجدية وأجيب عن السؤال الوحيد الذي يعنيني مباشرة كيف أخفف قليلا من عزلتي القاتلة وأحولها إلى وحدة ممكنة؟

عليّ أن أعترف الآن أنّني عندما كنت في المغطس، فقاعات الصابون الهشة والخاوية انتصرت عليّ فعلا، رغم ذلك أفكر أن أملأ المغطس بالماء وأجعل أنفي يبرز مثل جبل صغير ولن أعبأ مستقبلا بالفقاعات الخاوية تتلاشى لوحدها، قبل ذلك عليّ أن أتوقف عن الكتابة الآن، ما معنى أن يفرض كائن مجهري ضئيل جدا لا يكاد يُرى سلطته عليّ فأكتب عنه؟ لم يعد يعنيني هذا النص لذلك عليّ أن أنهيه الآن وريثما يمتلئ المغطس بالماء أمسك بزجاجة المعقم أمسح مقابض الأبواب وظهر الكراسي وسطح الطاولات حتى لا تدخل الكورونا سجني الصغير.

كاتبة من تونس

ميموزا العراوي

ملف

الخروج من الجنة

خيري الذهبي

1

ستداهمك الطمأنينة وأنت تجد نفسك مستهدفاً، من قبل وسائل الإعلام والتلفزيونات ووسائل التواصل الاجتماعي، والأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية، وكل تهمتك أنك تجاوزت السبعين من عمرك، لا أعرف ما الذي يجب عليّ أن أفعله، كل شيء موجه ضدنا نحن الحكماء في السن، يقولون بأن مناعتنا ضعيفة، هبه سأقهر كورونا كما قهرت كل خصومي.. فلقد اعتدت المعارك مع المجهول، بل وأنا معصوب العينين.

أنا في الأصل لم أكن أغادر المنزل إلا للمشي الذي أعشقه، هو هوايتي التي لم تفارقني منذ تعلمت المشي، حيث انطلقت أشعل طرقات الشام القديمة بحثاً عن نفسي، هارباً من شيء لا أعرف ما هو، ولاهثاً نحو أفق يبدو قريباً، ولا زلت أمشي يومياً باحثاً عنها حتى ظهر لنا الرفيق الصيني كورونا، الذي منعني عن هذا، ومع الحجر الذي أعيشه في جميع المنازل التي سكنتها منذ خروجي من الرحم الدمشقي، وأنا أمشي وأقرأ، وأقرأ وأكتب، وكل ما عدا ذلك لا أتذكره، هي تفاصيل..

2

في الحقيقة، أعدت تقييم العلاقة مع الأسرة التي هي مدماك حياتي، مجدداً بعد (الخروج العظيم) وأقصد بالخروج العظيم، هو تهجيرنا ونحن قدماء سكان العالم من بيوتنا، أعدت اكتشاف العلاقة معهم، هنالك تعاضد ما يظهر في التفاصيل، هنالك حنان وقوة ورغبة في الاستمرار تملكها نساء العائلة، والنساء عادة أقوى من الرجال في مثل هذا النوع من المحن، الرجال يحتاجون عشاً كي يعودوا إليه، بينما النساء هن من يبنين ذلك العش، تعلمت ذلك من عشقي لتربية الطيور، بالمناسبة أنا أرغب في الهجرة إلى أوروبا فقط كي أنتسب لجمعيات مراقبة الطيور، ولعلها تكون هوايتي الجديدة..

إذن نحن عالقون في مركب تتلاطم به الأمواج، نتشاجر ونتصالح ونضحك ونأكل وأسمعهم يهاتفون بعضهم البعض، ويضحكون ويبكون من مرارة البعد، زوجتي سميرة، تشتاق لعائلتها ولأختها وجيرانها، وللحيّ الذي كنا فيه، وهي تدمع في الأسبوع مرة على الأقل، بينما ذلك يغضبني، لا أحب الحنين، أفكر دائماً في المضي قدماً..

3

كيف أمضي الوقت؟

في الحقيقة أنا رجل روتين بامتياز، ربما لم يتغير روتيني منذ أكثر من نصف قرن، أنهض باكراً جداً تقريباً في الخامسة صباحاً، وأشرب نسكافيه مخففة بالحليب، ومن ثم كنت أنطلق نحو المشي الصباحي، (الآن أمارس القليل من الرياضة، حسب نصائح الأطباء) ومنه أعود للفطور، ومن ثم القليل من الأخبار، وأبدأ بالعمل، الساعات الصباحية هي ساعات جوهرية بالنسبة إلى عملي، فيها أنجز الكثير، أحياناً كتابة وأحايين في القراءة، أخرج بعدها إلى حديقة البيت الصغيرة، وأتابع شؤون ومشاكل وقضايا الزهور والدوالي والشجيرات التي غرستها، (لقد فقدت منذ الخروج العظيم، جنتي، جنينتي) وأراقب ما تبقّى من طيور بلاد الشام، وربما أحمّلها السلام، لو قدّر لي أن أقبلها لفعلت، فهي غير معنية بالكورونا، بعدها أعود للروتين المتعلق بالغداء والراحة والهاتف اليومي من فارس، نتناقش عن الكتب وعن الأدب وعمّا أكتب، هو في فرنسا، وأنا في الأردن، لقد أشعرني كورونا بالحجز، أرجعني للأيام السورية، حينما كنت أشعر أن هناك شيئا ما خفيا، يعيق حريتي.

بمعنى أوسع كورونا أعاد الإنسان إلى الحجر، كي يسمح لباقي المخلوقات بالتنفس، والحياة.

5 - 4

الفايروس اللعين، أقعدنا، لم يشعرني بالضعف، بقدر ما أشعرني بأن البشرية ضعيفة، حيث لم أشعر بأنني مهدد لأن هذا الشعور ليس جديداً عليّ، طوال عمري وأنا أشعر أنني مهدد، من قبل جهات خفية، تتربص بي، لم يعنني هذا الأمر ولن يعنيني، ولن يؤثّر بي، فالأمر واضح بالنسبة إليّ والطريق واضح، والقدر محتوم.. وأنا مستمر حتى إنجاز ما أرغب في إنجازه.. كورونا يعيق من يعتمد على العولمة ومن يتكئ على النظام العالمي الجديد، أنا أعيش في عالمي، في فقاعتي الأدبية، لا حدود في مملكتي الخاصة، من يرغب بالدخول عليه إبراز أوراق اعتماد أخلاقية، وفكرية..

فؤاد حمدي

6

العزلة التي أعيشها هي من تحدد مراجعتي لنفسي، لقد بدأت مرحلة جديدة من حياتي من لحظة خروجي من الشام - سوريا، ومنذ ذلك اليوم وأنا في مراجعة مستمرة مع نفسي، ومع الآخر ومع الحياة، مع كتابتي ومع القراء، مع سوريا ومع المجهول، الفايروس كورونا جعل الأمور أوضح، وربما أسرع، هو يسرّع قصص الخيال العلمي، لم أتوقع أن تكون هذه نهاية البشرية، ربما لن تكون مع الكوفيد، ولكنها ستكون مع أبناء عمومته بعد فترة، من سيفنينا كبشر هو طمعنا وجشعنا، الكوكب سيرد كل إساءاتنا، ونحن من سندفع ثمن الجشع العالمي، من الصين إلى روسيا إلى أميركا. نحن المتفرجون، ودافعوا الضرائب، ووقود الأوبئة.

فؤاد حمدي

7

ذكّرني الوباء، بقصة "1984" لجورج أورويل، ربما كان الأخ الأكبر هو هذا الفايروس، الذي يحدد لنا ساعات مشينا وخروجنا وتبضعنا، يحدد لنا هل نصافح أم لا، هل نقبل بعضنا أم لا، ربما هذا الأمر سيكون صعباً على العشاق، وعلى المتهورين، الأخ الأكبر يتحكم بنا، ونحن نطيع، بلا حول ولا قوة، أنجرف في تلك اللحظة القطيعية مع البشرية، سمعت قصة عن فاشيين جدد يكحون أمام العجائز في أميركا وإيطاليا، وهم يضحكون، ربما لن تكون نهاية العالم مع كورونا، بل ستكون مع هؤلاء إن سيطروا على العالم..

***

نص متخيل

في زمان ما ومضى، لم أكن أتخيل نهاية العالم، كما كان يصورها لنا رجال الدين المسلمين والمسيحيين في دمشق الشام، بأننا سنحترق في الجحيم، والجيدون منّا سيذهبون إلى الجنة، بل كنت أتخيلها بشكل أجمل وأبسط، نهاية الحياة في مدينة مثل دمشق لا تعني شيئاً، لأننا نعيش فعلياً في الجنة، ومن يعش في الجنة لا بد أنه إنسان جيد، أن تعيش في الجنة يعني أن تختار نهايتك، وأن تختفي بنفس البساطة التي أتيت بها، ربما مثل أيمن، وسأحثكم عن أيمن بسرعة..

كان أيمن يهرب من جده، القاسي الذي لم يكن يرحمه مطلقاً حينما يغلط، كان يجلده على قدميه أمام الناس، دكان جد أيمن كان في منطقة الحميدية، في أحد تفرّعاتها المخفية، فيما يسمونه "سوق اتفضّلي"، ولكن أيمن كان يأبى الضرب من جده، رغم أنه كان يتلقاه، ولكن حساسيته كانت من أن الضرب قائم في السوق وأمام الناس، حيث لا احترام له، وبالفعل بعد كل مرة يغلط بها أيمن، كان يركض، ويركض، هارباً من السوق إلى الأحياء، نحو الغوطة، حيث يبقى سويعات ليعود بعدها وتعاد الكرة.

في إحدى المرات، كسر أيمن إبريق اللبن، وأيمن هذا كان أحمق قليلاً ولكنه حساس، فاستشعر غضب جده، فركض مجدداً، وركض وركض، وكانت الدنيا صيفاً قائظاً، بدأ أهل السوق يضحكون من هروب أيمن، ومن وعيد جده بصوته العالي إن عاد..

ركض أيمن، وركض، ودمعه يسيل مع الريح، حتى توقف في الغوطة، قرب فرع من فروع بردى، تمشى جيئة وذهاباً، وشعر بعدم جدوى عودته، فجده ينتظر، شعر بالحر، فخلع ثيابه، وقرر أن يسبح، ولربما قرر أن يختفي، عائداً من المكان الذي أتى منه.. إلى الجنة حيث الزهر والغوطة والعصافير، وسمك النهر، سبح عائداً إلى هناك، فهو لا يريد أن يعود أبداً إلى الجحيم مجدداً.

كاتب من سوريا مقيم في عمان

فؤاد حمدي

ملف

الحياة يا لها من كلمة عزيزة

فاروق يوسف

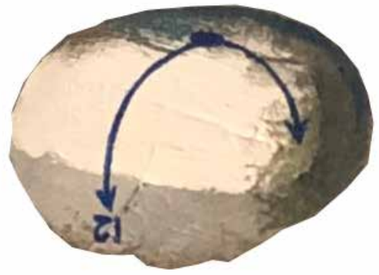

”يوما ما سيختفي“. أما أن يُهزم أو يُقتل فذلك ما لا يجرؤ أحد على توقع حدوثه. فذلك الكائن اللامرئي لا بطولة في قتله لأنه ميت. قيامته هي فكرة تشير إلى أن المعادلة البشرية لا تزال في جزء عظيم منها تخضع لقوى خفية. ما حدث كشف عن أن ضعفنا لا يزال قابلا للفتك بنا في أي لحظة. كان صادما أن نتعرف على أنفسنا باعتبارنا كائنات على درجة عظيمة من الهشاشة.

”ليست الحرب متكافئة“ بالرغم من أن خصمنا ضعيف. فهو لا يملك ما نملك من أسلحة في العلم والثقافة والتقنية والاقتصاد والاحتيال والاتصالات. كائن لا يمشي ولا يطير ولا يرى ولا يسمع هزمنا بيسر أسطوري فجعلنا سجناء بيوتنا التي صارت بمثابة القلعة الأخيرة التي صرنا نخشى أن يكون الخصم قد تسلل إليها.

من وراء زجاج النوافذ نتأمّل الفراغ الكوني في محاولة للنظر إلى هواء زفيره ونحن نعرف أنه لا يتنفس. تلك ملهاة تزخرفها المراثي. ولكن العدو أقوى منا. ذلك ما يؤسس لمسار مختلف للأحداث. سيكون عليّ أن أفكر باعتباري أحد الناجين من الكارثة في ما سيكون عليّ أن أفعله في انتظار النهاية. ستُكتب يوميات مَن نجا. ولكن لا أحد يعرف الشخص الذي سيكتبها.

أنا سجين الكتابة. ذلك خبر غير سار لكورونا. لم ينتصر عليّ. منذ أكثر من ثلاثين سنة وأنا أعيش في عزلة الكتابة. ذلك ما توافقت روحي مع جسدي عليه. الكتابة هي اسم آخر للعزلة. ولكن عزلة كورونا هي الهام أيضا. أسئلة المصير تدفع بنا إلى أن نتخطى ذواتنا. البشرية كلها تقيم في كتاب واحد. ذلك كتاب يخطّ كل واحد منا سطره الخاص فيه.

ربما سيشعر مَن نجوا بأنهم كانوا محظوظين بالتجربة.

ذلك ما يدفعني إلى التفاؤل. ستضع البشرية يدها على أخطائها ومواقع ضعفها وأسباب خيانتها وتخاذلها وتجليات كذبها وستكون أقوى وأكثر طهرا وأشد نزاهة. كم نحتاج إلى أن نكون نزيهين ونحن نكتب. ذلك ما كانوا يسمونه في عصر مضى بـ”الصدق الفني“. وهو ما كنا نفسره على أساس ما يتضمنه من حيل لغوية تضفي على العادي صفات خارقة.

في عزلة كورونا تعيد الكتابة النظر في تقنياتها التي لن تخطئ هذه المرة طريقها إلى الإنسان لتنقّب في بشرة جلده بحثا عن تلك اللحظة التي ينطبق فيها منقار عصفور ضائع على صرخة ألم تطلقها نجمة عابرة. لقد تغيرت المفاهيم كلها. ما من شيء في مكانه. لا شيء انتصر على كل شيء. ولا أحد هزم جموعا. كثرة الإنتاج لم تعد نافعة والاستهلاك كشف عن دونيته فيما استعاد المجتمع ثقته بعبقرية أبنائه المتعلمين.

أكتب اليوم بروح جديدة وأنا على يقين من أن البشرية تقف على أعتاب عصر جديد. عصر تُنبذ فيه الحروب وتُركن فيه العقائد بخرافاتها جانبا. إنه العصر الذي يعيد إلى الكتابة مجدها. وإذ أتذكر نوفاليس، الشاعر والفيلسوف الألماني من خلال سطرين هما ”إلى أين نحن ذاهبون؟/دائما إلى البيت“ فأنا أدرك أن البيت ليس سريرا ولا مطبخا ولا حماما ولا خزانة ملابس ولا غرفة استقبال.

البيت الذي عادت إليه البشرية منعاً لانتشار فايروس كورونا هو ورشة عمل مستقبلية. لقد اهتدت البشرية إلى أجمل ما في تقنياتها على المستوى الاجتماعي. الفرد المسلح بقوة الحلم الجماعي الذي لا يمكن التعبير عنه إلا من خلال العمل. لقد صار على البشرية أن تختبر المبادئ باعتبارها دافعا للعمل.

لذلك فقد استعاد الموت صفته باعتباره كذبة.

في عزلة كورونا صارت الحياة في حد ذاتها هدفا.

شاعر وناقد من العراق مقيم في لندن

الوجود قاعة انتظار

حميد زناز

اهتزت الأرض من تحت قدميّ وأنا ألتقي مع ابنتي الصغرى في محطة القطار حيث ذهبت لانتظارها. مرّ أكثر من شهر دون أن أسعد برؤيتها ولمّا عادت من جامعتها كان محرّما عليّ احتضانها وتقبيلها كما كنت أفعل عادة بحرارة.. وقف فايروس كورونا بيننا سدا منيعا. ما أصعب أن تكون مجبرا على ترك مسافة بينك وبين من تحب. ومع ذلك سعدت كثيرا لما أخبرتني في السيارة بأنها ستبقى معنا في البيت طيلة الحجر الذي سنبدأ في احترامه في اليوم الموالي.. بقاء عزيزتي كاميليا في البيت سيعوضني فرحة الاقتراب منها ورسم قبلاتي على جبينها.

منذ حصولها على شهادة البكالوريا وهي في سن السابعة عشرة، لم يسبق أن عاشت في البيت أكثر من أسبوع وها نحن في الأسبوع الثالث معا.. نقرأ معا، نشاهد الأفلام معا، ونمزح في كل الأوقات. اذكرها دائما بمقولتها وهي طفلة صغيرة لا تتجاوز العاشرة. كنا نتحدث عن فكرة مزج الإنسان بالآلة ونتائجه وغيرها من القضايا التي كان يبشر بها العبر-إنسانيون وكانت تلك الأفكار تبدو غريبة ومجنونة آنذاك. أين يمضي هذا العالم؟ قالت. وهو سؤال مطروح بحدة اليوم مع ظهور هذا الفايروس اللعين.

في الحجر تذكرت تلك الجملة الشهيرة التي كانت تكتب في مطلع كل موضوع إنشاء حينما كنا في المرحلة الابتدائية "نهضت باكرا غسلت وجهي بالماء الساخن والصابون وتناولت فطور الصباح..." ويكمل التلميذ حكاية بقية اليوم خارج البيت. أما أنا فقد أصبحت رجلا ماكثا في البيت لا أبرحه إلا لأسباب محددة مرسومة على ورقة عنوانها "تصريح بالخروج".

ربما اقتناعي الكبير بفكرة العزل كوسيلة وحيدة لمكافحة الفايروس اللعين هو ما بعث في روحي الطاقة التي أواجه بها تلك الرغبة الجامحة في الخروج، أنا العاشق لركوب الدراجة الهوائية والتجول في الغابات. هذا الخطر المحدق بنا أعادني إلى الأساسيات، وكأنني اكتشفت فجأة أن ابنتي المولودة هنا بفرنسا لا تتحدث الدارجة الجزائرية وكل أحاديثنا كانت دائما منذ البداية باللغة الفرنسية وتأسّفت فجأة أنني لم أفلح في جعلها تتكلم العربية رغم أنني لم أكلمها هي وأختها الكبرى سارة وأخوهما رفيق إلا بالجزائرية حينما كانوا صغارا. ولكن لغة المولد تتغلب دائما في النهاية على لغة الأم والأب.

سألتني كاميليا في اليوم الثاني من الحجر وابتسامة ساخرة تعلو محيّاها: نحن نعرف بأنك تفضّل تحريق الجثث على الدفن الكلاسيكي. و لكن أنت شخصيا ما وصيتك؟ ضحكت وسألتها هل أنت خائفة على حياتي من الفايروس يا عزيزتي؟ إن متّ هنا في الغرب أوصيكم بحرق جثتي وإن غادرت الحياة في الجزائر لن يكون لي خيار آخر غير أن أدفن ككل الجزائريين بجانب أبي وأمي بمقبرة بلدتي. على الرغم من حياة الحجر وتهديد الفايروس وبعد ابنتي سارة التي تعيش بأميركا اللاتينية ورفيق الساكن في مدينة بعيدة عن مقر سكناي، فأنا مطمئن ومرتاح البال لكونهم أكثر مقاومة لهذا الداء بحكم سنهم. وتلك من حسنات هذا الفايروس الخبيث المطمئنة لقلبي.

ومع كل ما يترتب من تغييرات في برنامجي اليومي ومحدودية المكان الذي أتحرك فيه وحدود حريتي جراء هذا الحجر الضروري، أشعر بأنني في إقامة جبرية ناعمة مقارنة بكل الذين أمضوا جل حياتهم في السجون والمعتقلات العربية الرهيبة. لقد قرأت معظم الشهادات التي نشرها من مرّوا بتلك التجارب الفظيعة والتي ذاقوا فيها ما لا يطاق من التعذيب والتنكيل والإهانة. اطّلاعي مبكرا على ذلك التحمل المقاوم للطغيان كان له الاثر الكبير على نفسيتي وأشعر بأن ذلك ساهم في جعلي قليل التشكي وأكثر تحملا لمصاعب الوجود بل وأعتبر نفسي محظوظا.

لست مكترثا بتهديد هذا الفايروس ولا أشعر بأيّ قلق لأنني مؤمن بالعلم ولي ثقة عمياء في العلماء ومتيقن بأنهم سيجدون الدواء المناسب لإنقاذ البشرية. كنت خائفا من حدوث عطل إلكتروني عالمي عظيم قد يهزّ حركة الحياة في العالم بشكل عنيف ومفاجئ ويخلف ملايين الضحايا أرضا وجوا وبحرا، فجاء الخطب من فايروس ووهان الصينية ليخلط الأوراق ويحدث كارثة صحية.

من حسن حظنا أننا لا نعيش في عزلة رغم الحجر بفضل الإنترنت ووسائط التواصل الاجتماعي.. أتجاذب أطراف الحديث كل يوم مع سارة ورفيق صوتا وصورة عبر الفايبر والواتساب..نقضي أحيانا السهرة معا رغم أنف المسافات، نسرد على مسامع بعضنا تجاربنا في الحجر

فؤاد حمدي

وحيل كل واحد منا في مكافحته اليومية للضجر والكسل البدني المفروض. نتبادل النكت حول كورونا ونعلّق على قراءاتنا. تحدثنا في سهرة كاملة عن تفاصيل رواية الطاعون.. كأننا اليوم من شخصيات ألبير كامو التي تتصارع مع عدوّ غير مرئي في مدينة وهران. أصبحنا كلنا نسكن وهران مع كورونا الذي جاءنا من ووهان كما تقول ضاحكة سارة من المكسيك.

حينما أنظر من النافذة وأرى الدنيا مضربة في سكون رهيب ينتابني شعور عميق بالعبث واللاجدوى أحيانا. صمت العالم اللامعقول كما يقول كامو لم يعد في كتب الفلسفة وإنما في متناولي وعبر نافذتي. أصبح الوجود مجرد قاعة انتظار.

كاتب من الجزائر مقيم في باريس

ملف

سيد العزلة

أمال بشيري

جعل زمن الأوبئة البشر يركضون بهلع نحو ذواتهم دون أن يدركوا ذلك أو على الأقل دون وعي منهم إلا فيما ندر، في الحقيقة فإن العزلة مهنة العقلاء.

يمارس البشر غريزة الخوف من الفناء بشراسة، بعنف، فحجروا على أنفسهم، وحجر عليهم لكي تشل عقولهم في منطقة غامضة، وقلقة، منطقة بين العزلة الإجبارية التي لا يعرفونها عادة، ومنطقة خصوصية الأخر المصاحب لهم في عزلتهم المضطربة.

لكنهم لو عرفوا فقط بأن لا أحد منا سيخرج حيّا من الحياة، لا أحدا منا سيفلت من الفناء حتى لو بعد حين! سيصبح للعزلة معنى آخر، معنى الزهد والاكتفاء.

"كورونا" هذا الفايروس الذي قلب موازين القوى، وشل حركة العالم، أتى ليكشف ضعف البشر رغم كل تلك القوة العنيفة التي استخدموها ضد بعضهم البعض، على شكل حروب وغزوات واستعمار وإبادة، وضد الطبيعة، وضد الحيوانات.

فتك البشر بجميع الكائنات الحية الأقل قوة، ومقاومة منهم حتى ظهر هذا الفايروس الذي سيفتك بهم وينتقم لهذه الكائنات الضعيفة، ويعيد للحياة أصلها الأول، حقيقتها الأولى، حقيقة الكائن المتوحد مع نفسه، المحاكي للطبيعة العظيمة، المضطرب أمام معجزات السماء.

فايروس كورونا "سيد العزلة" ضغط بمحض الصدفة ربما على زر الحقيقة معلنا نهاية عصر "الهمجية المتحضرة" وبداية عصر الكائن البشري الضعيف الذي عليه أن يحترم باقي الكائنات الحية دونه، بشريّ جديد يحمل بداخله مفاهيم أخلاقية مرسخة، يتعامل مع الحياة بمنطق القلب وبلغة الإنسانية، بشريّ خال من الخطايا، مشبع بالبراءة وباحترام الحياة.

أمام كل ما يحدث في العالم، أعيش عزلتي بهدوء وسلام، سلام داخلي نحتته الوحدة الاختيارية التي أعيشها منذ السنوات الأخيرة، تلك العزلة التي تحررك من أيّ ارتباط، من أيّ اصطدام، من أيّ خذلان، عزلة تعزز مكانة نفسك في قلبك، وتنشر البهجة حولك وبداخلك، هي تلك العزلة التي علمتني كيف أعد الأيام على أنها جواهر ثمينة على أن أستمتع ببريقها.

لعزلتي مكانان، مكان في الروح والثاني في بيتي، عالمي الذي يحرص على تشذيب ذوقي، أين تنتشر تفاصيل حياتي بين كتبي وبين النباتات التي لازلت أدللها فقط لكي تبقى على قيد الحياة، بين تفاصيل الطبخ الممتعة وسماع الموسيقى، بين الرقص لوحدي، بحذاء الفلامينكو الذي اشتريته ذات زمن من ممر الأحزان بغرناطة، وبين الأفلام السينمائية التي تتعبني حتى تمنحني فليما أقع في عشقه لمجرد ألوانه وحجم إضاءته البديعة التي تبهرني.

أراقب الوقت يمرّ على وقع شراسة فايروس ليس لديه شفيع سوى التعقيم والعزلة والخوف، استيقظت ذات صباح على أخبار تنزع بطانة القلب من شدة هولها، اجتاح فايروس كورونا العالم بعد ما كان مجرد مزحة صينية من المفروض أن يطويها النسيان دون خسائر تذكر، لينقلب الوضع إلى مشاهد بشر يتساقطون في الشوارع مثل الذباب، إلى أروقة مستشفيات العالم المكتظة بالمرضي، بالمشرفين على الموت، لم يعد هناك مجال للاستخفاف وعلى العالم أن يستنفر، أن يشذب، أن يخاف، أن ينعزل!

وعليّ أنا أيضا أن أعيد النظر في التعامل مع الأكياس البلاستيكية، مع محلول الكحول، إعادة النظر في نوعية الهواء الذي ينفثه المكيف، ومع نظافة مقبض الباب وكعب حذائي، بعدما كان كل ما يهمني في السابق هو البحث عن سبب الحب، والتأمل في لون الورد، ومجادلة فلسفة الأديان، وتاريخ الحروب والفن، وصناعة السينما، والكتابة الروائية، وخطط السفر، ورائحة سكك الحديد، تحولت يومياتي إلى الإسراع في تعقيم البيت وإلى جرد المؤون وإلى الاطمئنان بأن الحياة ستستمر كما كانت من قبل لا غير!

تشعرني يوميات الحجر المفروض بأن الرزنامة لم تعد ذات قيمة، وبأن الحقيقة المطلقة التي لا بد من التشبث بها هي البقاء على قيد الحياة بأقل أضرار ممكنة وبأن رفيقي في البيت هو المرآة التي أرى فيها نفسي، وهكذا ندخل في لعبة السلطة والتسلط، فالأكثر خوفا هو الأكثر حذرا وبالتالي هو الأكثر تطلبا للحماية من أيّ احتمال للعدوى، هو الأكثر تسلطا لمراقبة إجراءات التعقيم، ومتابعة التنظيف، ومسح آثار لكل حذاء أو كيس، أو علبة تأتي من الخارج!

قؤاد حمدي

يوم بأكمله يبدد في الدفاع عن النفس ضد الفايروس غير المرئي، ضد شبح صامت، لكن مع استمرار الحجر، و حراسة زوجي على التعقيم التام والمستمر للبيت، مع برودة أعصابي التي تخجلني أمام هذه المأساة التي تهدد البشرية، لحظت فجأة بأنني لست معنية بخوف البشر من هذا الفايروس الفتاك، لأنني من قبل أعتبر نفسي سيدة العزلة، والمحبة للخلوة، وصاحبة فلسفة الترك والاستغناء، لهذا تساءلت ماذا يوجد في الخارج لكي يشعر البشر بكل هذا الغبن بسبب الحجر المفروض عليهم؟ لماذا لا يستطيعون البقاء في بيوتهم التي من المفروض أن تكون جنانهم الخلابة؟ لماذا يخاف هؤلاء من العزلة؟ وحاولت أن أفهم لماذا مبدأ القطيع هو الأصح لديهم؟

يكمن الرعب من العزلة في الخوف من مواجهة الذات، في التعرف عليها، في مساءلتها، في الحفر في الذاكرة، في تأنيب الضمير، في الاعترافات القاسية لو تحلّى الواحد منا بالشجاعة الكافية لذلك، لهذا أسمي " كورونا" بفايروس الحقيقة، ومطهّرها الذي يجعلك مرغما على مواجهة نفسك واكتشاف من حولك ومعرفة مدى تشبثهم بالحياة ومدى حقيقة غرائزهم ومدى أنانيتهم.

في هذا الجو الموبوء، أغلقت حجر القلب، وعقمت الذاكرة من أي ألم، تركت الفصل الثاني من الرواية التي أكتب منذ أشهر على حافة الوقت لأن بطلها غير معنيّ بما يحدث الآن، غير معني بالفايروس ولا بغرائز البشر ولا بالحجر الصحي، تركته عمدا معلقا بين اليقين وبين كل الاحتمالات إلى "حين ميسرة".

لكن ثمة شيء بداخلي أغرقني في العزلة الملونة، في الأصباغ البهية، واللوحات التي تجرأت على تلطيخ بياضها كما اتفق باللون الأسود الذي يشبه ذاك الشخص الذي يشعرك بالهيبة لكن دواخله هشة، وباللون الذهبي الذي يشبه نصف غمزة لامرأة لعوب تخاف من عقوبة السماء، رسمت دوائر على أنها أفكار ترحل عبر المجرات، ومدن غارقة في ضوئها، رسمت بعشوائية طعم الخوخ والمشمش كما أتخيله خارج المواسم، وبسذاجة الأطفال صورت ورودا باهتة تقاوم الظلام لتهرب نحو الضوء.

اعتمدت خطة أعتقد فيها ولو قليل من الذكاء، تعتمد على الترك والاكتساب:

الرسم مقابل عصيان شخصيات الرواية قيد الإنجاز، التعقيم مقابل الخوف من المرض، مديح الصمت مقابل ثرثرة القلب، الهدوء مقابل أنانية الآخر، الاستغناء مقابل الرغبة الملحة بأن تخلع الماسك الواقي من على وجهك لكي لا تشبه أحدا في خوفه، أن تشرع أبواب قلبك مقابل غلق أبواب بيتك أمام عابري السبيل، أن تراقب الوقت يمر برضا مقابل أن تفكر في الفناء، أن تتأمل كل التفاصيل حولك آمرا أناك بالاسترخاء، لتنصت لنبضات قلبك وسط هذا الفراغ الهائل، لتشعر بسرعة جريان دمك في عروقك.

على أن أستمر في البقاء كما أشتهي رغم هذه العزلة التي لم تعد اختيار الحكماء لأكتب أكثر وأتكلم أقل، من أجل أن أرسم بسذاجة لتزيّن اللوحات الملونة جدران الروح، لكي أحلم أكثر رغم فزع كورونا الذي اغتال في لحظة فارقة وهم قوة المتجبر، ووهم ثراء الأغنياء، فايروس الحكمة الذي أنصف الفقراء في الموت وليس في الحياة، علّم الأطفال كيف يرقصون رغم الحمى التي تلهب أجسادهم الصغيرة، هذا الفايروس الذي أفرغ أيّ سلطة من محتواها، وأعاد التبجيل لأيادي القدر، فايروس أعطي للبشرية الدرس الأول والأخير فلا أحد منا أقوى من الحياة!

كاتبة من الجزائر

ملف

عزلتنا وهشاشتنا

كيف يواصل الزمن انسلاله من بين يديّ

هيثم حسين

لا أكاد أبالغ إن قلت بأنّني أشعر بأنّي في سباق دائم متجدّد مع الوقت، أدور في دائرته، أشعر بانسلاله من بين يديّ كأنّه نقطة ماء تنسلّ هاربة وأنا أحاول محاصرتها والتحصّل على ما أمكنني منها. أحياناً أمازح من حولي بالقول لو أنّ بالإمكان شراء بعض الوقت من أولئك الذين يشعرون بأنّ لديهم فائضاً منه، أو مَن يشعرون بالملل وأنّه ليس لديهم ما يفعلون. أغبطهم نوعاً ما، وأشفق عليهم في الوقت نفسه. الزمن؛ هذا الذي يشكّل سرّاً من أسرار الكون، لطالما شغلني، وأسرني، وجعلني في لهاث دائم أرنو إلى خيط بداية جديد، أو خطّ نهاية مرحليّ، كلّ مرة، يظلّ سيّداً وحده، مهما حاولت فهمه، أو التكيّف مع تقلباته وأطواره، أو تطويع نفسي وفق المتغيّرات التي أجد نفسها واقعاً، أو ملقيّاً في أتونها..

ولا أدري إن كنت سأبالغ بالقول إنّه بالكاد تغيّر شيء بسيط في دورة حياتي في العزلة والحجر، فبرنامجي اليوميّ مليء دوماً بالانشغالات، وأعمل على سرقة بعض الوقت من نفسي حين أسترق متعة الخروج مع صديق من دون أن أشعر بأنّي مضغوط، وأنّ كثيراً من الأمور تنتظر منّي أن أنجزها.

أشعر بأنّي محاصر بالوقت، وبأنّي ملاحَق بأمور معلّقة تنتظرني، ولا بدّ لي من الالتفات إليها، وإيلائها بعض الاهتمام، وبعض الوقت الذي يفترض أن أقتطعه من دورة الزمن المنسلّة الهاربة التي ألهث وراءها في سيناريو يومي يكرّر نفسه منذ أكثر من عقدين من الزمن.

أشعر بالتوتّر، ينتابني القلق، أستوحش في كثير من الأحيان حين أكون ضمن الجماعة أو في مجالس عامّة، وأعود للهدوء والتصالح مع الذات والزمن حين أنفرد بالكتاب، وأنغمس في عوالمه، تتبدّد الوحدة حينها، يتبدّد الاستيحاش، ويتحوّل إلى عالم مزدحم بالجماليات التي أحاول التقاطها والتنعّم بها..

العزلة نعمة بالنسبة إليّ، تعني مزيدا من الوقت للقراءة والكتابة، ومزيدا من الترفيه المفقود، بمتابعة أفلام سينمائية أو الاستماع إلى موسيقى أشتاق إليها وأفتقدها، ناهيك عن إيقاف تيّار الحياة الجارف، والاستمتاع بساعات هدوء بعيداً عن ضجيج المدينة الذي لا يخلو من جماليات بدوره حين تكون قادراً على ضبط علاقتك معه، من دون أن تكون مرغماً على الغرق فيه أو الانسياق وراء جنونه.

أقضي ساعات طويلة في العمل، وبعدها أحاول التواصل بشكل يوميّ مع بعض الأصدقاء، ولاسيما أنّني مسكون بشعور دائم بالتقصير تجاههم، ذلك أنّي مقلّ في التواصل، أكره محادثات الفيديو، أملّ سريعاً من المكالمات الطويلة، أضيق ذرعاً بالتفاصيل، وأكره أن أبدو كمن يحاول التهرّب من التواصل والمهاتفة والمحادثة والاستمتاع.

في السنوات العشر الأخيرة، أشعر بأنّي كائن أونلايني، معظم حياتي أقضيها في عالمي، المنفتح على العوالم والأصدقاء من خلال التواصل عن بعد، وقبل ذلك أيضاً، حين كنت في مدينتي وبين أهلي وأصدقاء الطفولة ومحيطي الاجتماعيّ، كنت أشعر بأنّ الوقت ينسلّ بطريقة مرعبة، لذلك غالباً ما كنت ألوذ بالعزلة لأتمكّن من إنجاز ما أخطّط له وما ينتظر منّي إتمامه.

تفرض العزلة المستجدّة، كونها مفروضة، وليست اختيارية كما تعوّدت عليها سابقاً، طقوساً جديدة بدورها، ذلك أنّ عليّ أن أراعي متطلّبات الأسرة، ولاسيما أنّ بنتيّ؛ هيفي وروز، توقّفتا كغيرهما عن الذهاب للمدرسة، ودخلتا معنا في عزلة إجبارية، ولا يمكن للأطفال تفهّم موجبات العزل كما يجب، وتكون طفولتهما أكثر غلبة ومطالبة بأخذ حقّها من الوقت المفترض.

أتمعّن في الهدوء الإجباريّ الذي فرضه الفايروس على هذا الكوكب، وكيف أن التوقيف المؤقّت يخدم البيئة، ويمنح المناخ رئات للتنفّس، عسى أن تداوي الطبيعة بعض جراحها الناجمة عن عبث البشر بها، وأذكر كم كان إقناع بعض العابثين بالبيئة بتهدئة جزء من عبثهم ضرباً من الاستحالة، لكنّ إذعانهم لاجتياح الفايروس وهجومه يبدو لي تحطيماً لذاك الغرور المجوج، وإيقافاً لهم عند حدّ كان يجب عليهم تفهّمه قبل وقت طويل.

مسافة الأمان التي أكرّر لنفسي الحديث عنها، والتي تشكّل تفصيلاً من تفاصيل السلوك الحياتيّ، تلغى في واقع العزل، فلا مسافة ولا أمان، يكون الذعر جاثماً على الصدور، وطائفاً في الأجواء، يحوم من حولنا مرعباً إيّانا وفارضاً شبحيّته التي تطغى وتستبدّ وتمحو أيّ مشاعر بالأمان وسط لعبة الذعر اليومية التي تسيّرنا بطريقة أو أخرى..

فؤاد حمدي

أفكر كم كشف لنا هذا الفايروس المستجدّ هشاشة عالمنا، هشاشة التكنولوجيا، وكيف عرّى التجبّر البشريّ، وأظهر ضعف الإنسان، وصغره، أمام هول ما تحمله الطبيعة له، وما يمكن أن يدمّره من مجهول لا يعلم كنهه، وفضح مزاعم البشر بالتفوّق والعظمة، أعادة ترتيب الأولويات، ووحّد البشر في سبيل هدف واحد، لأنّهم وجدوا أنفسهم معرّضين لحرب ضدّ البشرية، وأمام فايروس لا مرئيّ يغلق العالم، ويتسبّب بكوارث إنسانية واقتصادية عليه.

يبدو أنّ البشرية تكون بحاجة لهزائم من هذا النوع بين وقت وآخر، كي تدرك حجمها الحقيقيّ، ولا تبالغ في تألّهها وزعمها الوصول إلى قمم العظمة. الفايروس جرح الجبروت البشريّ وفضح عريه، أظهر للعالم أنّه عارٍ أمام المحن والكوارث، وأنّ عليه التأدّب أكثر حين يقف أمام الطبيعة وقوّتها المخفية وأسرارها المخبوءة.

يشعر الإنسان بنفسه أنّه مركز الكون، ولكن في حالات كهذه، يكتشف خيبته وضعفه، وأنّه مهما ظنّ بنفسه بأنّه عالم كامل، وجرم متكامل عظيم، إلّا أنّه يمكن أن يقع صريعاً على هامش الزمن، وفي دورة من دورات الحياة، بكلّ بساطة، ومن دون أن يشكّل وجوده أو غيابه أيّ

فؤاد حمدي

علامة فارقة في رحلة الوجود الأزلية الأبدية التي لا يصمد في وجهها أيّ فرد مهما بلغ من قوّة أو جبروت.

التهديدات تحاصرنا كذلك بشكل دائم، فكلّ ما حولنا يمكن أن يكون مصدر تهديد لنا، وإن كان يوحي بأنّه موقوف أو موجود لخدمتنا وراحتنا، لكنّنا نحمل تهديداتنا الوجودية معنا، ما يبدو عامل أمان قد ينقلب إلى تهديد، وذلك في سياق الوجود الهشّ الذي يفتقر لمقوّمات الصمود أمام الكوارث المجهولة والتي يمكن أن تجتاحنا في أيّ وقت لتقلب مسار حياتنا وتسجننا في مخاوفنا القاهرة.

أقول لنفسي أحياناً غنّني فقدت شعور الخوف من التهديد بالموت في وقت سابق، وقبل أكثر من عشرين سنة، حين مررت بتجربة قاتلة، تجربة حرق كادت تودي بي أثناء خدمتي الإلزامية، أجبرتني على المكوث في المشفى حوالي عامين، وما تزال تداعياتها وتأثيراتها الجسدية والنفسية حاضرة معي يومياً، وكأنّ الحرق كان بالأمس، وليس قبل عقدين من الزمن.

بعد تلك التجربة أشعر أنّ أيّ لحظة أعيشها هي هدية من الحياة إليّ، وأنّ عليّ أن أكون ممتنّاً لأنّي ما أزال أعيش، وأنّي عدت من الموت لأحيا وأسترق ما يمكن من جماليات ومتع، بعيداً عن تعكيرها بالخوف الذي يسمّم الحياة، لذا فأحاول أن أقنع نفسي أنّ الخوف يشوّه النفس وأنّي عليّ ألّا أستكين لسلطته المدمّرة.

الرعب من المجهول المتربّص بنا شبح دائم، الخوف يعيد الاعتبار للحياة نفسها، والكوابيس الواقعية تكشف فداحة الخيبة الطاغية، والخسارة المعمّمة، وعسى أن يكون تفشّي الخوف أداة لتجميل الحياة وليس إنذاراً لتلويثها بالكراهيات والعنصريات والأحقاد والجرائم، وأن يفرض الفايروس سلوكيات جديدة تمضي بالإنسان نحو مزيد من المحبة للآخر، لأنّ المصير المشترك يجبر على التسامي على الخلافات والأحقاد، ويملي توحيد الجهود للإنقاذ، فمركب الحياة يمكن أن يغرق لأيّ سبب، ولن تنفع الذرائع التي يسوقها البعض بتلافي الخسارة أو تخفيف وطأتها..

وحدة المصير الإنساني تحدّ تاريخيّ وجوديّ أمام البشرية التي تواجه حرباً ضروساً من فايروس لا مرئيّ يمرئي لها صورها وتاريخها وخيباتها وكوارثها، ويساعدها على بلورة مسار جديد مختلف، عسى أن يكون هناك اعتبار ما، وتقدير لقيمة الحياة التي تمّ الاستهتار بها كثيراً في الحروب والأزمات المفتعلة.

أسأل نفسي: مَن أنا في هذه المعمعة، وأين يجب أن أكون، ما هو دوري، وما الذي يمكن أن أقوم به!

أقنع نفسي بعدها أنّني في هذه الحرب ألعب دوري بالبقاء معتزلاً، مستكيناً في الحجْر، مترقّباً ما ستبدعه العقول العظيمة في هذه المواجهة للتغلّب على الوحش الذي يفتك بالبشرية.

روائي وناقد من سوريا مقيم في لندن

بداية النهاية

يوميات الهجرة إلى الداخل

ممدوح فرّاج النّابي

في الأصل أنا كائن يعشق الوحدة، انعزاليّ بالمعنى الحرفي للكلمة. أهوى المكوث وحيدًا لفترات طويلة، ربما لا أخرج من البيت إلا اضطرارًا في بعض الأحيان. وفي البيت لا أتجوّل في المساحات المفتوحة، أكاد أحصر نفسي في موقع ضيق للغاية، حيث أعزل نفسي في غرفة مُستقلة داخل الشقة، وأغلق على نفسي باب الغرفة التي أمارس فيها عملي، هكذا أصير معزولاً خلف أبواب موصدة، تبدأ بالباب الخارجي للعمارة، مرورًا بباب الشقة الرئيسي، وصولاً إلى باب الغرفة الخاصة بي. فكما تقول أوليفيا لاينغ في المدينة الوحيدة "بإمكانك أن تكون وحيدًا في أيّ مدينة، ولكن هنالك نكهة خاصة للوحدة التي تعيشها في مدينة وأنت محاط بالملايين من البشر"، وحدتي هنا بإرادتي. فأنا موقن أن بالخارج بشر يحيطون بي. هكذا كنتُ أصنع شكلاً لعزلتي، شكلاً يُغنيني عن العالم:

حين تكونين معي أنتِ
أصبح وحدي..
في بيتي! (أمل دنقل).

الثلاثاء الـ17 من مارس 2020

(فايروس كورونا: حالتا وفاة و30 إصابة جديدة في مصر وإصابات في الكويت والعراق والأردن وتونس - موقع BBC العربية).

مع انتشار جائحة فايروس كورونا المستجد "كوفيد - 19"، صارت العُزلة أمرًا إجباريًّا، بفعل قرارات حكومية، تنظر لصالحنا العام لأوّل مرة. وبذلك لم أعد معزولاً بإرادتي، بل صرت مجبرًا على الإقامة الجبرية في العزلة، وهذا فارق كبير. لم أختر عزلتي وأنا وسط البشر كما كنتُ من قبل، بل صرت وأنا والبشر في عزلة إجبارية، وضعتنا جائحة الفايروس في قوقعة واحدة، أنا الذي أهرب من المجموع صرت مع المجموع نعيش العزلة، مثلي مثل البطل براين في فيلم "حياة براين"، فبراين دائمًا يمثل المفرد في مقابل المجموع، إلا أنه فشل في إقناعهم بهذا بصيحته: "أنتم أفرادا!" كانوا يقابلون صوته بأصوات جماعية "نحن أفراد جميعنا!"

يجدّد صراخه "عليكم أن تكونوا مختلفين" لكن يهتفون "نحن مختلفون جميعًا" الآن الصوت النشاز الذي كان يخرج ويقول أنا لست فردًا تارة، أنا لست مختلفًا، كخروج عن المجموع ذَابَ، وصار الجميع يهتفون "نحن أفراد جميعنا محاصرون ومعزولون"، بعد أن صار براح العالم كله ينحسر داخل المنزل، بل يتقلّص داخل المنزل إلى مساحات ضيقة جدًّا، حالة من التقوقع داخليًّا، بل زاد الأمر سوءًا بالنسبة إليّ كمغترب بعيد عن أهله ووطنه، أنني صرت منعزلا عن عالمين عالمي المعيشي، وعالم الوطن، فبدت فكرة العودة إلى العائلة بعد انتهاء الامتحانات مهددة، وفي عالم الغيب. هنا وقعت في حصارين، الحصار لم يعد حصارًا عن الشارع تفاديا للعدوى، بل صار حصارًا عن الوطن، أشبه بعالق بعدما توقفت حركة الطيران والعبور والمرور من هنا إلى هناك. فلم يعد يُجدي قول محمود درويش وهو يصرخ "حاصر حصارك" أيّ حصار أحاصر الآن، وكيف أحاصره؟ وإن كان لم يبقَ لي سوى الجنون فالشعور بأنّ الذين تحبُّهم بمنأى عنك، بل هناك حواجز تحول دون الوصول إليهم، يقترب من معنى "أنهم ذهبوا".

الخميس الـ19 من مارس 2020

(ضغوط على اليابان لتأجيل أولمبيادها، والإمارات تعلق جميع الرحلات الجوية - وكلات الأنباء).

في لحظة واحدة توقّف العالم تجمّد كل جزء متحرك فيه، وهو ما يعني تأكيدا لمعنى الحياة السائلة التي اعتبرها البولندي زيجمونت باومان تماثل "تمامًا المجتمع الحديث السائل"، فهي لا يمكن أن تحتفظ بشكلها ولا تظلّ على حالها وقتًا طويلاً. كما أنه يشير إلى أن الحياة السائلة "هي حياة محفوفة بالمخاطر يحياها المرء في حالة من اللايقين الدائم". كانت نبوءته التي مثلت أشدّ هاجس ساوره في تلك الحياة هو الخوف من أن تأخذه على حين غرّة، وهو ما حدث، غزانا كورونا على حين غفلة، أصابت حياتنا الصاخبة بلحظة سكون وصمت وترقُّب رهيبة في إشارة مرور، ظلت الإشارة حمراء، لا تسمح بالعبور،

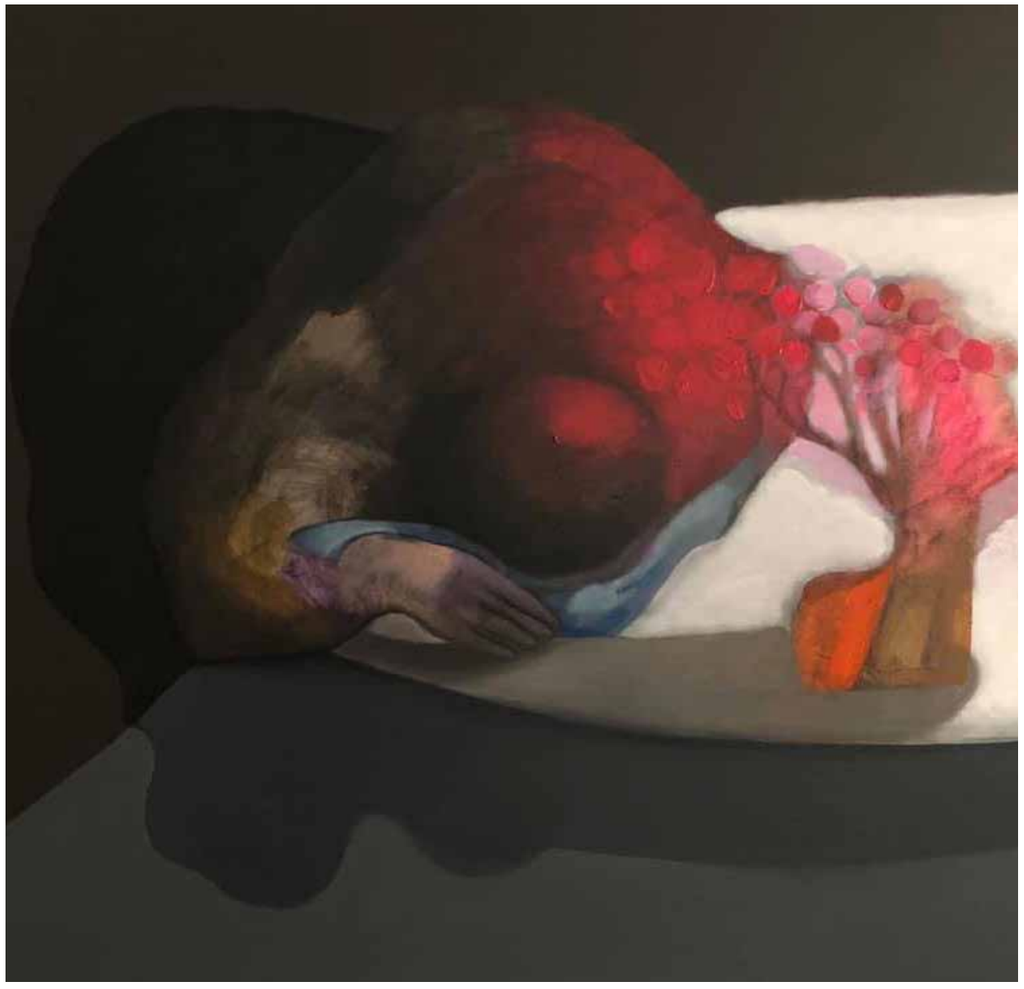

فؤاد حمدي

الكل عالق، لا يجتاز الخط الأبيض، صار عالمه مُحدّدًا، ومرتبطًا بتغيّر اللون الأحمر إلى اللون الأخضر، لحظة العبور، لكن مع الأسف، تجمدت الإشارة عند اللون الأحمر، وأعلنت أنها لن تتغير، وعلى الجميع أن يتعامل مع الواقع الجديد، وفق هذه المستجدات.

الجمعة الـ20 من مارس 2020

(بكاء مذيعة برنامج «mbc trending» على الهواء بسبب كورونا - الرأي نيوز).

في البيت حياة

التحوّل من حالة الحركة والمرح إلى السكون والصمت، لم يكن بالأمر السهل، كثيرون لم يتقبّلوا فكرة الانعزال الذاتي، والهجرة إلى الداخل، حتى حدث الانعزال الإجباري، بعد فرض قوانين حظر التجوال الصارمة بالتزام البقاء في المنزل. شركات المحمول أرادت أن تبث رسائل طمأنة، على نحو ما فعلت وسائل الإعلام المختلفة التي اتخذت إجراءات مكثفة؛ للتوعية بمخاطر النزول والتكدُّس في الأماكن العامة كوسائل المواصلات أو الأسواق والمتنزهات. حالات من الرعب اكتست ملامح الناس في الشوارع، ظهر من أسفل الكمامات، رعب محفوف بصمت الترقب عما بعد.

شركات الاتصالات سعت إلى بثّ رسائل طمأنة، ومؤازرة، فوحدت شعارها وغيرته إلى جملة بقدر ما كان غرضها الطمأنة إلا أن المعنى نقيضها تمامًا. تغيّر شعار شركة "Turksell" إلى شعار جديد هكذا:"Evde Hayat Var" الشعار يشير إلى أن "في البيت حياة، أو الحياة في البيت". المعنى الإيجابي يخفى معنىً سلبيًّا مضمرًا ومستترًا

يُوحي بالرعب، وهو ما وصلني وسط المعنى الإيجابي، الحياة يقابلها الموت والهلاك، الحياة في داخل البيت، إذن الموت والهلاك في الخارج. إلى هذا الحد صار الخطر قريبًا. أيّ رسائل طمأنة هذه التي تقول لي لا تخرج لأن في خروجك موتك.

4:30 مساء الجمعة الـ20 من مارس 2020

رسالة من رئاسة الجامعة، بتحويل الدروس لطلاب الجامعة إلى دروس إلكترونية، عن طريق التعليم عن بُعد.

السبت الـ21 من مارس 2020: بداية عطلة الأسبوع

(إجراءات حازمة: شراء مستلزمات الأسبوع من الماركت/عدم الخروج من البيت/مشاهدة إعادة المسلسل التركي BARAJ السد)
الـ21 من مارس 2020

"من الذي يجب أن يخضع لفحوصات الفايروسات التاجية" (فخر الدين كوجا وزير الصحة التركي).
عجوز تركية من مدينة أسكي شهير، تدعو قوات الدعم التركية، لأكل العنب الذي ينمو في حديقتها. (عن موقع com).
انتقلنا من موقع المشاهدين، إلى موقع المفعول فيهم، من قبل كنّا مجرد متفرجين ومشاهدين لما يحدث في العالم من كوارث طبيعية مثل الفيضانات، والسيول، أو حتى الحروب الدائرة بجوارنا بفعل البشر والدكتاتوريات، كما في سوريا واليمن وليبيا، كنا نشاهد مناظر الخراب والدمار التي خلفتها الحروب، بلامبالاة. أحيانًا بعد السأم الذي تذيعه القنوات الإخبارية، نغيّر القناة وننتقل إلى البرامج الترفيهية، لحظة واحدة فاصلة بين حالتين ؛ حالة رعب ممّا نشاهد، قد يقابلها تعاطف على نحو ما، لكن لن تتجاوزه إلى ردة فعل، أو عمل حقيقي. ثم لحظة استرخاء ولامبالاة وانغماس في الترفيه. فالشيء المطمئن أن الكارثة بعيدة عنّا.
اختلف الأمر هذه المرة تمامًا، الكارثة صارت تلاحق الجميع، تساوت الدول الرأسماليّة مع ضحايا الرأسماليّة، الأثرياء مع الفقراء، الرؤساء مع المرؤوسين. المعنى الإيجابي الوحيد لهذه الأزمة، أنّنا جميعا في مركب نوح (مع الفارق) فالسفينة "تيتانيك" كان ركابها من الصفوة فقط. حالة الهلع التي أفرزتها العولمة، صارت تؤكد ما أعلنه كارل بوبر عن "المجتمع المفتوح"، لكن انفتاح العالم هذه المرة كان على الخوف والرعب. هنا يتحقق الانفتاح الفاسد للمجتمعات بفعل العولمة السلبيّة. فلأول مرة يصير معنى الوحدة البشرية التي جلبتها العولمة كما يقول ميلان كونديرا في أنه "لم يعد هناك مكان للهروب". ولم يعد بمقدورنا إلا أن نردّد ما كان يقوله سارتر "أيّا كان ما نفعله، فإننا نتحمل المسؤولية عن شيء، لكننا لا نعلم ماذا يكون هذا الشيء"، فلا صوت براين مُجديًا هذه المرة، ولا الصوت النشاز الذي أراد أن يعلن عن استقلاليته!

انكماش

الأحد الـ22 من مارس 2020

فنانو المغرب يغنون النشيد الوطني، ويطلقون حملة # معاك_يا بلدي لمحاربة فايروس كورونا
فتاة أردنية، تخرق حظر التجوال بالرقص في الشارع.

حقيقة لم نكن مُستعدّين لهذا الواقع، لأوّل مرّة نفشل مع التعامل مع الواقع الأرضي لا الواقع الافتراضي، الواقع الجديد الذي صار افتراضيًّا، بدخولنا جميعًا غرفة محكمة، مراقبة وكأننا في دولة الأخ الكبير عند جورج أورويل. يكفي أنك ترى كل شيء أمامك، لكنك محروم منه، لا تستطيع أن تلمسه، ممنوع أن تقبّلَ أحبتك، أو حتى تشاركهم فرحتهم بالأحضان. مثل العالم الافتراضي، مع دخولنا عصر الثورة الرابعة، وهيمنة وسائل التكنولوجيا على حياتنا، كم من الأصدقاء لدينا على صفحاتنا الشخصيّة، على فيسبوك أو إنستغرام وغيرها، لكن أصدقاء عن بعد، وظائف الافتراضي - مع الأسف - انتقلت إلى الواقع، فصارت سياسة التعامُل عن بُعد، هي السائدة، الأهل والأبناء والأصدقاء حولك، وبجوارك، لكن ثمة شرائطَ جديدة في التعامل، ثمة مسافة فاصلة أثناء الجلوس، ممنوع الاقتراب، ممنوع إظهار الإعجاب، والحبّ، صرنا نتعامل بالرموز، التي كانت محورَ علاقتنا بالآخر الافتراضي، صارت الإيماءة دليلاً على المشاركة الوجدانية، والتربيت باليد على الكتف بديل عن المصافحة، وضم قبضتي اليد، دليل على المؤازرة، وإرسال قبلة هوائية تعبير عن مشاعر الحبّ الفياضة.
في تلك اللحظات صار لكلمات أمل دنقل، معاني أخرى غير تلك التي وردت في سياقها:

"أترك كل شيء في مكانه:
الكتاب، والقنبلة الموقوتة
وقدح القهوة ساخنا،
وصيدلية المنزل،
وأسطوانة الغناء
والباب.. وعين القطة الياقوتة
أترك كل شيء في مكانه،
وأعبر الشوارع الضوضاء
مخلفا خلفي: زحام السوق..
والنافورة الحمراء
والهياكل الصخرية المنحوتة
أخرج للصحراء!".

مساء الأحد الـ22 من مارس 2020

الأوبزرفر: كيف وقف الغرب "مرتجفا" أمام أزمة فايروس كورونا مقارنة ببعض دول آسيا؟

في الفترة القليلة الماضية، ولكن المهمة جدًّا، فما قبل ليس كما بعد، تغيّرت الوظائف، وعلاقاتنا بالأشياء فلم تعد كما قبل، فعلاقتنا بأجهزتنا وبأدواتنا الشخصية الحميمية، تحولت إلى ارتياب في الاقتراب منها بعد أن كانت الأُلفة هي قوامها، مجرد لمسها الآن يتمُّ عبر حاجز كقفازات نرتديها في أيدينا. تقلص كل شيء إلى حدّ الانكماش، العالم الكبير صار في حجم غرفة في بيت، أو بحجم "راحة اليد" كما صوّر أمجد ناصر اختزال الأوطان، والسماوات ضاقت بالطائرات، فلم تعد تحلق بعد. همينة الفايروس أشبه بفكرة الغزو، الفايروس صار يغزو بلدانًا، ويجرد عواصم من سكانها، ويصيبها بالفراغ، هي في حد ذاتها. في لحظة فارقة وفاصلة انتقالنا من العوالم الافتراضية التي كنا نعيش فيها، إلى العالم الأرضي، صرنا أكثر اقترابنا بمن هجرناهم بسبب وسائل التواصل الاجتماعي، لكن عودتنا جاءت بمحاذير، ممنوع الاقتراب، ممنوع اللمس، ممنوع الأحضان. كل شيء كما هو لكن مفتقد لروحه، حتى الأيام لم يعد ما يميزها.

الإثنين 23 مارس 2020

(الخشت: 25 عالماً من جامعة القاهرة يشاركون في اكتشاف علاج لـ"كورونا" - موقع مصراوي).

حالة الغزو التي صار عليها فايروس كورونا لواقعنا، وتغلغله فيه حتى أصابنا الشلل، تشبه أحداث مسرحية "حالة طوارئ" لألبير كامي، التي تدور في مينا قادش في الأندلس، الميناء ليس له وجود الآن، انقلاب يقوده رجل يهبط على المدينة وهي في حالة تأهُّب لحدوث نيزك، الرجل يُدعى الطاعون، يأتي دخوله إلى المدينة بشكل مباغت، ويجبر الحاكم على التنازل عن الحكم، تصاحبه في اقتحامه سكرتيرته وتدعى الموت، وهي لا تقل عنه قوة وقسوة. بكل سهولة تخضع لهما المدينة، وعندئذ يأمران بإغلاق أبواب المدينة، ومنع الدخول إليها، والخروج منها.
تهيمن على المدينة حالة من الرّعب، فخلت شوارعها وحلّ الصمت محل الكلام. تأخذ وتيرة الأحداث في المسرحية شكلاً آخر، حيث المسرحية في جملتها رمزية ضدّ السلطات الفاشيّة، ومن ثم كانت رمزية الشاب دييجو الذي يرفض هذه الإجراءات، ومع خروجه تبدأ ثورة ضد هؤلاء الحكام الطواغيت... إلخ. التشابه هنا أن مع انتشار الفايروس الذي صار أشبه بالطاعون الشخصية المستبدة في المسرحية، قام بتغيير هوية الأماكن، وعزل الناس، هو أشبه بدكتاتور فرض سطوته على الجميع. وصار الجميع في انتظار المخلّص، على نحو ما حدث مع الشاب دييجو، الذي اندفع من نواح وطنية أن يتصدى للدكتاتور، فأطلق شرارة المقاومة ضدّ الطغاة.

إعلامي مصري يحاور فايروس كورونا ويثير سخرية!

في قصة بعنوان "انكماش" للكاتبة المصرية ابتهال الشايب ضمن من مجموعتها "نصف حالة" القصة تُحكى بلسان فايروس عن كيفية اقتحامه للجسد، التي هي أشبه بالغزو، عبر رذاذة حملته إلى داخل الجسد وتكاثره داخله، وصولاً إلى اقتحامه المناطق التي لا يشعر بوجوده فيها داخل الجسد. لا تكتفي القصة بوصف لحظات الاقتحام، والتوغل في الجسد، بل ترصد لنا الجزء المهم وهو عجز الجسد عن المقاومة واستسلامه لزحف الفايروس داخل الجسد، ومحاولته السيطرة الكاملة من أجل الوصول إلى المخ. يتغلغل في كل ثنايا الجسد، ويفتش في ذاكرته، بل يقول "بعثرت أفكاره، ومزقتها ووضعت بعض الأشياء، وحذفت منها البعض".

الثلاثاء الـ24 من مارس 2020

تقرير.. "كورونا" يضاهي الحرب العالمية ويضرب تسلسل الدورات الأولمبية.

القصة تصوُّر لضعف الإنسان إزاء ما يواجهه من أزمات، وأبسطها هذا الفايروس الذي سيطر على جسده. هنا في حالة كورونا لم تكن الأزمة بسيطة بل على العكس تمامًا، أشبه بجائحة. فالفايروس تجاوز الجسد للسيطرة على العالم أجمع، سلبنا حريتنا، وإرادتنا، صرنا أسرى له، كبّلنا في غرفنا المعزولة، حجّم أفعالنا، فهذه المرة هو الغازي (الطاعون في مسرحية كامي) أو العدوّ غير المرئي، نتحايل عليه بالمقاومة، ولكن نخشى من غدره، لذا صار حالنا ونحن نتتبع تعليمات الأطباء من أجل الالتزام بسبل الوقاية، أشبه ببطل قصة «سخرية» لابتهال الشايب، وهذه المرة ويا للعجب البطل طبيب مريض بهاجس النظافة والتلوُّث والخوف منه، لدرجة أنه يرتدي القفازات لحماية نفسه من الأمراض.
حالة الهوس بالنظافة جعلته أشبه بقائد في مهمة انتحارية لإنقاذ هذا الكوكب من مخاطر التلوث، فيبدأ مهمته في المحاربة بتنظيف ماء النيل إلى قطع أسلاك السيارات حتى لا تنتشر العوادم، ينتهي به الحال «في غرفة منعزلة لإحدى مستشفيات الأمراض العصبية» دون أن يتناسى دوره، فيصرخ أين أدوات التعقيم في محاولة منه للتنظيف؟ القصّة بأبعادها ترمز إلى صراع ضد الفساد الذي هو أشبه بمحاربة طواحين الهواء في صورة التلوث. نهاية القصة مؤسفة لأنها في واقع الأمر تدعو إلى الإحباط حيث تشير إلى مآل كل مَن يقاوم القبح والفساد أو ما يخالف نواميس الكون يكون مصيره هكذا، إلا أنها مع الأسف هي الحقيقة في أبسط صورها، قديما كان فقط يحارب طواحين الهواء. الآن صار الجميع مثل هذا الطبيب، ولكن لن يحال الجميع إلى «غرفة منعزلة لإحدى مستشفيات الأمراض العصبية» الجميع يشارك في حمالات التنظيف، داخل بيته، وفي خارجه، الهوس بالنظافة لم يعد مرضًا، كما كان يشار إلى الشخص الموسوس بالنظافة. تلبدتنا حالة

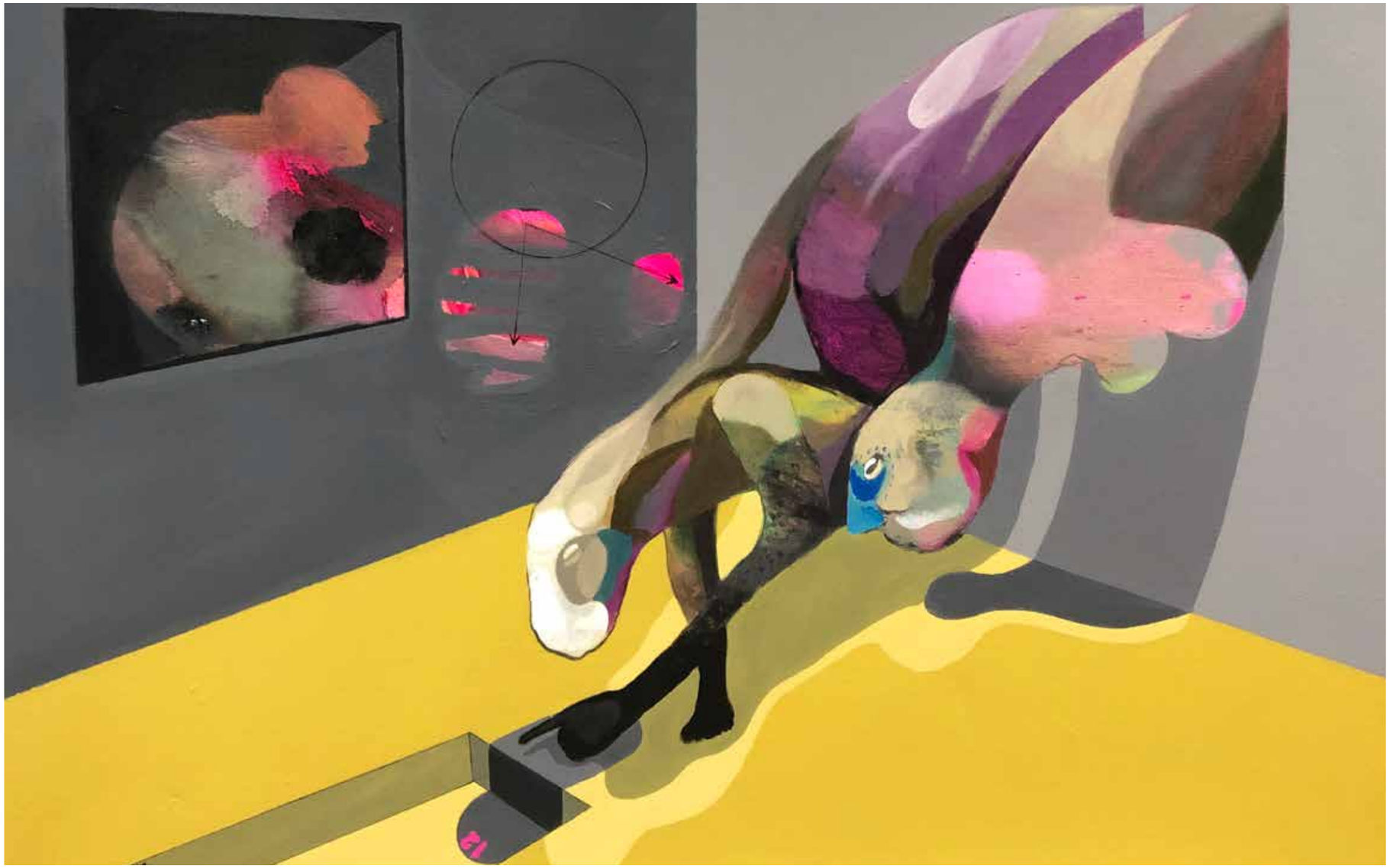

فؤاد حمدي

واحدة من الهوس بالنظافة، بل بابتكار طرق نظافة وحماية، قد تكون قاتلة، ومن ثم جاءت التحذيرات، بعدم الإفراط في الكلور والمواد الكحولية في التنظيف. لكن الخوف يدفعنا إلى فعل كل شيء، حتى لو كنا نجهل ضرره. ثقافة جديدة انتشرت، هي ثقافة الخوف، وهي تعكس رغبة وحبّ في الحياة، فالصور والفيديوهات التي نقلت عن إيطاليا وإسبانيا ولبنان، بخروج الجموع في الليل في البلكونات للرقص والعزف، ما يؤكد أننا نحب الحياة، ومن الموت نبحث عن الحياة، فنحن شعوب أشبه بالعنقاء، تموت لتولد من جديد.

الأربعاء الـ25 من مارس 2020

فرض حظر تجوال بمصر وتطبيق قانون الطوارئ على المخالفين.. قرارات جديدة لمواجهة كورونا.

المدن المعزولة

حالة التقوقع التي صرنا عليها لم تقتصر علينا كبشر، بل شملت جميع المدن، فقد صارت خالية من الحركة وزخم البشر، والأسواق خلت من مرتاديها، وشاغليها. لكن كان على الجميع أن يخلق حياة جديدة تكون بديلاً أو متنفسًا عن تلك الحياة التي سُلبت منه على غير إرادته. المسجون في غرفة يعرف مسبقًا متي سيخرج، لذا يتعامل مع تاريخ معلوم، يوظّف حياته من أجل هذا اليوم. فبعده ستتغير حياته كليةً. لكن في حالتنا صار الوضع غير معلوم، والقادم مجهول، فالتوتر هو رهين الموقف، بل يزداد مع ازدياد حالات الإصابات في العالم، التي تزداد في بعض الأماكن بشكل هيستيري، كما في إيطاليا وإيران وألمانيا وأميركا.

الارتكان للمجهول، وانتظار القادم، صارت من المفردات الجديدة، التي أضحى الجميع يتحدثون عنها وهم في الانعزال الذاتي. كلنا صرنا متعلقين بالعلم والأمل في إيجاد حل لهذه الغمة، التي أسدلت ستارة سوداء كبيرة على الحياة التي كنا نعيشها قبل تفشي الفايروس، وبتوقيف الحياة، صرنا نجلس في طريق مقفر، تحت شجرة جرداء مثل بطلي مسرحية بيكيت "في انتظار غودو"، "استراجون" المهرج، الذي يقع دائمًا ضحية عدوان في الليل، لا يشغله شيء سوى الطعام والشراب ونومه، و"فلاديمير" الرجل المفكّر ذو عقل مشغول بمناقشة الآراء والمقترحات. بطلا بيكيت مرتبطان ببعضهما، مثلنا الآن في ارتباطنا بمصير واحد، وإن كان من قبل كانا يفكّران في الانفصال، يجلسان مثلنا في حالة انتظار شخص ما في يده خلاصهما مما يعانيان من ألوان الشقاء، هما في انتظر وعده وأمله بالمجيء، لكن دون أن يحدد وقتًا، ومن ثم فهما متأهبان لانتظاره في أيّ لحظة.

مشكلتهما الحقيقة، وهي توازي مشكلتنا الآن؟ كيف يقضيان الوقت حتى مجيء المخلّص، ونحن الآن نجلس في البيت، ونفكّر كيف نقضي الوقت، حتى تنزاح الغمة. الخوف الحقيقي من أن هذه العزلة الإجبارية تسبب لنا حالة من الجنون والتمرّد على نحو ما حدث مع بطل رواية "خوف حارس المرمى عند ضربة الجزاء" للنمساوي بيتر هاندكه، يوزف بلوخ عامل التركيبات، الذي كان حارسَ مرمى فيما مضى، ولكن عندما فُصل من عمله فجأة، انتابته حالة من الذعر، فبدأ بالتنقل من مكان إلى آخر تارة، وتارة أخرى راح يُدير حوارات مع آخرين تشبه حديث الطرشان، كما أخذ يقوم بأفعال عبثية. تأمّل ما ينشر من مقاطع فيديو لممارسات البعض داخل البيوت، تعكس حالة من الذعر، وصلت إلى العبث في ردة الفعل. مقاطع هزلية، أسرة جماعية ترقص في هيستيريا، لاعب كرة قدم يلعب مباراة داخل المنزل، صراخ الزوجات من بقاء الأزواج داخل المنزل.

الخميس الـ26 من مارس 2020

الصين تعلن عدم تسجيل أي حالات جديدة بكورونا وتستأنف بناء مطار دولي.

بسبب كورونا... شاب يمني يلغي عرسه ويكتفي بالاحتفال عبر البث المباشر.

في اختياراتي للشقق محل الإقامة، كنت أختار تلك التي لها نافذة أو شرفة تطل على الشارع، لا حبًّا في الوقوف في النافذة لمراقبة الشارع، وإنما توسُّلاً بالآخر في عزلتي داخل الغرفة وليست الأقبية المقبضة كما كان يصفها عبدالحكيم قاسم في رواية "قدر الغرف المقبضة"، على العكس تمامًا لم تكن ريحها كابسة على النفس أو مقبضة، بل كانت تعج بالحياة. السبب الثاني من وراء اختياري للشقق التي تطل نوافذها

فؤاد حمدي

على الشارع هو تأثّري بحكاية الصيني الذي قررت المرأة التي يُحبّها اختبار جَلَدِهِ وصبره، بأن اهتدت إلى ألاّ تمنحه حبّها إن لم يقضِ الليل، مدة ثلاث سنوات، تحت نافذتها. ما هذا الشرط المُجحف، دون مراعاة لصعوبة الطقوس واختلافها من موسم إلى آخر؟ المحبّ لم يجزع أو يجادل أو حتى ساومها على شيء، بل امتثل للأمر، وكان يحضر في المساء، يجلس على مقعده، وهي ترقبه من خلف نافذتها، ولا يتحرك من مكانه إلا عند الفجر. في حين كانت الحبيبة الجميلة أثناء سهره، تنام وراء نافذتها المغلقة. لم يدر المُحبّ الوله بأمر هذه الخيانة. ومع انقضاء السنة الثالثة، كانت المفاجأة أنه لم ينتظر المكافأة، وإنما حَمَلَ مقعده، وذهب دون نظرة واحدة إلى الوراء. أسباب كثيرة جعلته يفعل فعلته ولا ينتظر المكافأة. لكن السؤال الذي كان يراودني بعد قراءة هذه الحكاية: هل هناك فعلاً شخصيّة تفعل هذا، وفي النهاية تُغادر دون أن تحظى بالمكافأة؟ لو اعتبرنا أنه فعل إرضاءً لذاته هو كما برر البعض وليس لها، لربما اقتنعنا بفعله. في الأيام العادية قبل الحظر، والانعزال الذاتي، خاصة في المساءات الممطرة، المصحوبة بالرعد والبرق، كنت أتطلع وأسترق النظر إلى الشارع خلسة من وراء النافذة، متقمصًّا دور الحبيبة المعاقبة، علّي أجد أحدًا يجلس في الانتظار.

بعد حالة العُزلة، صارت من عاداتي المسائية، أن أنظرَ من النافذة ولكن ليس بحثًا عن شخصية الصيني الطيّع (فلقد مات الفضول منذ زمن طويل) علّه عاد في مكان وزمان غير اللذين عاش فيهما، ولكن كنت أنظر في الحقيقة إلى خواء الشارع في المساء، الشارع الصاخب الذي كان لا يهمد صار ميتًا، أصاب طرقاته الخرس، لم تعد تطرقه أرجل السابلة، بل لم يعد أهله يجلسون في رحابه كما كان من قبل. أنظر من النافذة، كل مساء المدينة تحتي، بعض نوافذ بناياتها مظلمة والبعض الآخر مضاء، ولكن لا صمت، وكأن المدينة صارت معزولة.

ماذا تفعل في البيت؟ هذا سؤال الجديد!

الجواب كنت أتابع نشرات الأخبار والمواقع الإلكترونية، ومنصات التواصل الاجتماعي؛ للاطلاع على كل جديد من أخبار متعلقة بكورونا. وفي نفس الوقت كنت أقرأ كثيرًا وأكتب، وأواصل دروسي للطلاب عن بُعد. ما هو أعلى صياغتي ليومياتي كما كانت تحدث، وإن كانت بشيء من التفصيل.

نص

وحدة مفتقدة

م.ف.ن

كانت حركتي محدودة لا تتجاوز نطاق الغرفة إلا نادرًا، كانت الطرود تأتي عليها بمجرد ما يلمح البوسطجي اسمي الأجنبي، لا يخطئ فيّ أبدًا، وفي كثيرٍ من الأحيان عندما لا يعثر على صاحب الطرد، يأتي إلي لأتسلّمه نيابة عن صاحبه، أوقّع له بالاستلام، ويغادر وعلى وجهه ابتسامه لم تفارقه مطلقًا. في مرة كشف لي أنني صاحب أكثر التوقيعات في دفتر استلامه، كان هذا الكشف محاولة إغراء لسؤال أجهضته من على طرف لسانه.

كان البترون في المطعم بمجرد ما أنطق بلغتي الركيكة التي كُلمّا تصنّعْتُ إجادتها أسقطُ في فخاخ صوائت حرفيّ (Ö /Ü) فيعرف أن الطلب لهذه الغرفة. مَلّت عاملة النظافة من بقايا الطعام والأوراق التي أعبئ بها سلة القمامة أسفل المكتب، لم تشتكِ، ولكن نظرتها كلما بدلت الأكياس تقول ما عَجَزَ لسانها عليه، رشوتها كثيرًا بعبوات الشّاي الأخضر التي يحضرها الطلاب كهدايا بعد عودتهم من إجازاتهم، وبقليل من البندق والجوز، ولكن لم تستطع أن تمنع نظرات الضيق، ولكن دون أن تجأر بالشكوى، كان ثمة تواطؤ بيننا وهي التي وشت من قبل بصديقي الذي دخّن في الغرفة، فما أن شمّت الرائحة عند التنظيف، حتى بحثت عن أثر فعثرت على مطفأة السجائر التي صنعها صديقي من فوارغ علبة كنز.

كانت الأصوات غائبة، وكذلك الحديث مفتقد... ثم ظلال تطل لا تقول سوى كلمة أو كلمتين وترحل، كل أضواء البناء تغلق بالتدريج إلا ضوء غرفتي التي تستمر إضاءتها حتى بعد منتصف الليل. ثم صدر القرار بإخلاء المكان. كان عزائي في أصوات ما يأتيني من طرود الصامتين على أرفف المكتبة وفي الصوت الداخلي الذي يأتي دائمًا: أكتب كي لا تكون وحيدًا... أصغي إليه لكن الكلمات كانت تهرب هي الأخرى، في لحظات معينة كانت فريحة تطل دون توقع أو موعد سابق، لكنها كانت تبدّد الوحشة التي سرت في روحي، لكنها كانت أيضًا تذهب فجأة، دون أن أتحقق من حضورها حدث أم كان توهّمات، ويوم أن جاءت في المرة الأخيرة وقبلتني قبلة خاطفة على غير عادتها، ثمّ ودعتني، وقالت وهي تبعد بخطواتها سأفتقدكَ، لم أنتبه لِمَ تردّد في أذني من بقايا كلامها سوى كلمة "تعبت" أؤكّد عليها أنا أيضًا.

وكان أيضًا توهّمات...

- لقد تعبت!

ثمة أصوات كانت تتردد بين الحين والآخر، كنت أجيبها، دائمًا بأفندم. إلا صوت واحد كان يتردد في لحظات صمتي ولم أستطع أن أجيبه مطلقًا، كنت أقول أفندم؟ وما أن أهمّ بالذهاب إليه يكون اختفى. صارت المدينة صامتة والبناء قبرًا.

ناقد وأكاديمي من مصر مقيم في تركيا

حين يصبح الحجْر عملاً مسلّياً

بهاء إيعالي

أمام هذا الحجر المنزلي الذي نعيشه اليوم لا يأتي على بالي سوى مذكرات آن فرانك التي دوّنتها في المهجع حيث كانت لاجئة هي وعائلتها، لما كانت تقضي وقت عمل عمال معمل التوابل في قراءة الكتب لئلا يشعر أحد بوجود أشخاصٍ في المخبأ.

ما يحصل اليوم معي هو اختباءٌ شبيه باختباء آن، لن نأتي على ذكر الظروف المختلفة للحالتين بقدر ما سأجد في اختبائي القسري هذا ما يمكن أن نعتبره استغلالاً كافياً للوقت، ففي البيت، لأقل في الغرفة التي أعيش فيها، أقوم بالعديد من الأعمال التي بإمكانها أن تريحني من ثقل مضيّ الوقت، فغرفتي وإن بدت هندسياً تتمةً لمنزل العائلة، غير أنّني قمت عبر السنوات الماضية بإضفاء بصمتي عليها وسلخ أجوائها عن أجواء البيت العامة، فباتت أقرب إلى بيت مستقلّ لي، لا أغادرها إلا حين أريد تعبئة زجاجة المياه أو جلب بعض الطعام.

هذه العزلة التي رسمتها لنفسي في غرفتي لم تمنعني أن أقيم علاقات جميلة مع باقي أفراد العائلة، أمّي وشقيقاتي الثلاث، هذه العلاقة الفطرية التي تنبع كوني كبير العائلة والرجل الراشد في المنزل، غير أنّه لا يمكن لهنّ أن يتمكنّ من اختراق خصوصياتي، واليوم ومع هذه الحالة الطارئة التي أجبرتني على وضع مسافةٍ بيني وبينهنّ كتدابير احترازية فقد اتسعت دائرة عزلتي عنهنّ وبات من الممكن أن يطلق عليّ اسم "المستأجر الذي لا مغادرة له".

هذا الوقت لا بد أنّه سيمضي، لا خلاف هنا، لكن لكل شخصٍ في هذا العالم أساليبه الخاصة في تمضية هذا الوقت، أما عن نفسي فلديّ العدة الكافية لتطبّق عليّ عبارة خليل حاوي الشهيرة "يا معاد الثلج لن أخشاك/لي خمرٌ وزادٌ للمعاد". لديّ مكتبتان، واحدة ورقية وأخرى إلكترونية، وتحوي الكثير من الكتب التي جمعتها على مدار ستّ سنواتٍ من هنا وهناك وباللغتين العربية والفرنسية. هذه المكتبة التي تملأ وقتي وتجعله ذا قيمة، غير أنّها ليست زادي الوحيد لهذه العزلة، فأنا رجلٌ يكتشف السينما مؤخراً، ومع توفّر خدمة "Netflix" وبرنامج "EgyBest" باتت لديّ قاعدة مميزة لمشاهدة أفلامٍ أقوم باختيارها عبر القرعة، مجموعة أوراقٍ تحمل أسماء أفلامٍ مختلفةٍ أضعها في مرطبانٍ كان لمخلّل اللفت، فلا أستغرب أن تأتي أفلامي مالحةً بعض الشيء.

كما أنّني أحبّ سماع الموسيقى واختيارها بنفس الطريقة التي أختار بها الأفلام وأداعب بين حينٍ وآخر غيتاري حسب قدرتي في العزف.

سأقول إن غرفتي اليوم باتت سجناً، سجنٌ يتلاعب بي في مشهدٍ فانتازيّ مثير، تراه يضيق تارةً ويتّسع طوراً حسب انعكاس الذات داخلي، هذا العالم الذي كان مفتوحاً لي ذات يومٍ إذ بي أراه محدوداً ضمن مساحةٍ لا تتجاوز العشرة أمتار مربعة خلق لي علاقةً جديدةً مع الأصوات المنبعثة من الخارج والداخل، بل تخيّلت أحياناً لو أنّني أفهم بالتأليف الموسيقي لكانت هذه الأصوات اليوم كونشيرتو موسيقي جديد، ولكن...

أسمع بين الحين والآخر عن شعور الفرد بالتهديد جراء ما يحصل اليوم من انتشار هذا الفايروس المستجد، أحاول أن أعود قليلاً لفلسفة التهديد بتذكري لفيلم "The Great Train Robbery" لإدوين بورتر، أتذكّر شخصية المهدِد قاطع الطريق جاستن بارنز وقسمات وجهه. هذا الفايروس اليوم قد تراه الأغلبية العظمى تهديداً حقيقياً للبشرية، قد أجد نفسي أشاركهم هذا الشعور لكنّني لا أحس بضعفٍ أمام قوّة بيولوجيّة لا سابق لي في مواجهتها، ولا بقوّة لركوني في المنزل واستراحتي من أعباء كثيرةٍ متفرغاً لأشياء أحبها، ما أشعر به فقط هو شعور كافة السجناء في هذا العالم، عدميّة مفروضة عليّ.

أفتح درج مكتبي حيث أضع بعض ألبومات الصور القديمة لي، أقلّبها وأعاود تذكّر تفاصيل من حياتي الفائتة، فأجد تعريفاً واضحاً لي بأنّني رجلُ الأحلام الميّتة، فكلّما كنت أكبر كانت أحلامي وطموحاتي تنزلق عن جسدي بدل أن تتسلق عمري الطويل، لأجد نفسي اليوم أحلم حلماً تافهاً، ألا وهو أن أغادر هذه الغرفة نحو عالم مدينتي الواسع، وأن أواعد صديقتي بلقاءٍ على فنجانٍ من الشاي ونزهة على الكورنيش في الميناء، وزيارة جديدة لمكتبةٍ قديمة وسرقة ما تيسّر من الكتب. فقط هكذا.

سيتحدّثون باستفاضة عن أنّ هذا الوباء المرعب ما هو إلا مكيدة ومؤامرة عالميّة لها أغراضها وأهدافها الاقتصادية والسياسيّة.. الخ، وسيأتي الهجوم المضاد من آخرين سيقولون إنّ هذا ما هو إلا ضربٌ من ضروب غضب الأرض علينا جراء تفشّي وباء التلوّث فيها. وستأتي الآراء الدينية القائلة كغضبٍ إلهي على البشر لإلحادهم والآراء الإلحاديّة التي ستثبت عدم وجود الإله لأنه لو وجد فعلاً لكان قد جنّب الأبرياء هذا الخطر.. هذا الكلام لا يعنيني إطلاقاً ولست ممن يصطفّون ضمن طابور رأي محدد، ما يعنيني فقط هو سلامة أهلي وأصدقائي، أكان هذا الأمر حقيقةً أم فبركة.

لطالما كان للبشر مع الأوبئة تاريخ طويل، بحكم تخصّصي في التاريخ والميثولوجيا فقد درست عن تاريخ الأوبئة وأثرها على العالم، فيعود إلى ذاكرتي طاعون أثينا في اليونان، طاعون عمواس في فلسطين وسوريا، الموت الأسود الذي اجتاح العالم القديم بين 1338 و1351، التيفوس الغرناطي عام 1489، الملاريا الأميركية بين 1600 و1650، الحصبة البوسطنية عام 1657، حمى برشلونة الصفراء عام 1821 وغيرها الكثير من الأوبئة التي ذكرها التاريخ بقديمه ووسيطه وحديثه. بيد أنّ كلّ ما يعود إلى ذاكرتي في هذا الوقت هو بعض الأفلام التي وضعتها كقائمة خاصة لمشاهدتها ومنها ما شاهدته ومنها ما لم أشاهده بعد، أذكر منها "the Happening, Warm Bodies"، "the Day after Tomorrow"، "World War Z"، "the Andromida Strain"، "28 Mimic"، "Death in Venice"، "Outbreak"، "the Seventh Seal"، "the Last Man of Earth"، "Days Later".

ولربّما ما أفعله بمشاهدتي لهذه الأفلام هو محاولة منّي لتخيّل نهاية لهذا الكابوس، لا أعلم مدى قدرات العلم على الإسراع في إنهاء هذه الظاهرة وأشكك في فعالية هذا الحجر الذي يعيشه العالم، لكنني متفائل دائماً منذ سمعت جوليا تقول "بكرا بيخلص هالكابوس وبدل الشمس بتضوي شموس".

شاعر ومترجم من لبنان

فؤاد حمدي

الصدمة المربكة

محمد بن زيان

لقد كانت مداهمة الجائحة بمثابة الصدمة المربكة، على الأقل بالنسبة إليّ شخصيا، فأنا بعد سنين إحساس باللاجدوى بدأت أجد معنى لوجودي منذ بداية الحراك منذ ثلاثة عشر شهرا. الجائحة أعادت خلط الأوراق والبحث عن صيغ للتعايش مع وضع حجر صحي ولنا كجزائريين تجربة قاسية مع جائحة أخرى استمرت عقدا، أعني سنوات المحنة الدموية.

"الخوف السائل" بتعبير عالم الاجتماع البولندي الشهير زيغمونت باومان، الذي حلل آلية من آليات مجتمعات عصرنا وهي المتصلة بالخوف فقال "آلية تحاول أن تجعل حياة مليئة بالخوف قابلة للعيش"، وكآلية مقاومة هناك استمرار مكثف في القراءة والكتابة، ومتابعة حصص وأفلام، ومتابعة لما يتم تداوله في مواقع التواصل الاجتماعي.. ولكن تأثير الحجر يربك ولا يتيح ما تتطلبه القراءة والكتابة من تركيز.

ربما لأن الحجر عزل وليس عزلة، العزل إجبار والعزلة اختيار.

كنت أعيد النظر منذ شهور في نصوص مخطوطة لي وأحاول تحضيرها للنشر، ومن بينها نصّ سردي أعدت كتابته بعد ضياع الأصل، وهو نص كتبته عقب اغتيال بختي بن عودة وفي الإعادة قمت بمزج بين سيرتين، سيرة بختي ورفاقه وسيرة شباب مثقف تواصلت معهم في عام الحراك، وبمداهمة الجائحة أحاول كتابتها سرديا كمقاومة، كتابة تستعيد مرجعيات كـ "كشف الغمة" للمقريزي.

مع الكتابة أحاول قراءة ما أمكن من كتب متصلة بالمشاريع التي أفكر فيها، وأقرأ بعض الأعمال الإبداعية.

يكتسح الاضطراب يومياتي، فلحظات ينتابني الملل والقنوط، وأستدرك بمواصلة القراءة والكتابة ومشاهدة الأفلام ومتابعة الفايسبوك.. لكن مع الوقت صارت أخبار الجائحة تثير الضجر فأحاول تقليص متابعة النشرات الإخبارية.

نظرا لتراكمات ظروف خاصة، لم يحدث تغير كبير فإحساس الغربة والعزل لازمني منذ سنوات، ولكن العزل الإجباري يضاعف الإحساس لأن العزل قهر والعزلة خيار.

فضائي الشخصي بسيط جدا وليس فيه ما يشحن بالحيوية ولا ما يحقق التعويض، ولكن بالتعود تآلفت مع وضعي.

أتمرّن يوميا على استرجاع الذاكرة وإعادة تمثلها لتجاوز عقدها، ولتحيين الصلة بمن عرفت، ولقد بدأت منذ فترة كتابة شذرات عن كل من عرفت في حياتي وهذا ما يسعف على التحمل.

العزل يشعرني بالضعف والهشاشة، ولكنه شعور رغم تراجيديته رائع لأنه تشكيل لمرآة التآلف مع الذات وإدراكها، وهو ما يقلب الضعف قوة، لأن الضعف نقصان والنقصان مؤشر حياة، لأن تمام القوة اكتمال وتحقق الاكتمال هو الموت.

العزل يحرّك جمر الذاكرة، ويتيح إمكانية رؤية أفضل بتوفيره مسافة التحرر من الالتباس.

التجربة حلقة أخرى من حلقات صاغت سيرتي، وكل حلقة تشعرني بالتهديد المصيري، وكل مرة أواجه التلاشي.. وعقبه أتشكل.

العزل هو تهديد وجودي، لأنه خلخلة وهدم لمعيارية سلوكية، لمنظومة تواصلية.. والتهديد يستفز غريزة البقاء الكامنة ويكون محك اختبار أهلية الوجود.

الخوف رافقني باستمرار من الغد، خوف مزمن، لكن الجائحة علّمتني درسا جوهريا هو استثمار اللحظة وعيشها فالآتي لا يمكن مهما كانت دقة الاستشراف والإعداد تمام التأمين.

ما يحدث ملتبس، والأهم البحث عن خلاص بدل الاستغراق في إعادة سرديات المؤامرة، لأن المؤامرة دوما مصاحبة للتاريخ، والجائحة هي تصريف لعبث المخابر وللتلاعب بالتوازن الحيوي المتمادي منذ عقود، وقد تكون إنذار الطبيعة الثائرة على المدمرين.. وربما عبّر المخرج الكندي جامس كامرون عن ذلك في فيلمه الرائع "أفاتار".

الجائحة أعادت إلى البال كتاب المقريزي "كشف الغمة" وما كتبه بعض المؤرخين عن أهوال الاجتياح المغولي لبغداد، ومشاهد الموتى بالوباء في ثلاثية محمد ديب، وفي "الطاعون" لكامي، وما كتبه شكري في "الخبز الحافي" عن البؤس الفظيع.

كما حضرت في البال أفلام صوّرت بروعة مشاهد قيامية كفيلم "حماية كتاب" (The book of Eli)، من بطولة داينزل واشنطن، وفيلم "حرب الزومبي" العالمية بطولة براد بيت، وفيلم "أنا أسطورة" بطولة

فؤاد حمدي

ويل سميت.

الجائحة كابوس سينتهي كما انتهت كوابيس قبله، لكنه سيكون فاتحة لمرحلة أخرى وربما سيتجاوز تأثيره على وجهة الأمور ما ترتب عن أحداث الـ11 من سبتمبر 2001، وهناك تفاؤل بقدرة العلماء والأطباء للتوصل إلى لقاح، ولكن المخيف فايروسات متوقعة مستقبلا.. وأعتقد أن الجائحة كانت هزة أو صدمة جاءت بعد أن تجاوزت المنظومات المهيمنة الحدود، وبعد أن تم تجريد السياسة والاقتصاد والعلم من الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية.

أعتقد أن التغيّر سيكون كبيرا وشاملا، تغيرا في الصياغات الجيو . استراتيجية، تغيرا في السلوكيات الفردية وإعادة الاعتبار لقواعد الوقاية والطب الاجتماعي.. وربما الأساسي هو إعادة الصياغة لنظرتنا للزمن.

بعد حوالي ربع قرن تمكنت في بداية السنة من استعادة التآلف مع جماعة أعادت وصلي بالجماعة التي تبددت عقب اغتيال بختي بن عودة، وأخشى أن يتبدد التآلف مع الحجر، أخاف أن يؤثّر العزل على ما بدأ يتشكل.. أخشى أن تؤثر يوميات العزل على ما بعدها.. ولكن المرعب في الجائحة أنها حولت كل واحد منا إلى مصدر تهديد لغيره، كل منا صار قابيلا، وفي كل قابيل يكمن هابيل.. أخشى كل ما يدمر ما تشكل من إرهاصات عام الحراك.

هو صراع بين القنوط والأمل، قنوط تضاعفه رتابة العزل وأمل تبثه بعض منشورات الفايسبوكيين الذين يحثون على الصبر والصمود، ويعيدون بالافتراضي الوصل بما فصله العزل.

كاتب من الجزائر

ملف

مصاباً بفايروس الكتب

محمد الحجيري

قبل أن يطلّ كورونا بأشباحه وفخوخه ودكتاتوريته ولامرئيته، كنت في شبه حجرٍ، أذهب إلى العمل ساعات قليلة ومحدودة في الأسبوع، بحكم الظروف والطلب وإثبات الوجود، وأعود إلى الروتين المنزلي وإرسال المقالات أونلاين، ذلك أن الإنترنت بدّل كثيراً من معايير العمل وألغى المسافات واخترع اللامكان والعالم الافتراضي.

أميل إلى البقاء في البيت معظم الوقت، حاجراً نفسي مع فرانز كافكا ومواراكامي وأبي حيان التوحيدي والرصافي وديستويفسكي وربيع جابر والأساطير اليونانية والعربية، يمكن أن أصف ذاتي بكائن المكتبة الهش، وأمضي يومياتي مصاباً بفايروس الكتب، حتى إذا ما أردت دخول الحمام، لا أدخله من دون كتاب، كأن تلك اللحظة لا ينبغي أن أضيعها، حتى في زحمة السير أفكر ما إذا بإمكاني قراءة جملة أو جملتين.

في زمن كورونا والحياة في ظل دكتاتورية مقنعة من نوع آخر، أروح أتخيّل لو أن الفايروس يخرج من كتابٍ من كتبي، أو أن الكتب مصابة بفايروسات وتقتل من يقرأ فيها. خيالات ركيكة وليست جديدة بالطبع، لكن رواية انبعاث كورونا من الوطواط، تحمل الكثير على التخمين.

في جوانب الكتب، تُحدثنا ألف ليلة وليلة عن كتاب قاتل، يموت كل القراء الذين يجازفون بقراءته، وقد مات أحد الملوك بعد تصفحه وكان ذلك بمثابة انتقام متأخر واستثنائي من طرف أحد الحكماء الذي تمت معاملته بشكل جائر.

الكتاب القاتل في ألف ليلة وليلة صار كتاباً مسموماً في رواية أمبرتو إيكو "اسم الوردة"، فأمين المكتبة الأعمى، وهو شخصية مستوحاة من بورخيس، سمّم كتاب أرسطو "الشعر" كي يموت كل من يقرأ فصول الضحك التي تتعارض مع قوانين الكنيسة الصارمة، ثم التهم الكتاب وأحرق المكتبة في النهاية.

المهم أني قبل كورونا وخلالها وربما بعدها، أعيش مع فايروس الكتب ومصاباً به، لكن مكتبتي تخلو من أيّ كتاب عن الفايروسات أو تستبعد أيّ كتاب عن الخيال العلمي، وإن كنت في مرات كثيرة أحبّ أدب الديستوبيا واليوتوبيا، لكن كورونا في مشهديته ويومياته وتفاصيله ووقائعه، جعل أدب الخيال العلمي نقطة في بحر، ربما لم يعد ضرورياً أن نقرأ الخيال العلمي أو أدب الأوبئة طالما أننا نعيشها.

وفي الوقت نفسه ذهنية المؤامرة وشبحية الفايروس ستخلق وتدفع إلى ولادة الكثير من النصوص والأفلام إلى الوجود. الوطاويط بحد ذاتها كانت عنوانا لعالم الليل والكهوف والخيال، وأن تصبح مصدر فايروسات فهي ستقلب المعايير في الكتابة، حتى طرق مكافحة الوباء ستكون مصدراً لتدوين أنماط روايات وتقديم أفلام سينمائية.

قبل أن يطل كورونا بأشباحه، لم تكن الجرذان التي غزت وهران الجزائرية تخرج من رأسي، صورة قرأتها في رواية "الطاعون" لألبير كامو، تلك الرواية مكتوبة بشكل موارب عن الأوبئة الأيديولوجية، النازية وما فعلته في أوروبا وفرنسا تحديداً.

وكورونا برغم الهول الذي أحدثه، أعتبره، أنا الجالس بين أربعة جدران، تفصيلاً مقارنة ببراميل بشار الأسد وسكاكين داعش وسيوف الميليشيات الإيرانية، تلك اللحى المسمومة أكثر خطورة من كورونا، بل تلك الأوبئة الأيديولوجية الدينية أو العقول المصابة بكورونا الغيب وكورونا الأقليات أكثر خطورة عليّ من الأوبئة الآتية من الطبيعة.

أن يعيش المرء ثوران بركان أو تداعيات إعصار أو شبحية فايروس فهذا من الأمور النافلة، وإن كان الفايروس يعيد ترتيب العلاقات من جديد، لكن مشكلة "الهويات القاتلة" تبقى الخطورة الدائمة التي ولدنا في قلبها في الشرق الأوسط ولم ننج من براكينها، وهي في كل مرة تأتي بأشكال مختلفة.

فايروس الكتاب الأحمر أيضا الذي اخترعه ماو تسي تونغ كان أكثر خطورة من كورونا، جعل ماو في ثورته الثقافية الصينيين حقل تجارب لأفكار مزاجية واستبدادية، يقال إن كورونا أكثر ما يؤثّر على المتقدمين في السن، أما فايروس الكتاب الأحمر فقضى على كل معارض أو من يفكر أن يكون معارضا، صنع الاستبداد الشرقي أقصى تجلياته، والاستبداد الشرقي سيعود ليحضر في الحرب على كورونا.

وبغض النظر عن التنظير، يوم خبرنا بأول إصابة كورونا في بيروت، كان الأمر كافيا لأتوقف عن الذهاب إلى العمل، وأُمتنع عن جلب المزيد من الكتب إلى المكتبة المتخمة . لم تكن المسألة أني حجرت نفسي بين

فؤاد حمدي

أربعة جدران بشكل إرادي، فهذا الأمر اعتدته، فقد سبق حجر كورونا أن المصارف اللبنانية حجرت على أموالنا، الاستيلاء على أموالنا جعلنا نقف كمتسولين على أبوابها بانتظار 100 دولار، بمعنى آخر كورونا الاقتصادي سبق كورونا يوهان. كنا نتوهم أننا نضع فلساً في متاهة المصارف اللبنانية، ظناً منا أن الفلس نحتاجه في لحظات الشدّة، "خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود"، فإذا بالوباء المصرفي يسطو على قوت يومنا.

وباء المصارف اللبنانية سبق وباء كورونا، وإذ اتأمل الآن الأشهر أو السنوات القليلة الماضية في لبنان، فأحسب أنني أعيش بين موجات أوبئة، كأنها بروفا مصغرة ليوم القيامة، فخلال مدة قصيرة رأينا مشهد النفايات المتراكمة في الشارع، ولاحقا طوفان الطرق هنا وهناك، وحرائق مستعرة في كل المناطق الجبلية، وطرقات مقطوعة بسبب الثورة. وسط هذا عاش ابني عطلة مدرسية شبه مفتوحة، جعلته يشعر بالمقت بين أربعة جدران، وعلى هذا لم أكن أشعر بأني بين أربعة جدران، بقدر ما شعرت بشعور ابني الذي بات يقاتل نفسه ويقاتل كل شيء.

القضية، هل ألبّي طلبات الابن أم أكتب، طالما اشتكت عائلتي مني بسبب فايروس الكتب، ربما أحتاج حجراً نفسيا لأخفف من وطأتها ومتاهتها ورملها، والرمل هنا ما قصده بورخيس عن لانهاية الكتاب، في زمن كورزنا أحاول أن أسرق الوقت، للكتابة، أقاوم النوم مقاومة شديدة، فأنا أنتظر لحظات آخر الليل للاختلاء بنفسي مع بعض فايروسات الكتب، وأبقى قبالة شاشة اللابتوب إلى أن أنهك وأستسلم، الاستراحة النفسية القليلة التي تحصل في زمن كورونا حين أذهب إلى جلب النسكافيه، أو قد أطل على الشرفة لدقائق أستطلع شارع كورونا وناسه.

لا أشعر أني في سجن، ولكن مجرد أن اذكر تداعيات كورونا، أحسب أني في بروفا على نظام استبدادي جديد، وأفكر بأشباح يقولون إنها متوفرة على أي شيء، بل أتخيلها بحجم نيازك تضرب الأرض وننعم بعالم آخر.

أحسب أن كورونا يرشدنا إلى تفاهة الوجود، إذ أن فايروسا غير مرئي يقدر أن يجعل المرء جثة هامدة، من قبل كنا نسخر من الحياة نقول للآخر حقك رصاصة ثمنها دولار، اليوم أقل من فايروس، قدر هذه الشبح أن يلغي السينما والمطعم والمقهى والمونديال وكل أشكال التجمعات، بل قدر أن يهز العالم الأول قبل العالم الثالث، إيطاليا قبل اليمن، وإيران قبل غزة، وأميركا قبل غانا.

لا أستسيغ الكتابة ضمن موجة أدب الديستوبيا ولا أقدر على ذلك،

فؤاد حمدي

فأنا ميال إلى جعل الواقع الذي أعيشه أقرب إلى الخيال والهذيان وليس الخيال أقرب إلى الواقع، أتخيل لو أنهم يتركون فايروس كورونا يتمدّد وينتشر من دون أيّ إجراءات وقائية وكمامات ومنظفات وأجهزة تنفس ومستشفيات ميدانية، وأسأل إلى أين سنصل وإلى أين سيصل؟ الطاعون الإسباني قتل من الأشخاص بعدد قتلى الحرب العالمية. هل الأرض بحاجة إلى أن يتقلص عدد سكانها؟

أتخيل تمدد كورونا من دون مقاومة هو مثل مشهد طوفان نوح بمعناه الأسطوري، كثيرا ما أتأمل الكون في ظل الاحتباس الحراري بأنه ذاهب نحو طوفان جديد، ثلوج تذوب في القطب الشمالي، غابات تحترق من الأمازون إلى أستراليا، ملايين الحيوانات تنفق، مدن تختنق بالتلوث، أنهار تجف، بحار تتلوث، ملايين الأطنان من البلاستيك هنا وهناك، بحر بلا سمك، سماء بلا طيور، وأنا أدوّن أتذكر رواية "العمى" لجوزيه ساراماغوا، أسأل في مخيلتي لو كان على قيد الحياة، ماذا كان سيكتب عن حجر مئات ملايين الأشخاص في البيوت.

لم أفكر يوما بالقيامة ومجيئها، أحسب أن الحياة نفسها هي القيامة وهي القيامة الدائمة، أتأمل كيف سينتهي الكابوس العالمي، لا أحسب أن القضية تحتاج الكثير من الجهد في زمن تطور الطب، فالحاجة أمّ الاختراع.

قصة متخيلة

كورونا: سأجعل الكتب مجرد صفحات بيضاء

رأيت في ما يرى النائم أن فايروس كورونا صار يتكلم ويعظ ويخبر قصصاً، وأخبرني فيما أنا نائم وغاطس في نومي، وكان يشبه في شكله أفلام كرتون ويجلس على حافة النافذة، تحت ضوء قمر بلون الأرجوان، أخبرني، أنه الآن يطارد البشر ويجعلهم يخسرون الاقتصاد والثقافة والرياضة والجلسات في المقاهي والحانات وإقامة حفلات الأعراس وحتى دفن الموتى، بل أثبت للبشر أن تطورهم ما زال هشاً، ثم أردف، قد أهزم الآن في مواجهة الجنس البشري، لكنهم لا يستطيعون سحقي، ستأتي اللحظة التي أطوّر معها نفسي وأكون أكثر شبحية، وأطير في الهواء. أعلمك الآن، أني في المرحلة المقبلة بعد سنوات، سأصيب ذاكرة الناس، سأجعل الحروف تختفي من الكتب وتصير مجرد صفحات بيضاء، بل سأجعل كل عقود التجارة والتأمين والمصارف تصير أوراقاً بيضاء، وتختفي كل صفحات الفايسبوك وغوغل، وتكون محنة البشر هي في كيف يعيشون إذا فقدوا الذاكرة.

كاتب من لبنان

ملف

عزلتي المثمرة

عواد علي

فوجئت، مثل غيري، بوباء "كورونا" المستجد، الشرس الذي أخذ يفتك بالبشر، ويشيع الهلع في كل مكان، ويعزل دولاً ومدناً بكاملها، وراحت مخيلتي تشطح في البداية إلى تصوره كائناً خرافياً، أو مارداً جباراً شبيهاً بمردة الأساطير وحكايات الجدات يتربص بالناس، أو يجتاح قراهم وبلداتهم ويقضي عليهم بقوته الخارقة. ثم حملتني التداعيات إلى استدعاء أسطورة "إرّا" البابلية، التي تقول إن إله الطاعون "إرّا" اقترح على كبير الآلهة "مردوخ" بالتنحي عن عرشه مدةً من الزمن، بسبب عجزه عن السيطرة على البشر لما ناله من ضعف وخوَر، كي يحلّ محله، ويؤدّبهم ويعطيهم درساً لن ينسوه أبداً. وقد حرّضه على ذلك وزيره إيشوم وأسلحته السبعة التي باتت تشكو من الصدأ لقلة الاستعمال، وما إن استجاب "مردوخ"، ومضي إلى الاستجمام والراحة حتى بدأ "إرّا" بإهلاك معظم سكان سومر وأكدْ في بلاد الرافدين بعدد من الكوارث الطبيعية والمفتعلة، بذريعة ازدياد عددهم، وكثرة ضوضائهم التي أزعجت الآلهة، فضلاً عن استخفافهم بها، وازدرائهم كلامها، وتصرفهم وفقاً لما ترغب فيه قلوبهم. لكن إيشوم يعدل عن موقفه بعد أن رأى هول الكارثة، ويأخذ بتوجيه النصح لسيده عله يوقف حملته الكاسحة، ويفلح أخيراً في مسعاه.

***

قبل ظهور هذه الجائحة كنت على قناعة بأن التطور العلمي، والمنجزات المتقدمة التي حققها الإنسان على الصعيد الطبي قد حصّنت عالمنا اليوم من شرور الأوبئة والأمراض التي ضربته في الأزمنة الغابرة، وأن ما يقلقنا فقط هو كوارث الحروب والمجاعات والفيضانات، مع الأمل بقدرة المجتمع الدولي على تجاوزها، أو التخفيف من أعبائها. لكن تفشي الجائحة بهذه السرعة في كل أصقاع العالم، وحصدها آلاف الأرواح، خاصةً في الدول المتقدمة، صدم قناعتي وبخّر أوهامي. ولم أجد بدّاً من الالتزام بالعزلة، أو الحجر الصحي في البيت، تنفيذاً للتدابير الوقائية المتخذة لمواجهة الفايروس، وإنجاز الأعمال التي يتوجب عليّ إنجازها من خلال الكومبيوتر. ثم جاء إعلان الحكومة تفعيل "قانون الدفاع" القاضي بحظر التجوال ليدفعني أكثر إلى لزوم البيت، والتواصل مع العالم عبر وسائل التواصل الاجتماعي في الإنترنت. وقد هالني ما صرت أقع عليه من منشورات وأخبار وأفلام ولقاءات مع أطباء عن تطورات الفايروس، وتدابير الدول للحد من انتشاره، ومعها الكثير من خطابات الرؤساء والملوك والأمراء، والإشاعات والتلفيقات والتراشق بالاتهامات بين كبار ساسة العالم، خاصةً ساسة الولايات المتحدة والصين، في سياق نظرية المؤامرة.

وأكثر ما أزعجني خلال متابعتي لتلك المنشورات والأخبار التصرفات الحمقاء التي شهدتها بعض المناطق في محيطنا العربي والإسلامي، والتي تنمّ عن جهل أو تشبث ببعض المعتقدات، مثل المسيرة الليلية في مدينة الإسكندرية التي تجمّع فيها المئات تضرعاً لإزاحة الوباء، وحشود الزائرين في بغداد إلى إحدى العتبات المقدسة، واندفاع ملايين الإيرانيين إلى الشوارع للاحتفال بعيد نوروز، غير مبالين بتحذيرات العالم من خطورة التجمعات، في حين أن أكثر ما أعجبني قول طبيب هندي إن "هذا الفايروس له عزة نفس كبيرة جداً لن يأتي إلى منزلك إلا إذا خرجتَ ودعوته".

وبمرور الوقت صرت أخفف من متابعة تلك المنشورات والأخبار، وأنكفئ على القراءة والكتابة، ومشاهدة الأفلام الروائية التي أحتفظ بعدد وفير منها في جهاز الكومبيوتر، أو تلك التي يقترح عليّ بعض الأصدقاء المعنيين بالسينما مشاهدتها. وأغلب ما كتبته مقالات عن المسرح أحدها حول تمثّلات المسرح العالمي والعربي للأوبئة بدءاً من مسرحية "أوديب ملكا" للشاعر المسرحي الإغريقي سوفوكليس، التي تدور أحداثها في مدينة "ثيبة"، حيث تغضب الآلهة فتنشر مرض الطاعون فيها جراء الدنس الذي ارتكبه أوديب بقتله أباه وزواجه من أمه، وانتهاءً ببعض المسرحيات العربية التي تناولت أوبئةً عديدةً، وما تركته من آثار وتحديات على مختلف الأصعدة. ومقال آخر عن حيلولة "كورونا" دون احتفال المسرحيين في العالم بعيدهم هذا العام، الذي مر يوم الـ27 من مارس، كما كانوا يفعلون كل عام، وما خلّفه ذلك من غصة في نفوسهم.

كما واصلت كتابة عملي السردي الجديد، وهو رواية ذات منحى

فؤاد حمدي

فانتازي أفترض فيها مجيء الملك الآشوري آشور ناصربال الثاني، مع أسرته وحاشيته، بقارب شراعي، إلى مدينة أرابخا (كركوك الحالية)، التي شيّدها أثناء حكمه، ليتفقد أحوالها، إحساساً منه بأنها تعاني من انعدام الأمان، وأن مجموعة أقوام تتنازع للاستئثار بها. ويلتقي في المرفأ، صدفةً، بطالب آثار من أبناء المدينة خرج إلى التنزه على ساحل البحر، ويغريه بهدية ثمينة مقابل تسهيل دخوله ومرافقيه إلى أرابخا، فتحدث مفارقات عجيبة خلال وجوده فيها، مستغرباً الحال التي انتهت إليها، بينما كانت في ما مضى مرتعًا لأناس من شتى المنابت، يتعايشون في ألفة رائعة، دافئين وهادئين، مثل أسماك مضيئة، لا تكدّر صفوهم أطماع قبلية ولا إثنية.

شاهدت على مدى عزلتي أفلاماً مختلفةً، سياسيةً وتاريخيةً واجتماعيةً أوروبيةً وأميركيةً، منها الفيلم السويدي "المهاجرون"، المنتج عام 1971، للمخرج يان ترول، وهو ملحمة درامية زاخرة بالشخصيات المؤثرة، والصراع الأخلاقي، والمواقف الإنسانية المتقلبة، تروي حكاية

فؤاد حمدي

مزارعين سويديين فقراء، من مقاطعة سمولاند، تضطرهم ظروف حياتهم السيئة أواخر القرن التاسع عشر إلى الهجرة من قريتهم صوب ولاية مينسوتا الأميركية في رحلة بحرية وبرية طويلة، مليئة بالمشاق والمعاناة، بحثاً عن حلم الوفرة في القارة البكر.

كذلك فيلمٌ "الصيد" الدنماركي، المنتج عام 2012 ، للمخرج الدانماركي توماس فنتربيرغ، الذي يحكي قصة معلّم في روضة، منفصل عن زوجته، تكاد تتحطم حياته بسبب كذبة تختلقها طفلة من خيالها الواسع مفادها أنه تحرش بها جنسياً. لكن مديرة الروضة تتردد في تصديقها، أولَ الأمر، حتى تستدعي مسؤولها الذي يستجوب الطفلة، فتشيع في القرية "حقيقة" أن المعلم مريض جنسياً، ويجب على الأهالي الحذر منه، خاصةً أن الأطفال الآخرين صدقوا الكذبة، وراحوا يضيفون إليها من أخيلتهم.

وكان لا بدّ أن أشاهد فيلم "عدوى" الأميركي، المنتج عام 2011، إثر إحياء وباء كورونا شعبيته. وهو من إخراج ستيفن سودربرغ، وتدور أحداثه حول وباء ينتقل بفعل فايروس عبر اللمس والهواء، ومحاولات الباحثين والمختصين السيطرة عليه، والتداعيات السلبية له على النظام الاجتماعي، على غرار ما يحدث حاليا نتيجة لتفشي فايروس كورونا.

وآخر ما شاهدته فيلم الدراما النفسي الرائع "المنارة"، وهو انتاج كندي أميركي بالأسود والأبيض عام 2019، من إخراج الكندي روبرت إيغرز، مستوحى من قصة غير مكتملة للكاتب الأميركي أدغار آلان بو، ومستفيدا من أجواء مواطنه الروائي هيرمان ميلفل في روايته الشهيرة "موبي ديك"، وتجري أحداثه في القرن التاسع عشر حول حارسيْ منارة في جزيرة معزولة عن الحياة في (نيو إنجلاند)، أحدهما العجوز "توماس ويك"، الذي سكن المنارة أكثر من ثلاثين عاماً، والثاني شاب يُدعى "أفرايم وينسلو" مُساعد حارس المنارة المستجد، الذي كان من المُفترض أن يمكث أربعة أسابيع فقط، لكن الأمور تتطور، في إطار ميتافيزيقي غريب، ليتحول الاثنان إلى مهووسَين بسبب عاصفة هادرة تضربهما وتفقدهما صوابهما. ثم تسود الكراهية بينهما عندما يرفض العجوز السماح للشاب بالوصول إلى قنديل الضوء في الأعلى، إذ كان يرده دائماً بقوله إنه ينتمي للضوء والضوء ينتمي إليه وحده، لكن ذلك كان ينمي داخل الفتى اليافع الفضول الذي يدفعه إلى تحقيق رغبته في عزلة ذلك المكان القصي.

وقد حاول بعض النقاد إسقاط شخصيتَي الفيلم على شخصيتَي "بروميثيوس" (سارق النار) والإله "زيوس" في الأسطورة الإغريقية، لكن نقاداً آخرين لم يجدوا مسوّغاً لهذا الإسقاط، خاصةً أن الفيلم واقعي حصلت أحداثه في القرن التاسع عشر. كما أنهم رفضوا إدراجه في خانة أفلام الرعب لمجرد وجود حالة توتر مرعبة في العلاقة بين الحارسين وتصاعدها.

كاتب من العراق مقيم في عمان

ملف

كيف تجد معنًى لأيامك في العزل

ناهد راحيل

1

إذا كنت تجلس مثلي لساعات طويلة في غرفتك تحت العزل الإجباري ولا تجد شيئا تفعله، ضع لنفسك خطة يكفي تنفيذها أسبوعا بشرط أن تحميك من الملل ومن الوسواس القهري.

كنت قد ترجمت لتوي قصيدة للشاعر ألموج بيهار بعنوان "كيف تختفي داخل جسد امرأة"؛ وهي قصيدة يحاكي فيها نص الكاتب المصري هيثم الورداني "كيف تختفي"، فكان أول ما فعلته هو معاودة قراءة النص العربي ومحاولة تتبع نصائح الورداني الإرشادية في كيفية الاختفاء حتى نهاية فترة الحجر، ثم تطبيق إرشادات معاودة الظهور مرة أخرى بعد مرور العاصفة.

كانت تلك هي الصيغة الخيالية كي أتعامل مع أيّام العزل، أما الصيغة العملية فتمثلت في وضع خطة بديلة تمرر الوقت وتحميني من الملل - الذي أنا بارعة في ممارسته حقا -، وتجعلني أتغلّب على وسواس الإصابة المؤكدة.

احترت في ترتيب البنود؛ فكانت عاداتي الروتينية تقفز أمامي فارضة نفسها على الخطة وهو ما كنت أتجنبه؛ فالخطة هدفها الأساسي القضاء على الملل ولن تساعدني عاداتي في ذلك، خاصة بعد أن أجبرني العزل على تغييرها أو إضافة عادات يومية جديدة مربكة. فمع تنفيذ إجراءات السلامة الصحية للوقاية من الفايروس، وضعت قائمة بالكتب المؤجلة التي لم يسمح لي الوقت بقراءاتها سابقا، وأخرى بالكتب التي أرغب في إعادة قراءتها. وإذا كانت تساعدك العناوين فهي - إلى جانب "كيف تختفي" للورداني - كالتالي: ثلاثية أغوتا كريستوف "الدفتر الكبير - البرهان - الكذبة الثالثة"، الأعمال الشعرية الكاملة لبسام حجار، وكان الكتاب المناسب لتلك الفترة هو "فن اللامبالاة" لمارك مانسون.

2

تغلب على إحساسك بالملل وابتعد عن وسائل التواصل الاجتماعي وتحلّى بالجهل حتى تنعم بالراحة، ونم أطول عدد من الساعات.

ساعدتني تلك القائمة في الابتعاد عن وسائل التواصل الاجتماعي بأنواعها، وهنا أعترف بإصابتي بالذعر كلما سمعت أخبارا عن عدد الإصابات المتزايد وما يستجد على عدد الوفيات كذلك.

قمت بالالتزام بعدم التطلع إلى شاشة الفيسبوك، كإجراء يتماشى مع اجراءات السلامة الصحية والنفسية التي قررت تطبيقها، ورغم ذلك أصر الأصدقاء على دعوتي لصفحات التوعية بفايروس كورونا وعلى إضافتي في مجموعات الواتساب المهتمة بالأمر نفسه، فما كان مني إلا تفعيل خاصية "عدم الإزعاج" ولمدة عام.

اعتقدت أن الجهل بالمعلومات يناسبني، مطبقة مقولة "مارك توين" بأن كل ما أحتاجه للنجاح في الحياة هو الجهل والثقة؛ خاصة بعد اختباري لأعراض الإصابة بالمرض حتى لو كانت أعراض وهمية، فمشاعر الخوف كانت سريعا ما تنتقل إليّ في صورة من نوبات الهلع مع كل صوت من إشعارات الفيس بوك والواتساب، فأصبحت أتخيل الفايروس بتيجانه المميزة يهاجم حنجرتي وينغرس داخل رئتيّ.

ورغم أن الأزمة إنسانية عامة أصابت العديدين على سطح الكرة الأرضية؛ فإن مشاعر الخوف - أو لنقل مدى الإحساس به - هي مشاعر فردية، تماما مثل شعار التوعية "خليك بالبيت" (stay home) فاحتمالية تطبيقه فردية، فهناك العديدون ممّن لا يملكون بيتا - بمعناه الحقيقي أو المجازي - لذلك كان عليّ أن أجد الصيغة المناسبة لأتغلب على مشاعر الخوف أو على الأقل أحدّ من تأثيره، فكان النوم لأطول فترة ممكنة سبيلي في ذلك.

3

إذا كنت تحبّ الشعر مثلي، ردد لنفسك الأبيات الشعرية التي تحبها والتي تنمي داخلك المشاعر الحيادية تجاه الأمر؛ فلن تأمن عواقب الانحياز.

كانت جملة محمود درويش -الختامية بالذات- "في البيت أجلس، لا حزينا لا سعيدا، بين بين" هي الجملة التي سيطرت على تفكيري وبت أرددها لمرات. أنا، التي لا أقف من المشاعر إلا على طرفي نقيض، دربت نفسي على الحياد؛ فلا داعي للانحياز إلى الأمان الزائد الذي يجعلني أتنازل عن الحرص، أو إلى الوسواس المرضي الذي قد يحرمني من ممارسة الحياة.

فؤاد حمدي

4

قم بتغيير شعاراتك، فقد تغدو أنت استثناء القاعدة.

بدأت أشك في فاعلية بعض قناعاتي الخاصة، مثل قاعدة "يحدث للآخرين فقط" خاصة بعد إصابتي بالأنفلونزا، لم أكن أعرف حينها إن كانت الأنفلونزا أم كورونا؛ لذلك انتقل خوفي من إطار الذاتية إلى نطاق الغيرية.

ورغم التزامي بجانب الجهل؛ فإنني اطلعت على فيديوهات طرق حماية الآخرين من انتقال العدوى، وتعلمت حساب النقاط التي تفرق بين أعراض كلا الفيروسين والتي جاءت متساوية لتجعل الاحتمالين قائمين.

لم يكن الموت هو ما يقلقني، لكن ما قد يسبقه من آلام، وأكثر ما أرّقني هو خوفي على من يلازمني خاصة أمي؛ التي أقضي الليل برفقتها لمشاهدة حفل أم كلثوم ثم نتابع حلقتين من المسلسلات الأجنبية التي تحبها؛ وأختي نهلة التي أشاركها الغرفة نفسها ونقضي ساعات طويلة سويا في الدرس والمذاكرة، وفي اللهو والمشاكسة كذلك.

فارتيدت الماسكات والقفازات داخل البيت طالما كنت أشعر بأعراض المرض من سعال وارتفاع واضح في درجة حرارة جسدي. وبعد انحسار الأعراض تخليت عن الماسك والقفاز، لكن لم أتخلّ عن تطهير الأسطح والمقابض وشاشات التلفزيون واللاب توب والموبايلات.

5

طبق الطرح الفوكوي ومارس سلطتك على جسدك وانشغل بتحديد متطلباته الجديدة وتكيف مع مساحاته الملزمة.

يرى ميشل فوكو أن الجسد "هو أول موضوع تمارس عليه السلطة فعلها"، ويؤكد دافيد لوبروتون كذلك على أن "الشرط الإنساني جسدي في الأساس". وقد مارستُ سلطتي المحدودة على جسدي، بعد أن مارستها عليّ السلطة الأكبر التي يمتلكها الفايروس المهدد لشرط وجودي الإنساني.

وعاودني من جديد كابوس التآكل من الداخل، والآلام التي قد تصاحبه

حتى أتلاشى تماما، صحيح أن الألم دليل على أن جسدي يعمل بكامل كفاءته؛ لكنه مؤشر الانهيار كذلك؛ فما كان عليّ إلا أن أحارب هذا "التآكل الداخلي" بمحاولات ترميم خارجية. ليسجل جسدي هذه الفترة رقما قياسيا في امتصاص العقاقير المعززة للمناعة وفي استقبال الفيتامينات المقوية، وعرف الكحول طريقه إلى يدي، ورغم ما يسببه من جفاف فإنني وجدت حلا فعالا باستخدام الكحول نهارا ومرطبات الأيدي ليلا.

لم يكن تحديد المسافات صعبا؛ فأستطيع أن أحافظ على المسافات جيدا، لكن إلزام يدي بعدم ملامسة وجهي كان التحدي الأكثر صعوبة لعادتي الغريبة في الحك فوق أنفي أثناء التفكير أو في أوقات الانشغال، فلم يكن هناك حلّ سوى عدم التفكير - وهذا مستحيل - أو البقاء مكتوفة الأيدي أثناء وجودي خارج البيت - وهو ما وجدته مناسبا -.

6

لا تجعل خيباتك في بعض البشر تسطير عليك وتذكر أنك خيبة أخرى لغيرك، وأحط نفسك بمن يهتم بك وبوجودك.

علمت أنها الفترة الأمثل لتداعي الذكريات الخاصة بكل الخيبات التي تعرضت لها من البشر - أصدقاء أو أحباء -، وتذكرت كوني خيبة محتملة في حياة الآخرين أيضا، فساعدني الابتعاد عن "دور الضحية" على تخطي تلك الذكريات وعدم السماح لها بالسيطرة على أفكاري. بل وجعلني أكثر تسامحا حيال غياب بعض الأشخاص، الذين لم أتوقع انشغالهم عني في تلك الفترة، والتمست لهم العذر؛ ولنفسي كذلك للوقوع في الخطأ نفسه. واكتفيت بهذا العدد القليل - لكن الحقيقي - ممن يحيطون بي.

7

إذا تجدّدت مدة العزل، ضع لنفسك خطة أخرى تحميك من الملل ومن الإصابة بالوسواس القهري.

مع تجديد فترة العزل مرة أخرى، بدأت في طرح أفكار عن نهاية العالم المحتملة، وتساؤلات عن عصر نهضة جديد قد نشهده بعد انحسار الوباء؛ إلا أنني مللت من هوس تطبيق كل القواعد السابقة - قد يكون هذا تصرفا خاطئا، لكن "القدرة" نفسها على تكرار الأشياء فقدتْ فاعليتها على العمل -؛ فقررت العودة لعاداتي القديمة والتوقف عن التعامل مع العزل بوصفه عزلا إجباريا، واستلمت لطبعي في حب الوحدة واستمتعت بأمان الانعزال الذي طالما اخترته نهجا للحياة ووسيلة للنجاة.

ناقدة من مصر

تسمع ضربات قلب جارك العجوز وهو يصعد الدرج

أكرم قطريب

فجأة ودون سابق إنذار، ستنتقل الحياة برمتها إلى داخل البيت الصغير. تسحرك كلمة "البيت" كثيراً، وتظنها على زخمها الشعري والنوستالجي منطقة غير مكتشفة بالشكل المجرّد والعاري. في المربعات الصغيرة ستبدأ الماراثون اليومي، بين الصالون وغرفة النوم والمطبخ. الإقامة الجبرية بين الصحون والكتب والتلفزيون وشرب القهوة والبيرة أكثر الأحيان، ستتعرف إلى عائلتك من جديد، وإلى نفسك أيضاً، تقف أمام المرآة طويلاً، وتنظر بالوجه الذي أمامك، بالأخاديد التي غيرها الزمن. من الشباك ستحدق بالسنجاب الذي يقفز بلا هوادة من أعلى الشجرة، ولأول مرة ستكتشف الساقية التي تصبّ في البحيرة آخر الشارع، تغير إيقاع السيارات وأصبح أكثر بطءا، ستتعلم فن الإصغاء للطبيعة وأشيائها، قارة من المفردات الجديدة والصور والحركات التي لم تكن مألوفة، ثلاثة أفراد كان يذهب كل واحد فيهم باتجاه، ولن يروا وجوه بعضهم إلا لماماً وعلى عجل، والموبايل الذي كان ينقذنا من الحنين خف رنينه. بين الساعة الثامنة مساء والخامسة صباحاً، ستغط نيوجرسي في سكون يكاد ينكسر، قطعة جليدية صماء، تجعلك تسمع ضربات قلب جارك العجوز وهو يصعد الدرج. مشاهد رأيتها سابقاً على شاشة السينما. المكان يتفتت ببطء، وهو بالتالي أقرب إلى كأس ماء يقع على بلاط صلب. الاكتشافات ليس لها مثيل، والابتسامات العذبة للبشر الذين لا تعرفهم من قبل ستتغلف بكآبة لا مثيل لها. كل العادات اليومية ستنتقل إلى حيز ضيق ، حيث لا قطارات تعبر ولا طيور تحط على مائدة الغداء ولا بحيرات نصطاد في مياهها. الرجل السمين الذي يجلس على المقعد أمام البيت ويذكّرني أغلب الأحيان بأعمال مونيه النحتية الضخمة، اختفى فجأة. فقط المرأة الستينية وتسكن إلى جواري، سيجارتها لا تنطفئ، تدخّن أمام باب البناية بشراهة لا تنتهي، لم يتغير فيها شيء سوى بعض الجزع والنظرات الحذرة. نزلنا من أبراجنا وأوهامنا، ومن المجرة التي يقول كارل ساغان إننا ننتمي إليها، والأرض، النقطة الزرقاء المعلقة في فجوة العدم، صورة في كتاب للأطفال.

أتصفح كتاب "تاريخ العالم في ستة كؤوس"، يقسم مؤلف الكتاب توم ستانداج كل هذا التاريخ إلى بيرة ونبيذ ومشروبات روحية وقهوة وشاي وكوكاكولا.

***

شعرية المنزل

أبو العلاء المعري وإميلي ديكنسون استخدما فكرة المنزل وسقالاته كمجاز للحياة والحكمة.

روبرت فروست في قصيدته "إصلاح الجدار" واحدة من أشهر قصائده تتعلق برغبة الجنس البشري بوضع حدود واضحة للمنازل والحدائق، هذه العلامات برأيه ارتداد إلى مرحلة سابقة في تطور البشرية. وكان يعتقد جاره أن "الأسوار الجيدة تصنع جيراناً جيدين". بينما ربط ولاس ستيفنز بين الوقت المتأخر وفعل القراءة وهدوء المنزل وعزلة ساكنه.

قصيدة الشاعر اليوناني قسطنطين كافافيس أيضاً عن "المنزل" الذي يتحول ويتبدل بقوة الحب.

يصبح البيت في قصيدة دبليو إتش أودن المكان الأسطوري للمتع البسيطة والكدح وامتداداً للذات، تستكشف القصائد غرفة النوم والحمام والقبو والعليّة والجنس والخوف والأمان الذي تحمله الغرف داخله.

روث ستون تصف إقامتها في البيت الجديد الذي استأجرته أيضاً:

"استأجرتِ شقة
أتيتِ إلى هذا المكان لأجل الراحة الجسدية.
جسدكِ الثقيل يصعد الدرج في الظلام.
لمبة حجرة الجلوس احترقت،
صاحب البيت يوناني الأصل وربما القاتل.
في الشقة يميل جسدكِ على الجدار.
لوحة ابنتكِ لمفوفة كبيرة ومزركشة
تواجه سماءً مظلمة مع نقاط للنجوم.
الخضار المتلهفة تتفتح وكأنها تأكل الهواء
أو تتكلم لغة المعاني.
بينما النجوم تخفي عنفاً هائلاً
في الظلام أعلى منتصف اللوحة.
يمكنكِ العيش مع كل هذا".

***

بيت الأشباح

الآن لم يقتصر بناء السياج حول حدود المنزل، بل أنت على وشك بنائه حول نفسكَ أيضاً، والشيء الوحيد المسموح به الآن هو أن تكون لوحدكَ. يبدو الأمر مثل مقطع مأخوذ من فيلم أو رواية، متسمّراً أمام التلفزيون، وفجأة سيصلك صراخ من هناك، وجلبة وردهات ومشاف كأنها مبنية على سطح المريخ، وبشر في البراري لا سقف لهم ولا سياج، يلوّحون للمجهول الذي ينتظرونه. الأسرّة في المشافي مشغولة على آخرها، صور آتية من أمكنة الزحام في الشرق الأوسط أمام الأفران ومواقف الباصات. الأبخرة والدخان المتصاعد من الخيام المنتشرة على شواطئ الجزر اليونانية، والفناء الواسع للعدم حيث لا قاعات موسيقى أو رفوف كتب تلهو بها بروحك المعطوبة، والاكتفاء بالنظر إلى الشاشة لتفقد الأجزاء المتبقية لمدن الأرض التي أصبحت أقرب إلى خلاء مصنوع في أستوديوهات التصوير. سحر هوليوودي يهديكَ رفشاً كي تحفر داخل الممر الذي سيأخذك إلى عتبة الملهى.

نيوجرسي
مارس - آذار 2020

شاعر من سوريا مقيم في نيوجرسي-الولايات المتحدة

فؤاد حمدي

ملف

جائحة الحلم الجماعي

رحاب أبوزيد

ابتدعتُ مجموعة مصغرة مكوّنة من أفراد الأسرة من النساء، نأخذ فيها جولة واسعة حول الحارة مشياً سريعاً لترييض الحلم حتى لا يترهل، ولترويض الخوف حتى لا يستفحل، نقوم بعدها بحفنة من التمارين الرياضية الخفيفة خلال اليوم نقطع بها ساعات الجلوس الطويلة، كنت قبلاً ألوم ثلاثة: المتذمرين والمولين والمصابين بالوسواس القهري، ترى كيف حالهم اليوم، هم من يجب تجنبهم حالياً أم الاقتراب منهم لنشهد على التغيير العظيم.

تعلمتُ في لحظة واحدة مكثفة أن السجن داخلك.. وأنك أنت السجّان الوحيد المخوّل بتدمير سجينك.

تعلمت أن الناس في الأزمات يتوقون للأحضان المواسية، وفي اليوجا هناك تمرين جيد اسمه الحضن الذاتي! وفي المستقبل.. قد لا تحتاج لأحد.

تعلمتُ أن الشعور بوطأة الملل العام منوط بالمسافة التي تفصلك عن الناس.. وأن الموازنة هي في البقاء بينهم والحفاظ على تفاؤلك.

تعلمتُ أن نوبات الذعر ليس حلها الهيام في الشوارع أو مسكنّات منوّمة، إنما اليقين.

أقضي يومي قبل الجائحة إلى حد كبير يشبه ما بعدها، كنت في عزل قبل العزل، وأعمل عن بُعد قبل أن يصبح الأمر ظاهرة، كنت أظن أني في غربة لا علاقة لها بالمكان، وبلا مقدمات لحق بي كل الكون، ها أنا أزاول الانشغال نهارًا، ثم ساعات متقلبة بين أخبار العائلة والعالم على وسائل التواصل الاجتماعي، وانتهاءً بالاسترخاء بعد يوم من الاسترخاء أمام شاشة التلفاز بحثاً عن لا شيء، ربما أنقذ شيئاً من الليل بقراءة صفحات من كتاب، بعد محاولات خائبة للحصول على تصويت الأغلبية في اختيار مسلسل أو فيلم، ينتهي الجدل بانصراف كل إلى شؤونه - داخل المنزل - لألوذ بوحدتي في الظلام المحيق حولي إلا من أشعة الشاشة والصوت على وضع "مكتوم" والأجسام والألوان أمامي تتسابق في حركة مستمرة مع عقلي وكأنها تقول هل سأنجح في أن أحوز على انتباهها، عجيب كيف تمضي ساعات سابحاً في اللانهائية.. كفضاء أمام طائرة أو عمق البحار أم غواصة! ثم تفيق وقد انهالت عليك الأسئلة في معقلٍ إدراكيّ بالدرجة الأولى.. ما الذي يحتّم عليك مشاركة الآخرين عجزهم وأنت حر وقادر؟

نادت علينا أختي للقيام بالدورة اليومية المعتادة للمشي، فتكاسلتُ وتذرّعت بالتعب نهياً للروتين من اقتحام يومي البسيط، ثم تمددتُ بأريحية على أريكتي - التي ما أن يقترب منها أحد حتى أعتبره انتهك خصوصيتي - بنبرة متوسلة قالت: ألم تكن فكرتك؟ انشغلت بأخبار كورونا على قناة العربية، تقتلني الأخبار فأغيّر القناة، يحاصرني الجهل فأعيد القناة، يتسلل لسمعي صوت المذيع متحدثاً عن تجربة التعليم عن بُعد وتقاربها مع شكل الكتابيب القديم، مختلطاً بصوت جارتنا من فوق سطح بيتهم المقابل، يبدو أن سهرات السطوح ستعود دون تنبؤ بحجم ما قد تعيده معها من حميمية.

يدقّ المنبه لتذكيري بموعد مؤجل لدى صالون الأظافر، وآخر معلّق لدى إدارة التصاريح في البلدية، في الحقيقة لم أعرف بعد إذا كانت حالتي يمكن وصفها بالدهشة، إذ أنني حتى الآن لم أصح يوماً إلا وسؤال يباغتني هل نحن جميعاً نحلم الحلم نفسه؟ بالعادة اعتزال الناس وفرض المسافات منطقة مرنة تحت سيطرتي، حتى ظننت أني سأموت وحدي، اليوم أرجو أن يعودوا للفرح حتى أعود لأحزاني، ضجرهم وقلقهم وبدايات كآبتهم حمّلتني عبئاً، وأنا لست حفلة للترفيه ولا منصة لرفع المعنويات، المزاج العام هو الذي يخنقني أكثر مما يفعل الفايروس، عندما كنت أكتب وأتحدث عن الحرمان وأنه هو المعلم الأول لم يسمعني البعض والبعض اعتبرني قديمة الطراز، ها هم يتعرفون عن قرب على ضيف ثقيل لكنه كالمعلم الرشيد اسمه الحرمان.

عادت شلة البنات من مشوارها الرياضي، وأنا أقاوم حزمة من الملهيات وأبذل جهداً مضنياً كي أحافظ على اتزاني العاطفي فلا يتأثر بما يسمع أو يرى حول العالم، وبالتالي أحتاج لوقت يقارب الساعتين صباحاً حتى أعلن أني صحوت بالفعل، وإذا ما سألني أحد متى تستيقظين لسبب ما، فإني صدقاً لا أعرف، قد أستيقظ في السابعة لكني لا أصحو إلا في العاشرة، رمقت البنات بطرف عيني الساهية وأنا أراهنّ ولا أراهنّ، لفت نظري هدوء غير مسبوق، ماذا هنالك؟ قالوا عدنا بالكيك من محل الحلويات القريب على ناصية الشارع، كي أبدي اللامبالاة بشعور

فؤاد حمدي

الذنب النابض أسفل رسغيّ، رفعت صوت التلفاز، ووجدتني أقفز من صومعة الدهشة.. أريكتي، لأنقضّ على قالب السكّر والشوكليت والسعرات الحرارية بحثاً عن السعادة، تنبّهوا أني لم أسأل عن المناسبة، فتبرعت إحداهن "اليوم عيد الأم، كل عام وأنت أحلى أم"... آآآه يا أمي.

هذا يثبت أن الأيام تعيد نفسها شكلياً فقط، أشك أن تعود الحياة لسابق عهدها قبل جائحة كورونا، مؤكد ستكون أفضل بكثير.

ثمة موسيقى منقذة من اليأس والحيرة، كصوت جوليا بطرس الثائر الحنون الذكي الساخر، تجعلك تنتشي فرحاً وأملاً وضحكاً ولا تدري أهي تعني ما تقول أم تقول النقيض بطريقة ساحرة، النتيجة واحدة الموسيقى علاج:

رغماً للجوّ المشحون
تبعاً للظرف المرهون،
مطرح ما عيونك بتكون.. بحلم شوفك يوماً ما
بكرة بيخلص هالكابوس
وبدل الشمس بتضوي شموس،
وعلى أرض الوطن المحروس..
راح نتلاقى يوماً ما.

روائية من السعودية

فؤاد حمدي

ملف

إشراقة البيت

زاهر الغافري

في العادة لا أجلس في البيت كثيراً إلا في السنوات الأخيرة مع التقدم في العمر، عندما كنتُ أقيم في نيويورك كنتُ مشاء كبيراً من مكانٍ إلى آخر وكنتُ شبيهاً بشخصية كوين في مدينة الزجاج في ثلاثية نيويورك لبول أوستر. لكن ما يجعلني أمكث في البيت في هذه السنوات هو القراءة والكتابة وهما عنصران يشكلان الترنيمة الأكبر إخلاصاً في حياتي. في مالمو - السويد المدينة التي أقيم فيها الآن أستيقظ باكراً بين الثالثة والثالثة والنصف وأبدأ بالكتابة، في العاشرة صباحاً أقرأ كتاباً، شعراً أو رواية أو في مجال الفكر والفلسفة والأنثربولوجيا، مع ذلك أحس أن الوقت يقصر يوماً بعد يوم، أعرف أن الظهيرة ستعيد لي كأس نبيذ طيب وأن المساء ينتظرني لأرى فيلماً نوعياً من أفلام الطليعة التي أحبها، خصوصاً بعض الأفلام التي شاهدتها في السينما. حياتي اليومية هذه تجري على خلفية الموسيقى الكلاسيكية أعمال لشوبان أو ماهلر أو بتهوفن أو باخ إضافة إلى الموسيقى الكلاسيكية العربية حينما أستمع إلى أم كلثوم أو عبدالوهاب أو كارم محمود أو عبدالحليم حافظ أو فيروزيات الرحابنة. أزور أصدقائي أحياناً أو يأتون إلى بيتي نتحدث ونشرب وحتى نرقص أحياناً.

أخاف؟ لا أخاف من شيء، أتحرك بحرية أذهب أحياناً إلى حانةٍ وأشرب النبيذ. صحيح أن هناك حالة من الخوف والهلع عند الناس ولكن في المقابل هناك حالة من المبالغة وربما كانت وسائل الإعلام تقوم بهذا الدور، طبعاً هناك نظريات كثيرة حول فايروس كرونا المستجد "كوفيد - 19" بما في ذلك أن الفايروس مُصنّع في مختبرات أميركية أو أوربية أو صينية لا أحد يعرف يقيناً حول الأمر لكنه واقع حال.

علاقتي بالآخر لم تتغير كثيراً زوجتي معي، أما ابنتاي فهما في بلدان أوربية أخرى أطمئن وأتابعهما هاتفياً بشكل يومي تقريباً. لا أشعر بالضعف ولا بالقوة الزائدة فأنا لست سوبرمان على أيّ حال، بل أحسّ بالهدوء والسكينة خصوصاً عندما أقرأ أو عندما أسمع الموسيقى.

أراجع نفسي باستمرار قبل أن يدخل العالم إلى هذا النفق الذي يكاد لا ينتهي وأحلم بشكل متواتر، أحلام ليلية أو أحلام يقظة ودون هذه الأحلام والجو الهادئ الذي أخلقهُ في البيت سيكون من الصعب عليّ الكتابة. ودون الكتابة أكون قد دخلتُ في فصل آخر هو الموت. لديّ شغف دائم في وقت النوم فقبل أن تنعس عيني أستحضر الأمكنة الأليفة التي أحبها للنوم. أحب العلية في البيت مثلاً أو الشرفة المغلقة بالزجاج والمطلة على الخارج أو النوم تحت سلالم البيت، إنها بشكل ما عودة إلى جماليات المكان التي ذكرها غاستون باشلار.

أعرف أن الدول الكبرى، القوية تستطيع أن تدبر كل شيء وتفعل ما يحلو لها طالما لن يحاسبها أحد، أما الطبيعة فنعم فهي تتمرد وقد تنتقم. أقرأ الآن رواية الحجلة لخوليو كورتاثار في حوالي سبعمئة صفحة وفي الرواية فصول تتحدث عن التكنولوجيا وكيف تنهض الطبيعة لتعاقب الإنسان الذي يقوم بتدمير هذا الكوكب الذي نعيش فيه. هذه الجائحة وحدها هي المخيلة الكبرى للإنسان وقد أصبحت واقعاً وهي فعلاً تذكر ببعض الأفلام التي شاهدتها حول نهاية العالم لكن هذه المرة في الواقع الحقيقي، فهو أقسى بكثير. صحيح أن العالم شهد من قبل في القرن السابع عشر والثامن عشر جائحة الطاعون وقتلت الكثيرين وهناك السل والحمى الإسبانية إلى آخره، هذه كلها جوائح. بالنسبة إلى الوقت الراهن لا أحد يعرف ما الذي سيحدث، لكن الأكيد أن الدول الفقيرة في أفريقيا وآسيا هي التي ستتضرر أكثر على المدى البعيد إذا لم يكتشف لقاحٌ يوقف هذا الانتشار وهذا الموت. نعم أظن أن العلم والتطور الطبي هما الأساس لمعالجة ما نحن فيه وليس الدين ولا الشعوذة والخزعبلات. بالنسبة إليّ شخصياً لن يتغير شيء لكن أجل أظن أن هذا الأمر قد يخلق نمطاً من التفكير يصبّ في صالح حياة الإنسان أو ربما العكس.

شاعر من عمان

فؤاد حمدي

ملف

عزلة البيت فرصة للصمت

محمد ناصر المولهي

هل يكتب الشعر في لحظة الخطر؟ ستكون إجابتي من دون تفكير: نعم. بل لا يكتب الشعر من دون خطر، الخطر وقود الشاعر، به ينطلق إلى عوالم مجهولة ويعرّيها لقرائه.

لكن ما هي ضريبة ذلك؟

ما علينا في الضريبة، كثيرون دفعوا أجسادهم، وعقولهم، ضريبة لذلك، آخرون اختاروا الحذر، لكن في رأيي لا الحذر ولا الاندفاع هما الأجدر بالاتباع، بل الذكاء والإفادة مما سبق من شعر ونثر وسرد وأفلام ولوحات وموسيقى وغيره من فنون ومن معيش يومي ومن جغرافيا وبيئة وكائنات وتلفزيون وكل ما له وجود مادة أو فكرة. كلها أدوات لكتابة القصيدة بروح مغامرة في زمن تقلصت فيه المغامرة.

إذن القراءة، المشاهدة، الإصغاء، كلها محامل قد يستفيد منها الشاعر في دخول أعتى العوالم وأكثرها انغلاقا وضبابية وعتمة، هي أعماق الإنسان وأعماق الكون المتباعد.

تمر تونس بحجر صحي عام في مواجهة فايروس ركّع العالم، لكن كيف سأتفاعل معه، في ذاتي، وفي عائلتي وصحبي ومعارفي.

في رأيي وكتبت هذا مرارا، المبدع له بالضرورة موقف سياسي واجتماعي، لذا أيّ مبدع ينفصل عن دوره السياسي والاجتماعي هو في رأيي مجرد تقني.

لا أحب أن أكون "تقني معرفة" أحب لنفسي دورا أكثر تأثيرا وفاعلية وصدقا، ولو في شخص واحد هو أنا.

وجدت نفسي بمفردي حقيقة، فرّ الجميع إلى قراهم ومناطقهم الأمّ، فيما بقيت أنا، لأنني بلا منطقة أمّ ولا قبيلة ولا غيره من الانتماءات الضيقة، بل أعتبر الجميع أمهاتي الجغرافيات، لا تفاضل بين أمّ سابقة ولاحقة أو حتى أمّ متخيّلة.

إذن وحدي أواجه الفايروس بعزلتي. أعمل عن بعد. وأرتب مؤونتي حسب ما يحدث وما أتوقع أنه سيحدث، كأنها لعبة نجاة.

كثيرون يتشدقون أنها فرصة للقراءة والكتابة. أما أنا فأرى العكس. إنها فرصة للصمت.

كيف تقرأ بضمير مرتاح في زمن خطير. وكيف تكتب إذا أنت أهملت الموت وهو يحاصرك؟ هذا نوع من الرياء والكذب.

أي نعم بدأت من أن الخطر وقود الشاعر والكاتب أو المبدع عامة، لكن نحتاج أن نعي الخطر قبل الكتابة، لذا لا تمكن الكتابة في نفس الزمن الذي يحدث فيه ما يحدث إلا بعض التوثيق. فحدوث الخطر واستيعابه ثم الكتابة.

تخيل كاتبا يحارب شعبه فيما ينزوي هو ليقرأ ويقلد ما كتبه غيره ليكتب بدوره جمالية مقلَّدة.

أنا ضد هذا. لا أصر طبعا على أن الكتابة صدق بالضرورة، بل أؤكد على أن ما يهم هو الإنسان قبل النص. من الإنسان الحقيقي يبدأ النص الخيالي. والنص الخيالي سيعود حتما إلى الإنسان الحقيقي.

إن تقنيي المعرفة كثيرون، كتاب موسيقيون شعراء وفنانون..إلخ هؤلاء الذين ينطلقون من خيال مقتبس إلى خيال مقتبس آخر، وإن كان هذا حقهم، فإنه ما ليس من حقهم أن يحتقروا المتلقي في هذه اللعبة الكاذبة.

ما الذي أفعله في زمن الحجر؟

أقرأ أشياء متنوعة. أصغي إلى الأخبار، أشاهد البرامج والأفلام. وأحاول كتابة منشورات فيسبوكية، رسائل، نصوص.. إلخ. نوع من التكامل الذي أحاول أن أجعله طبيعيا. لا يمكن أكتب لا أكتب.

مؤخرا سمعت قصة، حقيقية، تصلح أن تكون قصة أو رواية. فتاتان ماتت أمهما في إيطاليا. ولا يمكن دفنها، ولا إعادة جثمانها إلى تونس، ولا حتى أخذ جثتها من البيت.

فتاتان تعيشان مع جثة أمهما لمدة ثلاثة أيام، المدة التي قضتها الجثة حتى تاريخ كتابتي لهذه الأسطر.

أيّ أدب، أيّ سينما وأيّ لوحة أو موسيقى سترافق فتاتين تعيشان بجانب جثة أمهما. إنه الواقع الذي لم يكن الخيال في أكثر درجاته تطرفا قادرا على التنبؤ به.

إذن فليتوقف المبدعون عن اعتبار خيالاتهم أكثر قوة وقدرة وحبكة من الواقع، فليتوقفوا عن إخفاء وجوههم الواقعية ببعض التزويق والتذاكي والمعرفة التي تشتغل كتطبيق القص واللصق.

الأمر يتطلب نوعا من التكامل. لا تضاد ولا تعارض ولا تفاضل، كل جزء في هذا العالم له دوره، من أصغر بكتيريا إلى أضخم حجر إلى أكثر الكائنات توحشا (الإنسان) ولا شيء نقيض لشيء.

في هذه العزلة، فليفكر كل كاتب ومبدع ومفكر بعزلة، ووسط مجتمعه الصامت في بيوته، فليكن الفكر هو الضوء الكاشف.

ثم تأتي بقية المشاعر لتسير في ما خطه أو تعيه وتخرج عنه.

شاعر من تونس

المعلق على جسر النرجسية البشرية

كمال بركاني

اليوم:
بلا لون، بلا شكل، بلا مذاق، أبدا ليس الجمعة، ما أبشع أن تكون يتيم الجمعة.
التاريخ:
20 مارس.

العام بالتقويم الجديد:
01 كورونا، شوارع المدينة خالية، وحدي فيها كنت أفتش عني، فإذا بي أعثرني في أبي آدم حين هبط.. موحشة هذه الأرض.
العزلة رصاصة عابرة إلى القلب. الأرض ساحة قتال شرس، قاس جدا أن يكون عدوّك غير مرئي، لا يشبه طائرة أو أيما صاروخ ينطلق من البر أو البحر أو الجو، يمكن لرادارات الدفاع اكتشافه قبل لحظة الانفجار العظيم، عدوّ تلتقيه في شارع أو على طاولة مقهى أو مطعم، وحينما يصير عدوك غير مرئي، يحدث كثيرا أن تتوجس خيفة من كل ما هو مرئي، مأساة أن يحدث ذلك حقا، كل ما يحيط بك من أشياء وهواء وأشخاص يصير مشتبها به إلى إشعار آخر، كل أولئك الذين كانوا يصنعون بهجتك في الحياة صاروا المعادل الموضوعي لرائحة الموت الكريهة، كورونا الرصاصة المطلقة على العمران والاجتماع، آن لنا أن نعود إلى عزلتنا القاتلة.
موحش جدا أن تودّع طقسك القديم، تجد نفسك مجبرا دون سابق موعد سجينا بين حيطان أربعة، على مائدة أخبار القنوات التلفزية وشبكات التواصل، ترقم الموتى الذين لا قبر لهم، تنتظر بهلع دورك القادم، تستقرئ وجه الأرض في غد بعيد، مثل نجمة لم تعد مضيئة.
ها أنا ذا في سجني أذرع الخطى من غرفة إلى أخرى، بعمق نادر أحاول أن أستكشف أعماق من كانوا معي قبل كورونا، اكتشفت فجأة أنني لم أكن الوحيد هنا، الحياة الصاخبة تجعلنا أقل تماسا مع أبنائنا وزوجاتنا، في الصحارى الممتدة يقل الازدحام، ممكن جدا أن لا تصطدم بغيرك، وكلما ضاقت الرقعة زادت حوادث السير، ها أنا ذا وجها لوجه مع عائلتي الصغيرة، نتبادل أطراف الحديث حول كورونا وفلسطين، حول الذاكرة والمستقبل، حول الإنسانية والتوحش، التلفزة، الفضاء الأزرق، مراجعة الدروس، الالتفاف حول مائدة الطعام، الصلاة، قراءة القرآن، الهاتف، مناوشات الأطفال التي لا تنتهي، كل ذلك داخل سمفونية المايسترو كورونا، معامل التكرار مرتفع جدا، الرتابة ترفع ضغط الدم وكمية الجلوكوز، تفقد الشهية في الحياة، تشرع نوافذ الذاكرة على الصهيل.
تفكر بعمق كيف كنت؟
فيما كنت؟
عبثا تحاول أن تعانق ذاتك، مرّ زمن طويل جدا على اغترابنا على ذواتنا، ها قد جاءت فرصة عمر نادرة كي نعود إليها، لم نكن ندري أننا بكل هذه الغربة، في منفى فسيح، جئتك الآن أعماقي معتذرا، مصلوبا على صهوة وباء، حدثيني كي أراك، أنا موغل في الوحشة. أفكر في كل الذين أعرفهم، الذين رحلوا والذين ينتظرون، أفكر في كل الدروب التي سلكتها، في كل الكلمات التي لم أقلها وودت الآن أن لو قلتها حينها، أفكر في معنى الوجود وسعة الكون، أعود مجددا إلى قراءاتي القديمة، أعشق كتب الفلك، تشعرني بقربي من الله، أحاول أن أكون مفيدا، أفضل قليلا من كورونا، أطالع، أتفاعل مع أفراد عائلتي، أصلّي، أقرأ أورادي، أسأل عن أقاربي وأصدقائي وزملائي في العمل، أتواصل مع أصدقائي على الفضاء الأزرق، أتابع أخبار الكوكب، أفتح النافذة صباحا للتأكد من جهة طلوع الشمس.
الزمن في الغرف يمرّ متباطئا، ثقيلا جدا، منهكا بالخوف، مترعا بالذكرى، لماذا نعود إلى طفولتنا كلما أحسسنا بالخطر؟
لا أعرف، ما أعرفه أن الذاكرة ترياق لأمراض الحياة، لا أشعر في هذا التوقيت العصيب أن موعد القيامة قد حلّ، أعلم كمسلم أن الآيات تجيئ تترا، هذه مجرد سندويتش، الأرض مقبلة على هلع أكبر، وجود الإنسان على المحك، الحروب، مخرجات الاحتباس الحراري، جشع الرأسمال، الفكر الصهيوني، التطور العلمي الفاقد لكل خلفية أخلاقية، ثمة فئة قليلة - الإنسان السوبر -، تحاول أن تمسك بكل الخيوط، نحن مجرد أرقام، لعبة، أعواد ثقاب، أخشى أن الإنسان فقد السيطرة على نفسه، وعلى الكون، قد ينتهي كل شيء بخطأ بشري مثلما ربما حدث هذه المرة، قد ينتهي بتخطيط مسبق، وهو الاحتمال الوارد.
أفرّق بين تقويمين، ما قبل كورونا، وما بعد كورونا، منذ اللحظة،

فؤاد حمدي

نحن نعيش إنسانا آخر وأرضا أخرى، تغيرات سوسيو ثقافية جذرية ستطرأ على الحياة في هذا الكوكب، سنشهد عودة قوية للقوميات والإثنيات، للنزعة الفردية أيضا، اختفاء للحميمية والعلاقات الاجتماعية، اختفاء تدريجي للدين من الحياة، ما بعد كورونا هو: صخرة سيزيف، قصة الشقاء الإنساني العبثي.
لو تطول هذه العزلة، ستقتلنا الهرمونات، الصراع من أجل البقاء يرفع وتيرة الإفراز، سنصير أكثر عدوانية، في بيوتنا، على الهاتف، في الفضاء الأزرق، في الشارع إن وجدنا به أنفسنا مرة أخرى، سنجوع، وهذا أرعب ما قد يحدث، ستعود القرصنة بين الدول، سنشهد جيلا جديدا من قطاع الطرق، ستكون الحياة صعبة جدا.. جدا..
صحيح، العالم يحاول أن يجد حلا علاجيا للوباء، كل شيء متوقف على أجندة ورزنامة المستفيدين، مقتنع جدا بأن الآيات سواء كانت من صنع البشر أو من صنع الله لها وضع مؤقت، تبيد وتوجع ثم ترحل، تصبح ذكرى تعيسة، ستنتهي كورونا غدا، وستخلد في أعمال فنية وإبداعية راقية.. وسنظل نذكر أحبابنا الذين فقدناهم بدمعة.
نعم، قدر الإنسان أن ينتصر في النهاية، صحيح، سيقدم آلاف القرابين، ملايينها، وفي النهاية، سينتصر، لأنها إرادة الله في الكون.
ليس الخوف من الموت ما يجعلني أحقد على كورونا، أطفال غزة، أطفال في أمكنة أخرى، على امتداد الرقعة العربية، آخرون في كل الأرض، عبر التاريخ الحديث، كانوا على مائدة العالم في حفلة شواء باذخة، كان كورونا حينها يكتفي بالفرجة والدهشة والصمت.
للقتل ملة واحدة، دين واحد، طعم واحد، يد واحدة، يد الإنسان الموغل في البيولوجيا.
كورونا، رقصة المذبوح المعلق على جسر النرجسية البشرية، أحقد عليك لأنك ستخطف ما تبقى فينا من إنسان، لن أصافح، لن أعانق أحدا، لن أجتمع إلى أحد حول طاولة شاي أو مائدة طعام، لن أقول لأحد ملء أشواقي: أحبك، لقد نجح كورونا في قطع كل الخيوط التي ظلت تذكرنا بانتمائنا الوحيد في هذا الكون.. الإنسان.. أحقد جدا عليك، لأنك تسعى بحربك علينا، على حقن الأرض بجرعة مفرطة من الفردية والعزلة والتوجس، انتصرت في معركة، وستخسر الحرب، قدر الحياة أن تنتصر في هذا الكوكب، قدر الحب أن ينتصر لأنك بشع جدا.
شيء واحد أشكرك عليه:
لقد عرّيت زيفنا، الموت واحد، القتل واحد، للكراهية عنوان واحد وقلب أثيم.
لنتعلم كيف نعيش معا في سلام، كيف ننفي القتل عن هذا الكوكب، المجد لكل أطفال الكوكب، لا للحرب في كل مكان، لا لحفلات الشواء بعد اليوم، إنسان واحد لكوكب واحد.

كاتب من الجزائر

ملف

أنا الآن، منذ اليوم، غيري

ميموزا العراوي

لم أكن يوما من البشر الذين يحبون الاختلاط بالآخرين الكثر. ولم يكن يوما سبب هذا الانكفاء شعور بالارتباك بوسط الجماعة بقدر ما هو إحساس بأن هناك لقاءات مختلفة تنتظرني لم أستطع حتى اليوم العثور عليها ولا حتى وصفها بكلمات واضحة. لكنها لقاءات سحرية باهرة وواقعية في آن واحد لن أتجرأ على تكذيب أيّ تجلّ خاطف أو مقتضب من تجلياتها.

***

لقاءات محلومة ستكون يوم ما أقل مللا بكثير مما أعيشه، وستوقد الشموع الداخلية وستثير فضولي ولهفتي وتكسر لعنة الرتابة. رتابة لشدة ما تأصلت في أيامي باتت أشبه بشخص مطاطي بليد ذي هيئة شفافة يتنفس بثقل ويرافقني أينما حللت ويصافح بكل بلاهة بابتسامته العريضة كل من اقترب مني للتحية، للحديث أو للحب، أم لمقتضيات العمل. شخص اعتدت مع الوقت على ترويض بياضه وخصلات شعره الدخانية إما بتجاهله بشكل بطولي، وإما بلكمه فتلطيخه بأفكار وتخيلات صارخة الألوان تُهينه وتهمش "الواقع" الذي يمليه عليّ.

قبل العزل اعتدت أن أفتعل حالات حبّ تنجيني من الملل الوجودي حتى تستحيل هي الأخرى إلى روتين سقيم فأعود بعدها إلى حالة البحث عن حالات حب أخرى تعيد إلى الحياة رونقها. ولكن هل سيبقى الحال على عهده وهل ستبقى نظرتي إلى الحب هي ذاتها بعد أن يفك حصارنا؟ هل سيعود الحب كما كان قبل فترة العزل حراً وطليقا كطائر ينبعث من الحنجرة؟ أم سيؤثر السكن إليّ وتحريم المُغادرة؟

هكذا كان الوضع قبل أن ينكفئ البشر إلى بيوتهم في حضر صحي إجباري لمواجهة وباء عالمي وقاتل متمثل بفايروس "كوفيد - 19".

اليوم في عزلتي الجبرية اكتشفت أن ما عشته قبل العزلة كان تحضيرا لما سأعيشه اليوم بعيدة جسديا عن الناس وقريبة منهم افتراضيا عبر الاتصالات الهاتفية وشبكات التواصل الاجتماعي. اليوم، أقضم قطع "العزل" الاجتماعي كحلوى مريرية الطعم ولكن لها مفعول آثر يبث سكره في شرايين. وما هذا السكر إلا توق إلى الاختلاط بأكبر عدد من الناس غرباء كانوا أم معارف علّني أقيم التوازن ما بين الداخلي المُحصّن بالغُربة والخارجي المزيّن بالورود وأنواع الأزهار المختلفة.

أقول في نفسي "غدا سأمشي في أخاديد الملل أكثر قوة وأحصد الحب وبذوره في آن واحد. سأصبح أشد حصانة وأكثر قدرة على اجتراع معجزاتي الشخصية التي تبقيني "ميموزا" الشبيهة بشجرة الميموزا بعناقيدها القطنية الهشة والصفراء المضيئة بأحلامها الربيعية الدائمة. لا صيف يحل ولا شتاء يأتي بل برزخ ربيعي هو حصانتي ضد الموت في قلب العيش، العيش كما نعرفه جميعا بضحالته وعنفه العنيد - العقائدي تجاه البشر. وربما سأمشي بعد هذه الأزمة إن كتب الله لي الحياة في ضوضاء مدينتي بيروت التي أعشقها، أقل مللا عمّا قبل وفي ذلك انتصار كبير، على الأقل بالنسبة إليّ. تأخذني خواطري الآن إلى ما كتب غابريال غارسيا ماركيز في كتابه الشيق الذي أقرأه اليوم مُحاطة بأسوار افتراضية متينة. يقول الكاتب "نحن مخترعو الخرافات الذين نؤمن بكل شيء، نؤمن بأنه لم يفت الأوان بعد لخلق قصة خيالية مختلفة، قصة خيالية جديدة ومهمة في الحياة، حيث لا أحد يقرر للآخرين كيف يموتون، وحيث يكون للأعراق التي حكم عليها بمئة عام من العزلة، أخيرا وإلى الأبد، فرصة ثانية على الأرض".

من جهة اخرى أفكر الآن بالآخرين. يخطر ببالي اليوم بأن كثيرا من معارفي سيبصرونني بعد انتهاء هذه المرحلة، إن شاء الله، في عين أوضح وبسماحة أكبر لأنهم قد اختبروا وعن كثب ماذا يعني الملل الوجودي ولماذا يتعكر مزاجي لأدنى سبب، وأيضا لماذا تجتاحني أحيانا موجات من الحزن تجعل منهم مجرد ذبذبات عابرة تذكر بدورها تحفة العيش - المهزلة العابرة. هنا تعود إليّ كلمات الشاعر اللبناني وديع سعادة بشيء من الورع والكثير من التبصر. يكتب الشاعر "العابرون سريعًا جميلون/لا يقيمون في مكان كي يتركوا فيه بشاعة/لا يبقون وقتًا يكفي لترك بقعة في ذاكرة المقيمين/العابرون لا ضحايا لهم/ هل لذلك بات علينا، كي نمجّد الحياة، أن نمجد عبورها بسرعة، أن نمجد الانتحار؟وأيّ لحظة تكتشف الحياةَ أكثر من لحظة الغياب عنها؟ لنمضِ إذن، بخفّة، قبل أن تلتهمنا الخناجر، قبل أن نصير طبَقَ الوليمة/كأن الاحتفاء بالذات لا يتم إلا بالعزلة. كأن الاحتفاء بالحياة لا يكون إلا بالصمت".

تشكيلية وناقدة فنية من لبنان

البقاء في البيت

بعيداً عن الخطر

علال سنقوقة

مأساة حقيقية أن تبقى في البيت، ربّما لا يشاركني كثيرون وجهة نظري، ومن حقهم ذلك بطبيعة الحال، المشكلة العميقة أنّ الإنسان لا يمكن أن يكتسب "فرديته" إلا من خلال الآخر، سيتخلّى الفرد منّا عن الكثير من العلاقات الأساسية التي جُبل عليها المخلوق البشري بشكل خاص.

الفردية تؤدّي إلى الانعزال بما يخلق لدينا حالة من الفقد والتوحّش.

لكنّها إجبارية، وهو ما يجعل منها حالة صعبة، أي أنّ الإنسان غير مخيّر، مجبر مثل حالة السجين لا يمكنه أن يختار طريقا غيرها وهو ما يجعلها أكثر مرارةً كطعم العلقم أو أكثر.

لا يمثل لي البيت من وجهة نظر إبستمولوجية أيّ معنى بل هو المسؤول عن خراب حياتي وتدمير قواي العاطفية والذهنية في مقابل "تحقيق" أشياء واهية، نشارك الحيوان فيها، وهي السعي وراء سراب اسمه "البيت" بكل ما تعنيه الكلمة من مترادفات: الأولاد، الزوجة، وما يرتبط بهم من سلالات مدمّرة لصحة العقل والنفس والوجدان.

أريد أن أوضّح مقصدي، حتى لا يتّهمني القراء بنوع من الشيزوفرينية غير المعلنة:

البيت في العالم المتقدم غيره في العالم الأدنى، نتشارك في البيولوجيا ولكنّنا نختلف في الجوهر: في المدى الإنساني والروحي والفكري العميق، لا يمثّل "البيت" في المجتمع العربي (بنسبة تكاد تكون عامة) إلا استمرارا للنسل، وحالة من القلق على الوجود والمستقبل، حياتنا، في العالم العربي، جري مستمر وراء الخبز والأمان والحرية.. بما يعني أنّ الواحد منا لمّا يصلْ إلى القبض على جوهر الحياة، وتتسلّل السنون من عمره واحدة تلو الأخرى، ليس في ومضة عين بل بصعوبة بالغة لا يكاد يصدّقها العقل، ينطبق عليها قول زهير بن أبي سلمى:

"سَئِمْتُ تَكَالِيْفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ
ثَمَانِينَ حَوْلاً لا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ
وأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ
وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ
رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ
تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوْطَأْ بِمَنْسِمِ".

تمثل "البيت" مملكة زائلة، سرعان ما يستيقظ الشعور الحقيقي الذي يملأ الأبناء وهو تملّكها عن طريق الوراثة، وهي الحالة التي تنظم حياة الإنسان وتستمر معه قرونا وأجيالا وإلى نهابة الخليقة ولكنّ "الضمير الأخلاقي" والشعور بالذنب تجعل الفرد منا لا يجاهر بذلك بالرغم من أنّها حقيقة نتشارك فيها جميعا.

من هنا نستطيع القول إنّ "البقاء في البيت" شكل من أشكال النفي والاستبعاد للكائن قسريا، الصيغة تحمل طابعا تعميميا أي أنّها قرار رسمي موجّه إلى كل الطبقات الاجتماعية دون مراعاة أشكال الوعي والتراتبية العقلية، وهي حالة المستندات القانونية التي تصدرها المؤسسات الرسمية.

في رأيي، الوباء، يمكن التغلّب عليه بالوعي والفهم، فهو ينتقل عن طريق ملامسة المصاب أو الأشياء المادية والأسطح، لكنّ مصدره واحد هو الإنسان السقيم، لذلك فإنّ الاستغناء عن "عادات" قديمة في السلوك البشري يمكنها أن تؤتي أكلها وتخلّصنا من الفايروس.

عندما تجلس في البيت، هذا السجن الصغير، سيصاب عقلك بالدوار عندما لا تجد مفرّا من قضاء فائض الوقت في وسائل التواصل الاجتماعي: جملة من الحماقات والأكاذيب والسرطانات الإعلامية الخبيثة تجدها تنتظرك، ومن ذلك أن الوباء لعنة الله، فأكثروا من الدعاء والاستغفار.. الوباء غاز سام انتشر في العالم من أحد المخابر البيولوجية قريبا من مدينة يوهان الصينية وهو ما يمكن أن يكون دليلا على وصف الرئيس الأميركي دونالد ترامب له بأنه "فايروس صيني".

أما القنوات التلفزيونية، فأصبحت تمثّل شكلا من أشكال الضغط على الإنسان "المحجور"، أخبار "العاجل" مدمّرة، مثبطة للنفس، ترمي بنا في أوار الجحيم، لا شيء من الأمل، سوى أخبار عن مزيد من الموتى والجثث كحالة الصين وإيطاليا وإيران وإسبانيا.. هنا لا بدّ أن نعيد التفكير جيدا في "رأيت المنايا خبط عشواء" كما قال زهير بن أبي سلمى ونستغل فرصة الوباء لنطرح مجموعة من الأسئلة الشائكة: هل فعلا امتلك العقل العلمي مصير البشر أم أنّهم لم يحققوا لأنفسهم

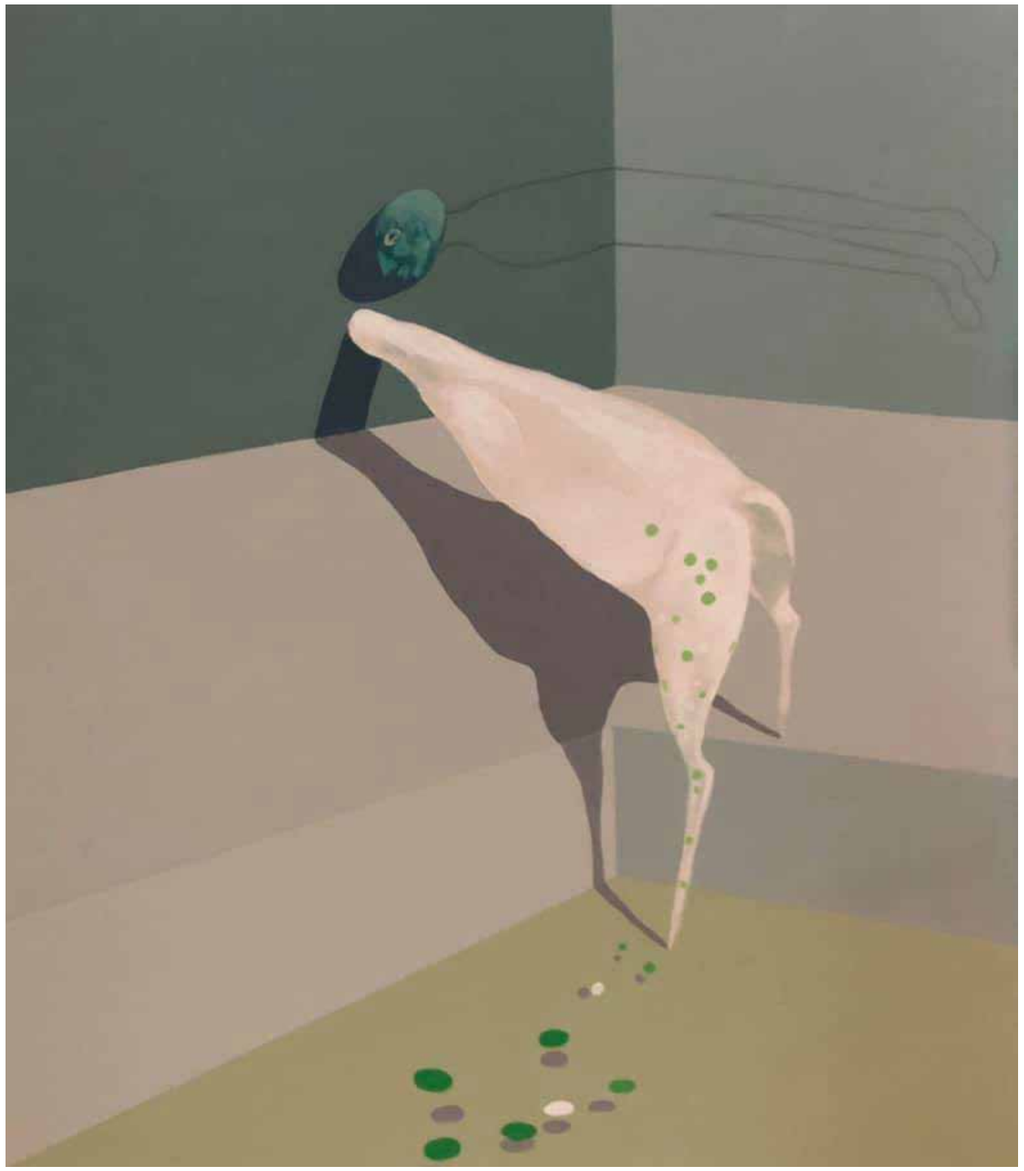

فؤاد حمدي

الأمان؟ هل الفايروس قادر على أن يكون مقدمة لنهاية العالم (يوم القيامة كما تسمى دينيا)؟ وإلى أيّ مدى سيعززّ الوباء فكرة القدر أكثر في الذهنية العربية؟ أم أنّه على العكس من ذلك سيعمل على تعزيز فكرة "الإنسانية " والإيمان بقيمة العلوم في تطوير الفرد في العالم؟ من جهة أخرى، كيف سيكون لتأثير الوباء على الاقتصادات الهشة ومنها تلك القائمة على المواد الطاقوية كحال الجزائر ومعظم دول العالم العربي والإسلامي؟

لا أخفي عليكم، بأنّها وساوس تنتاب أيّ فرد منّا، لأنّها مرتبطة بمصائرنا وحالنا بعد الخروج من الوباء، فهل نستطيع أن ننتصر على كل هذه التحديات ونحن في "البيت"؟

أخشى أنّنا سنتخلّف أكثر، نحن الذين نعيش في هشاشة اقتصادية وعلمية منذ قرون، ومن الأسباب المهمة في ذلك أنّنا لم نعمل على تهيئة سماء المستقبل، على خلاف الدول الصناعية الكبرى ومعها الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل.

يشعر المواطن في الجزائر، كما هو الحال عليه في دول أخرى، بالحيرة والخوف من المستقبل بالرغم من أنّ الوباء عابر لا محالة، لعدّة

فؤاد حمدي

معطيات: مناخية وصحية وتاريخية.

وأنا واحد من هؤلاء.. لا أخفي عليكم لقد تصرّفت بالطريقة الطبيعية التي تصرّف بها الناس في مختلف بقاع العالم: الخوف من الغد.

في السوبر ماركت، يتهافت هؤلاء الذين يريدون أن "يتحجّروا" في البيت على العجائن: المعكرونات، الكسكس، القهوة، السكر والزيت والمياه والدقيق بأنواعه، وأحسب ذلك مشروعا كون طرق الإمداد والتموين في بلادنا، كما هو الحال عليه في بعض الدول العربية، ضعيفة ولا يتحكّم فيها القانون، فـ"التهافت" جاء من غياب التنظيم وليس من الندرة.

مما زاد من حدّة هذا الخوف ما رآه المواطن من مضاربة فاحشة في الأيام الأولى من اكتشاف الوباء في البلاد، فقد ارتفعت الأسعار فجأة وخُزّنت سلع كانت إلى وقت قريب متوفّرة بقوّة في المستودعات، وهو أمر كشف عن جشع "التجّار"، وعرّى ضعف الرقابة الرسمية على القطاع التجاري والفلاحي.

لا بدّ أنّ الوباء، كشف عن تعلّق الإنسان، في مختلف أنحاء الأرض بالحياة، فالخوف من الموت والنهاية ظهر جليا في سلوكات الناس، في قتامة تقاسيم وجوههم، في الحزن والدموع ولحظات الأسى على الضحايا.. وأبانت عن روح التضامن بين جمعيات المجتمع المدني في داخل الأوطان، أو في تضامن الدول بعضها ببعض، على نحو تطوع الأطباء الصينيين في إيطاليا وهو حال دلّ على أنّ الفردية ليست طبيعة الكائن البشري النزّاع إلى التضامن والألفة.

تصبح المحبة كونية، لا تحدّها الجغرافيا ولا نظم سياسية، ولا غرو في ذلك فإنّ في تقارب الناس محبّة، تستقيم بها الحياة و"تنجلي الأحزان، ويقصر الزمان، وتطيب الأحوال، ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عونًا جميلًا، ورأيًا حسنًا؛ ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كي يخفّفوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمورِ، وطُوِّقوه من باهظ الأحمال، ولكي يستغنوا بآرائهم، ويستمدوا بكفايتهم، وإلا فليس في قوة الطبيعة أن تقاوم كل ما يَرِد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها".. كما قال ابن حزم الأندلسي في "طوق الحمامة في الألفة والأُلاَّف".

سواء أقضينا أوقاتنا في قراءة الكتب والمجلات والجرائد أو في النوم والاستلقاء أو في استهلاك مواد تثقيفية بسيطة أو في اللعب أو في الأكل.. فإنّ ذلك لن يغيّر من حقيقة غالبة علينا جميعا وهي أنّنا جميعا سنعيش في سجون صغيرة، لا تختلف عن السجون والزنزانات العادية إلا في كوننا نستطيع ترتيبها وفق أذواقنا الخاصة نتصرّف في محتوياتها بحرية تامة ولكنّها في النهاية هي حزام ناسف، قد ينسف بأحلامنا واجتماعيتنا وعلاقاتنا بالآخر ويدمّر كلّ ما بقي فينا من روح الحياة.

كاتب وأكاديمي من الجزائر

ملف

غرق مركب من ورق

رسائل الإقامة الجبرية

وسام كنعان

الرسالة الأولى

محتجزة بين جدران كثيرة، لم تكن عزلة اختيارية، كانت إقامة جبرية، أحاول أن أتعايش مع هذا الطارئ، أن أخلق لنفسي فضاء آخر، أحاول الهروب والتخفّي بين صفحات رواية، أغيب للحظات عن هذا الواقع البائس، أعجز عن إتمام ما بدأته، ثمة قلق يستحوذ على مشاعري ويربك تفكيري. القلم لا يطاوعني لإتمام فكرة، نشرات الأخبار تنشر الرعب وشاشات التلفاز مسكونة بالموت، حتى الحديث العابر تفوح منه رائحة الترقب المعجونة بالخوف. أطوي صفحات النهار الثقيلة، أحاول أن أستريح من تعبي، أدفن وجهي في الوسادة أعضّ على كل فكرة قلقة تطاردني، أتشبث بحلم متيقظ، أغمض جفوني على طيفك! أنام لأحلم بغد أفضل، وإذ لا أرى سوى نفسي، أسترجع شريط نهاري، فأصحو على واقع مكرر .

10 آذار- مارس 2020

الرسالة الثانية

منذ لحظات بزغ فجر يوم جديد، لا أعرف ما شكّل الحياة التي تدبّ الآن خارج هذه العزلة القلقة، فيما مضى ولن أقول في زمن غابر، فلم يمض على هذا الاحتجاز سوى أيام قليلة.

فيما مضى كنت ألتقي بالنهارات الوليدة في شوارع ضيقة وأرصفة مسكونة بالحياة، أمرّ ببائع القهوة أحتسي فنجان قهوتي المعتاد، أقرأ عناوين الكتب من خلف واجهة زجاجية، نصف ساعة أقضيها في متابعة المارّة، أكثر الوجوه مألوفة لديّ، وكلّهم يأتون في موعدهم المحدد، أستطيع أن أحدد بكل بساطة وقت مرور كل منهم، ونادراً ما أخطئ.

اليوم أنا هنا لا أفعل الكثير سوى تخيل الحياة خارج هذا الحصار، ومتابعة فايروس القلق الذي تبثه النشرات الإخبارية، لا أفعل الكثير سوى تخيل الحياة!

11 آذار - مارس 2020

الرسالة الثالثة

كلّها لك، تتمحور حولك بشكل أو بآخر، وكلها محاولات أخيرة لإيقاف الزمن هنيهة والعبور إليك وإتمام الدورة الأخيرة حولك، فأنت المعني وأنت المخاطب وأنت من يدّعي أنه ذاك الأصم الأبكم الأعمى، أنت من يقيم السدود والحوائط العالية أو يوصد الباب ولا يتركه مواربا.

هي رسائل من زمن كورونا يا سيدي لأن البغضاء تتفشى في عالمنا تماماً كهذا الفايروس اللعين.. البغضاء تقتل أكثر من كورونا يا سيدي، قلوبنا مصابة بالعمى، وعقولنا متحجرة.

هي رسائل من هذا الزمن اللعين الذي يحاسبك فيه الآخر على ذنب اقترفته أو لم تقترفه، هو زمن الإنصات للكلمات المشوهة، هو زمن الحقد الأسود، هو زمن يُصدّق فيه الكاذب ويُكذّب فيه الصادق.. هو هذا الزمان زماننا.

أن تصل هذه الرسائل إلى بريدك أو لا تصل ليس مهماً، كل ما في الأمر أنها كانت محاولة أخيرة لرسم وجه آخر لهذا الزمان القلق!

12 آذار- مارس 2020

الرسالة الرابعة

هل تساءلت ما جدوى الكلام في عالم يأكله موت صامت؟ يلوكني الملل بلا توقف، أحصي على يدي أيام العزلة المريرة، يتفاقم الضجر فيدمي ويمتد الفراغ بلا نهاية.

المطر ينهمر في الخارج، أسمع نقراته التي تخفت أحياناً ثم تعاود الدّق بأكف قلقة، هل أشرّع النوافذ لصخب هذا المساء المبتل؟ هل أشرّع النوافذ لهذا المجهول الذي يتدثر بالليل؟ هل أُشرّع النوافذ لقادم غريب يطوف حول الغرفة الوحيدة المنسية في مهب ذكريات وريح وليل؟

نصف ساعة وينتصف الليل، سيدخل اليوم الجديد بلا جديد ولا جدوى، ولن أحتار كثيراً في تصنيفه ضمن أجندة الأسبوع، ليكن الأول أو الأخير ضمن أيام لا يتغير فيها سوى اليوم والتاريخ، ما المهم؟

ما جدوى الكلام حين يكون المستمع الوحيد حائط بارد باهت؟ ما جدوى الكلام حين يرتد لي صوتي وأختنق برجعه الخافت؟ ما جدوى الكتابة إن لم يكن في الكون كله قارئ واحد؟

12 آذار - مارس 2020

فؤاد حمدي

الرسالة الخامسة: لها في يومها

لن أضع بين يديك باقة من الورد، لن أُقبّل جبينك ولن ألثم خدّيك، سأبقى رهينة وحدتي وعزلتي، ليس بسبب هذا الفايروس اللعين، بل بسبب فايروسات اجتماعية لا تعد ولا تحصى.

سأترك على شباكك المشرّع للشمس رسالة، وإن كنت أعلم مسبقاً أنك لا تجيدين القراءة ولا الكتابة. سأكتب لنفسي إذن، أُعزيها، أحاول أن أُخفي وراء الحرف جبني وهزائمي الكثيرة.

في الصباح سأكلمك كما الغرباء، كل عام وأنت بخير يا أمي، كيف حال يديك وملامح وجهك وصوتك الحزين؟ كيف حال حوض النعنع وشجيرة الياسمين؟ كيف حال الصباحات على التلة البعيدة؟ وكيف حال أشجار الليمون وزهر اللوز وباقة الحنون؟ كيف حالي أنا من بعدي؛ هل ما زلت طفلة على يديك؟ كيف حال ضفائري وعقد الأقحوان؟ وكيف حال جرح اللوز الذي تركته شقاوة الطفولة على وجهي؟

هل ما زال درب الرجوع إليك طويلا يا أمي؟ هل غيرت أشجار الزيتون وقفتها؟ هل مات أبي؟ وهل ماتت صورة الطفلة الصغيرة؟

قصّي عليّ أحاديثك الطويلة. حدثيني عن جاراتنا وعن حارتنا الصغيرة. سأهز رأسي وكأنّني أعرف هذا الذي تزوّج بأمس، أو تلك التي طلقها

فؤاد حمدي

زوجها، أو ذاك الذي عاد لتوّه من سفره الطويل، أو هذا الذي اشترى سيارة.

ذاكرتي متعبة يا أمي لم تعد تتسع لكل الوجوه القديمة، هل أطلب منك معروفاً صغيراً يا أمي؟ خذيني للمرة الأخيرة بين ذراعيك، ولا تلتفتي لهذا العمر الطويل الهش. دعيني فقط أستعيد طفولتي، دعيني أبكي طويلاً بين ذراعيك، ودعيني أستردّ نفسي من غيابها الطويل.

20 آذار - مارس 2020

الرسالة السادسة: مَاذا لو؟

أحاول الخروج من هذه العزلة الثقيلة، فأتفقد جدران غرفتي الصماء وأُحاول فتْحَ كُوَّةٍ صغيرة في جدار الاحتجاز لتدخل منها خلالها نسمة واحدة من نسائم آذار فلا ألمح سوى هالة من الضوء المنعكس على الحائط الذي غاب لونه تحت كثافة هذه العتمةً القاتمة.

الغرفة كلها غارقة في ظلام وسكينة ثقيلة، ليل طويل يتغذى على قلقي، ومحاولات يائسة لغواية النعاس.

لا أستطيع كبح جماح أفكاري. أتلعثم بفكرة طارئة تحملها أسئلةٌ تتخبط في أعماقي وتختلط: ماذا لو...؟ ماذا لو توقفت الحياة عند هذه اللَّحظَة تماماً. ماذا لو انتهى كل شيء؟ ماذا لو ماتت كل الكلمات في صدري ودفنت معي؟ ماذا لو باغتني ملاك الموت فجأة؛ هل أتركه يخطف روحي، أم أطلب منه أن يتريث قليلاً ويمنحني بعضاً من وقتٍ لأُصافخ الحياة، كَفَّاً بِكَفٍّ، للمرة الأخيرة؟

ماذا لو كان هذا آخر ما سأكتبه؟ آه؛ سأكتبُ، إذن، وداعاً للحياة القاسية التي لم تكن عادلة معي.

سأكتبُ وداعاً لأول وجه حفظت ملامحه في قلبي، وداعاً لبحة صوت أمي ولحزنها الذي لا ينضب. سأكتبُ وداعاً لقريتي التي تبدلت معالمهامن بعدي، وداعاً لكل من ترك ندبة في قلبي، ولكل من مسح الحزن عنه.

سأكتبُ وداعاً لكل حلم ودّعته قبل أن أراه، لكل وردة سحقتها يد القدر، لكل ما كان يمكن أن يكون.

سأكتبُ وداعاً لمن أفلتوا أياديهم مِنْ يدي، ولمن يتشبثوا بها حتى الوداع الأخير.

سأكتبُ وداعاً لكل كتابٍ حَفَرَ في روحي، ولكل كلمة حَفَزتْهَا على الورق، ولكل ورق كان في مهب الريح التي أغرقت مركباً كَانَ من ورق.

سأكتبُ وداعاً لكل فراشة حملت على جناحيها حلمي ولكل حلم احترق.

سأكتبُ وداعاً للطِّفْلَةِ الَّتِي كنتها، ولِطِفْلَةٍ أُخْرى لن أكونها.

سَأكتُبُ وداعاً لاسمك الذي ألفظه للمرة الأخيرة، ولملامحِ وجهك التي ستكون زادي في رحلة الرحيل إلى الأبد.

سأكتبُ وداعاً لآخر اسم سوف أتذكره قبل أن تتكاثر طحالب النسيان على الذاكرة، وداعاً يا.....، وداعاً.

27 آذار 2020

كاتبة من فلسطين

علوية صبح

صورة المرأة

علوية صبح صوت أنثوي جاد في الرواية العربية، حفرت طريقها في عالم الرواية بدأب جلله صمت الكاتبة صاحبة المشروع إن على صعيد لغة الرواية أو على صعيد موضوعاتها.

قد جاء فوزها بجائزة سلطان العويس في العام الماضي، ليؤكد حضور تجربتها الروائية داخل المشهد الروائي اللبناني خاصة والعربي عامة، وأن هناك من يتابعها ويعرف قيمة ما أبدعته وتأثيره وإن قلّ، فصبح لم تصدر حتى الآن سوى أربع روايات هي "نوم الأيام"، "مريم الحكايا"، "دنيا"، و"اسمه الغرام"، وهي روايات حققت احتفاء وجدلا كبيرين لدى جمهور القراء والنقاد والمثقفين على السواء بدءاً من صدور روايتها "مريم الحكايا".

بعد روايتها "نوم الأيام" الصادرة عام 1986 انتظرت خمسة عشر عاما لتقدم روايتها الثانية "مريم الحكايا" الصادرة 2002 والتي لقيت احتفاء واسعا واستقبلها القراء والنقاد والدارسين بحفاوة بالغة، وعلى نفس المستوى حظيت روايتها الثالثة "دنيا" الصادرة عام 2006، وفي السياق ذاته تم استقبال روايتها "اسمه الغرام". وبالفعل من يقرأ رواياتها "مريم الحكايا" و"دنيا" و"اسمه الغرام" سيكتشف أنه أمام تجربة روائية فريدة في خصوصيتها الموضوعية والجمالية، فهي تطرح قضايا إنسانية شديدة العمق وتتغلغل فيها برفق وجرأة لتضيء الزوايا الأكثر عتمة في ذوات شخصياتها.

وكما جاء في تقرير الجائزة، فقد "وظفت الروائية في رواياتها تفاصيل الحياة اليومية والأحلام والكوابيس لبناء عالم متخيل متعدد الرؤى والإيحاءات، ينهض على أساليب سردية متنوعة؛ فجاءت أعمالها محكمة البناء فنيا ومنفتحة في الآن نفسه على حكايات تتناسل في ترابط وتماسك".

هذا الحوار معها يضيء جوانب أساسية من تجربتها وأفكارها بإزاء جملة من القضايا المتعلقة بالأدب.

قلم التحرير

الجديد: بداية، نتطلع إلى إلقاء الضوء على المرحلة التي سبقت الكتابة، كيف كانت النشأة، وأهم الركائز التي نهض عليها وعيك المعرفي والإبداعي؟

علوية صبح: أعتقد أن المؤشرات الأساسية التي تشكل البنية النفسية للحساسية الإبداعية الإنسانية عند الكاتب تتعلق بمراحل الطفولة، ومراحل تشكل الوعي الإنساني والثقافي، نشأت ببيئة تنتمي إلى الطبقة الوسطى، التي هي طبقة متذبذبة، فيها صعود نحو الترقّي الاجتماعي وفيها هبوط.. في صغري كنت شديدة الانتباه إلى نساء المجتمع وسلوكياتهن وتصرفاتهن ولغتهن وكلامهن، وكنت أميل إلى السخرية من طريقتهن في الكلام والتصرف واللغة والسلوك، منذ البداية كانت لديّ نظرة نقدية، وكنت على شيء من الانعزال في الوقت نفسه. كنت أشعر بأنني أراقب أكثر مما أعيش، وهكذا لم تكن طفولتي شقية بقدر ما كانت طفولة فيها الكثير من الوحدة، على الرغم من أنني أنتمي إلى عائلة أفرادها كثر. كنت أعمل مسرحيات ساخرة في البيت، أقلد فيها أفراد العائلة وأيضا نساء الحي، كانت كل الأشياء النافرة والغريبة والسلوكيات تلفتني.

على المستوى الثقافي المؤثرات كانت علمانية، وعيت على أحلام التغيير والعلمنة وإلغاء الطائفية، كانت عندي أحلام سياسية وأحلام ثقافية، كيف يمكن أن أعبّر عن البيئة أو الحياة التي أعيش فيها. لا أستطيع أن أحدد لك متى بدأت أحلام الكتابة، لأن الخيط الفاصل بين ما قبل الكتابة وما بعدها من الصعب تمييزه أو قطعه. متى بدأت أفكر بالكتابة؟ منذ الطفولة امتلكت حلم الكتابة، كنت وأنا صغيرة أقعد أكتب، الكتابة هي أبرز ما في علاقتي بالحياة والأشياء وبالتعبير عن حالي. عندما كان أحدهم يقول لي شيئا مؤثراً، لا أحكي، بل أذهب إلى الكتابة، الحاجة إلى الكتابة كانت موجودة عندي منذ الصغر. علاقتي بالتعبير نشأت من علاقتي بالحكي. وحين تنصت إلى ذاتك لا بد أن تعثر على مؤثرات حياتية أكثر، فكل ما يعيشه الكاتب وما يقرأه ويشاهده يشكل مؤثرا، لكن هناك فرق بين المؤثر والتأثير وبين التقليد، لقد قرأت الأدب الروسي وأعمال نجيب محفوظ وجيل الرواد والأدب الأجنبي والعربي والتراث وشهرزاد، وتعرفت على المشكلات الثقافية، كل ذلك تم هضمه وتخزينه، لكن أنا لا أفهم الكتابة تقليدا

لأحد، الكتابة تتم عبر وجدانك ووعيك. هناك من يكتب تحت ضغط المؤثرات الثقافية، وهناك من يكتب تلبية لحاجة شخصية ومؤثرات إنسانية ذاتية لها علاقة بتجربته الإنسانية. التحدي بالنسبة إليّ هو في كيفية خلق شخصيات حية ومليئة بالحياة، وألا تكون ميتة أو ألا تولد ميتة حتى لو استلهمتها من الكتب، التحدي هو أن تكون قريبا من الحياة لتقرّبها وتقرّبك من الأدب.

من كتابة الذات إلى كتابة الحياة

الجديد: ما وزن ما انعكس من الوضع الاجتماعي الذي عشته إلى جانب الوضع الثقافي المحيط على كتابتك الروائية؟

علوية صبح: أعتقد أن هناك صلة قوية بين البيئة أو الحياة والكتابة عندي، لطالما شعرت أن الكتابة فيها إلى حدّ ما تلاق مع الحياة، غير مؤمنة بجيل الحداثة. لا أقصد هنا جيل نجيب محفوظ أو استثناءات في الرواية العربية. مع جيل الحداثة وجيل الأيديولوجيا كانت المؤثرات الثقافية أبلغ من مؤثرات الحياة، كنت أشعر أن معظم كتابات هذا الجيل أيديولوجية وتأتي من الكتب، الكتابة لديه تأتي من الكتب، والثقافة تأتي من الثقافة، يعني أن مرجعية النصوص هي الثقافة أكثر منها الحياة، ومرجعيتها الأفكار، وأفكار الكاتب تحديدا هيمنت على جيل بكامله في الستينات والسبعينات، كنت أشعر أن هذه الكتابة بعيدة عن قلقي الشخصي الإنساني، وكنت أشعر بشكل خاص أن الشخصيات الشعبية من نساء ورجال مهمشين . هم أيضا مهمشون في الكتابة . هم همّي الخاص، عندما بدأت أكتب. قبل الكتابة حاولت كثيرا أن أجرّب التعبير عن ذاتي بمعزل عن المؤثرات الثقافية، كتبت ورميت كثيرا. رميت أكثر بكثير مما احتفظت، حتى حينما بدأت بكتابة روايتي الثانية "مريم الحكايا" بعد انقطاع وصمت مديدين من كتاب "نوم الأيام"، روايتي الأولى كانت تجربة داخلية ذاتية، "مريم الحكايا" خرجت معها إلى الحياة، إلى الآخرين، إلى الشخصيات الشعبية، إلى الذاكرة، إلى النساء اللاتي شعرت أنهن مغيّبات من الأدب، بدأت أكتب وأكتشف، وقادتني الكتابة نحو عوالم مجهولة، أعني العالم السفلي، الشعبي، لشخصيات كانت تدهشني وأنا أكتشفها.

> كتبت ورميت كثيرا. رميت أكثر بكثير مما احتفظت، حتى حينما بدأت بكتابة روايتي الثانية "مريم الحكايا»

أقتل أبطالي

الجديد: يفصل ما بين روايتك الأولى "نوم الأيام" وروايتك الثانية "مريم الحكايا" ما يتجاوز 16 عاما.. أين كنت وماذا كنت تفعلين؟

علوية صبح: تقول مريم في روايتي وهي تفتش عني بأنني ربما كنت بين عذاب الأموات وربما مفقودة من المفقودين في الحرب اللبنانية، وطوال هذه الفترة كان لديّ هذا الإحساس بأنني مفقودة مع الذين فقدوا، وربما ميتة مع الذين ماتوا، لأن الكتابة كانت بالنسبة إليّ هي الحياة، وطوال هذه الفترة التي لم أنشر فيها، كنت أشعر، فعلاً، بأنني بين المفقودين، لأن الكتابة هي العيش، هي الرئة، هي الإحساس بالوجود، الكاتب لا يمكن أن يوجد من دون الكتابة. طوال هذه الفترة كانت نهايات الحرب اللبنانية، وكنت أحاول في عزلتي أن أجرب وأن أكتب وأن أرمي وأن أمزق، كنت أكتب لكني لم أكن أفكر بالنشر، كنت يائسة من الحرب ومن الثقافة، وكان لديّ إحساس بأنني يجب أن أكتب وأكتب وأكتب، ولكن لا داعي للنشر. ثم وصلت إلى مرحلة بتّ أشعر معها بأن الشخصيات التي كتبت عنها والعالم الذي كتبته وبات في أدراجي، في لحظة ما. صدقني. شعرت بأن رائحة عفونة تخرج من الأدراج، وأن الشخصيات ماتت من الاختناق، لأنها لم تر النور ولم تصدر في كتاب. شعرت أنني أقتل أبطالي. حين لا نكتب عن الأبطال نقتلهم وحين نكتب ولا ننشر نقتلهم مرة ثانية. كانت مراوحة بين اليأس والضياع والكتابة من دون هدف، تلك كانت ميزة السنوات التي سبقت "مريم الحكايا".

الجديد: من أيّ صلب ولدت "مريم الحكايا"؟

علوية صبح: من صلب الحياة، من صلب التجربة الإنسانية في الحرب اللبنانية، من صمت النساء، من الرغبة بالكلام عن الذاكرة النسائية، والرغبة في وضع صوت الكاتب جانبا، صوت علوية أو زهير ومريم. كنت أشعر أنني كتبت وكتبت ما يقارب الألفي صفحة، ثم اختصرتها لألف صفحة، وبعد ذلك لأربعمئة وخمسين صفحة، تولّدت لديّ حاجة في أن تحكي شخصية شعبية (مريم) بدلا عنّي وعن زهير، أولا لأنني صمتّ وكنت أحتاج إلى بطلة تعيدني أيضا إلى الحياة حين تروي. حين يحكي الأبطال فإنهم يعيدونك إلى الحياة، شعرت برغبة في أن أسلّم الحكي ومفاتيح الحكي لمريم بدلا عنّي وعن زهير أي بدلا عن الكتابة، يعني مريم هي المحكي وعلوية وزهير هما الكتابة التي أشك أنا بالأساس فيها، ومن هنا استلمت مريم الحكاية بدلا عنّي وعن زهير.

نهاية زهير

الجديد: عادة ما تنشأ علاقة من نوع ما بين الكاتب أو الكاتبة وبطل الرواية. كيف تصفين علاقتك بمريم؟

علوية صبح: مريم أزاحتني، هي توأمي، ربما تكون فكرتي الشعبية، ربما تكون المرأة الشعبية التي كانت صامتة ولم تنطق في الأدب، شخصية مريم نقيضي، وهي تحكي عنّي في الرواية وأحاول أن أرى نفسي من خلال عينيها، حتى حين أصف شكلي، وتصرفاتي. تقمّصتُ مريم طوال فترة الكتابة، وأذكر أنني خلال فترة الكتابة أحيانا حين يسألني أحد شيء أو حين أتعاطى مع الناس أيّ عمل كان يخيل إليّ أنني مريم، وأحيانا أجيب أجوبة مريم، وحين انتهت الرواية شعرت بغيرة منها، شعرت بأنها أهم منّي، أنا لا شيء، فأنا الكاتبة التي عجزت عن الكتابة، وتخيلت مريم المرأة التي بعثت اللغة فيّ. شعرت أن حياتها غنية ومليئة، أفعمتني بالغيرة هذه الشخصية. زهير أيضا كان توأمي، ربما الثقافي، ومريم توأمي الشعبي. زهير هو البعد الثقافي فيّ، هو الأيديولوجيا التي فيّ، وفي لحظة من اللحظات حين وصلت كان عليّ أن أقتله، واحد منا يجب أن يموت، أنا أو زهير. حين قتلته بكيت وأنا أضع نهايته، لأنه جزء مني، كنت أشعر بأنه جزء مني كما هو الحال بالنسبة إلى مريم.

الجديد: ألا ترين أن روايتك "دنيا" لم تأخذ حقها من الاستقبال؟

علوية صبح: لا، بالعكس، "دنيا" من وجهة نظر بعض النقاد أهم من "مريم الحكايا"، وهي أيضا تم طبعها عدة طبعات، فهي على مستويي النقد والقراء لقيت ربما الاهتمام نفسه، ربما أهل الأنتلجنسيا أحبوها أكثر. ما حظيت به "دنيا" من كتابة نقدية كان مديحاً لافتا للنظر.

التقنية الشهرزادية

الجديد: هل ولدت "دنيا" من رحم "مريم الحكايا"؟

علوية صبح: مريم ودنيا ولدا من رحمي، أعتقد أنني في "دنيا" حاولت أن أكمل المشروع الروائي الذي هو تراكم التجربة الكتابية المفتوحة التي لا تقع في التجريب بقدر ما تحاول أن تتجاوز ما هو ثقافي وما هو منجز، يعني أنا انفتحت على ذاكرة أخرى في الكتابة، يتحدثون كثيرا عن الكتابة الجديدة، لكنني أعتقد، وبكل تواضع، أنني من علاماتها، يعني أحاول أن أعمق هذه التجربة وأن أستكملها بما هي تواصل مع التراث، وبما هي عدم انقطاع عن الرواية العالمية والتجربة الغربية، ولكن من دون أن أقع في التقليد لا تقليد التراث ولا تقليد الرواية الكلاسيكية، يعني أنا أحاول أن أشكل، أن أؤلف، أن أعبر عن قلقي الشخصي في الكتابة، أسئلتي في الكتابة، التي تشبه الشكل الحلزوني . إذا شئت . أو تشبه فن الأرابيسك الشرقي، الحياكة، التأليف على جدارية واسعة، الحكاية التي تتوالد من الحكاية، ولكن من دون أن أقلد ألف ليلة وليلة أو شهرزاد، هذه الشهرزادية التي حكى عنها النقاد أنا لم أحاول أن أطرق بابها، أنا ضد الأصوليات الثقافية سواء أكانت أصولية شرقية أم أصولية غربية، أنا مع حرية الإبداع وأريد أن أقول إن التقنية هي بالضرورة يجب أن تكون من لحم النص، النص نفسه، الرواية نفسها تفرض التقنية، أنا لا أجلب تقنية من خارج الموضوع وألبسه، إياها. في "مريم الحكايا" وكذلك في "دنيا" استدعيت التقنية الشهرزادية لأن طبيعة المرويات هي التي استدعتها، وليس بقرار ذهني أو ثقافي. ربما أكتب رواية خارج هذا النمط إذا كانت الحاجة التعبيرية تستدعي تقنية أخرى.

ائتلاف واختلاف

الجديد: زمنيا تنتمي "مريم الحكايا" و"دنيا" أيضاً، إلى مرحلة الحرب كخلفية أولى، ولكن تصلح لأزمنة أخرى؟

علوية صبح: هذا السؤال لا يجيب عنه الزمن وحسب، ولكن القراء أيضاً الذين قرأوا الروايات. أنا لم أكتب عن الحرب كموضوع أو كمعطى ميداني، كتبت عن مصائر شخصيات، وعن التبدلات التي أصابت الشخصية بسبب الحرب، استكشفت ما يبقى مع الزمن، كانت المسألة استكشاف واستحضار ذاكرة مجتمعية وذاكرة شخصيات، حفر في الشخصيات الإنسانية، وكشف لها في البنى النفسية وفي الأجساد والرغبات، في البناء النفسي وفي البيئة والزمان والمكان، يعني هناك شخصيات على مدى ثلاثة أجيال في كلتا الروايتين. قدمت أنماطا متعددة من الشخصيات الشعبية، وحفّرت، كنت أشعر أنني أبني وأهدم لأعمر الشخصيات وأشكلها، الحرب هي الخلفية لكن الكشف الإنساني والنفسي والاجتماعي هو ما يبقي.

> مريم أزاحتني، هي توأمي، ربما تكون فكرتي الشعبية، ربما تكون المرأة الشعبية التي كانت صامتة ولم تنطق

الجديد: على الرغم من اختلاف الرؤى والوعي بين روايات "مريم الحكايا"، "دنيا" و"اسمه الغرام"، يمكن الحصول على خيوط مشتركة، وإن رقّت.. فهل يمكن إدراجها تحت مسمى ثلاثية؟

علوية صبح: الكاتب يبني عمارته، ولكل رواية عوالمها وهواجسها وطبقاتها وما تكشفه وتحمله من عوالم. المهم ألا يقلد

الكاتب نفسه، ألا يكررها، أن يتجاوزها باستمرار. في رواياتي الثلاث، كنت منحازة إلى البوح الحر، وإلى الحكي، وإلى كل ما يستدرج المنطق البنائي لكل رواية.
هي ثلاثية، كما كتب النقاد والأكاديميون. لكن برأيي، الأولى مرتبطة بالثانية أكثر، وإن كانت كل واحدة مختلفة عن الأخرى. لكن عالم "اسمه الغرام" كانت له خصوصيته. لم يكن من السهل أن تبني، من خلال العلاقة بالجسد، شخصيات ومرويات وحيوات بلا أيّ خطاب.

اسمه الغرام

الجديد: في "اسمه الغرام" سرد جذّاب ولغة تتضافر لتتشكل حيوات واقعية عبر سياقات ومستويات ثقافية واجتماعية مختلفة. كيف كانت فكرتك الأولى عن هذه الرواية؟ وكيف تطورت في سياق الكتابة؟

علوية صبح: كان لديّ حلم أن أكتب عن حياة امرأة حرة غير نمطيه في الأدب السائد. راودتني أفكار وتخيلات كثيرة. ولم أكن أعرف كيف أبدأ، وماذا أسرد، وكيف أبني شخصية أو شخصيات من لحم ودم. ولم أكن أخطط بأن الجسد الأنثوي ستكون له الدلالات التي أبرزتها الرواية، والذي من خلاله استطعت أن أذهب إلى مرويات وسرديات كاشفة وحقيقية وحية.
حين بدأت بالكتابة، وجدت نفسي أقول للبطلة "نهلا": كيف أكتب عنك وأنا لا أعرف شيئا عن حياتك؟ فأجابتني: اكتبي لتهتدي.
الكتابة عندي هي دائما أشبه برحله استكشاف. لم أشعر يوما أني أكتب لأنني أعرف، بل أكتب لاستكشف. تخيلت "نهلا" تقودني إلى الاكتشاف، وكنت طوع يد بطلتي وروايتي.
"نهلا" البطلة لا تشبه نساء الرواية الأخريات، لا في الحب ولا في ما يسميه البعض خيانة. منذ البداية تبدو شخصية مختلفة وخارج النمط. هي كاملة الأنوثة والأمومة. ولذا استطاعت أن تستنطق جسدها وجسد الرجولة في كل الأعمار، وخصوصا في منتصف العمر، وعيش الحب في كل مراحل العمر.
ربما تكون "اسمه الغرام" تحدثت عن تجربة الأنثى، من اكتشافها وعيشها إلى محوها أو انحرافها، لأن لـ"نهلا" رؤية نسجتها على نحو مختلف مما نسجت في رواياتي الأخرى. حدثت عن علاقة الأنثى بجسدها، بالحبيب، بالشريك، الذي يساعد في اكتشاف الجسد، أو ذاك الذي يمحوه ويقمعه. نعم، كان كلام "نهلا" حقيقيا وحيا في كل هذا، وكان ذلك خارج النمط.

الجنس في الرواية

الجديد: هل برأيك كان ضروريا أن يتجلى الجنس في حياة بطلاتك؟

علوية صبح: الجنس في رواياتي مثله مثل أيّ موضوع آخر، الكتابة فعل حرية وليست ردة فعل، بمعنى أنني لم أكتب الجنس لأقول إنني جريئة، أو لأقول إنني أريد أن أخدش حياء المجتمع وأخدش الأخلاق، لست في حاجة إلى ذلك، لأنني أؤمن بأن الكتابة هي فعل حرية، وأعتقد أن القارئ والقارئة شعرا بأن الجنس في روايتي عفوي وليس مفتعلا، الجنس غالبا ما يأتي لكشف الشخصية، لا بد وأن أمرّ على الجسد، الجنس فعل يشكل عامل إضاءة على الشخصية، وهو جزء منها وليس من خارجها، ليس مفتعلا، يعني حين تريد أن تحفّر الشخصية وأن تكشف بناها النفسية والذهنية والعاطفية والفكرية لا بد في لحظة ما أن تصطدم بالجسد، وأن تعبّر عنه، لأن الجنس عندي هنا كشف إنساني، لعلاقة المرأة بجسدها وبالرجل، وعلاقة الرجل بجسده وبالمرأة. الجسد يحمل كل المؤشرات الثقافية والاجتماعية والذهنية للمجتمع، لذا لا بد لعملية الحفر أن تضيء على الجسد كما تضيء على جوانب أخرى في الشخصية. إنني ضد كتابة الجنس المفتعلة التي تجئ فقط للقول بادعاء الجرأة من دون أن يكون لها مبرّر فني، كل ما له مبرّر وحاجة فنية يحق للكاتب أن يكتبه، والجنس في رواياتي حاجة فنية، لأنه في لحظة ما لا بد وأن تضيء وأن تكشف الشخصية عبر العلاقة الجنسية.
ما أريد أن أقوله إن هناك محجبات لم يرفضن رواياتي، بل تحدثن إليّ أنهن لم يخجلن من قراءة رواياتي لأنهن لم يعتبرنها بذيئة رغم الجرأة، قلن "علمتنا وجعلتنا نعرف ما الحياة وما المجتمع وما الرجل، كيف يرانا الرجل، وكيف نرى حالنا معه، وكيف نرى أجسامنا، وما هي علاقتنا بأجسامنا".. القارئ لا بد من أن يشعر بصدق الكاتب، الصدق يصل إلى القارئ، والافتعال يصل.

الجديد: لكن الجنس ، بشكل عام ، بات تجليه قويا في الرواية العربية، هل ذلك أيضا يعد طبيعيا؟

علوية صبح: لا بد للصراخ الجنسي من أن يهدأ وأن تدخل الكتابة في العملية الفنية بحد ذاتها، أنا ضد كتابة الجنس أو غيره ما لم تكن هناك حاجة فنية، بعض الكاتبات يلجأن للجنس لأسباب كثيرة إما للقول بأنهن جريئات أو للتنفيس، محتاجات لأن يعبّرن عن جسدهن باللغة، أحيانا يشبه ذلك الصراخ، وأحيانا يشبه الاستهلاك الجنسي، ولكن ذلك يتم عند الكتّاب وعند الكاتبات، لماذا عندما نتحدث عن كتابة الجنس نشير إلى الكاتبات فقط ، فالكتّاب أيضا يكتبون الجنس، لماذا الرجل مسموح له والمرأة لا؟ الأمر يطال الاثنين، في الكثير من هذه الكتابات ليست هناك حاجة فنية لكن أنا برأيي ربما تكون هناك حاجة شخصية أو اجتماعية أو نفسية، مع الوقت ربما التراكم يؤدي إلى الفنية، إنها مرحلة، ربما هناك حاجة للتنفيس، لكن بعد أن يهدأ هذا الأمر سيكون هناك وعي فني، إن معظم ما يميز هذه الكتابات أنه لا يوجد بها وعي فني، لكن كما قلنا مع الوقت يمكن أن تصل إلى هذا الوعي، وبشكل خاص في السعودية، فالكاتبات هناك محتاجات للتعبير عن أجسادهن لكن ليس هناك مبرر فني في كثير من هذه الأعمال، مع الوقت ربّما يصلن إلى الفنية.

صورة المرأة

الجديد: ما هي في نظرك أهم المشكلات التي تعاني منها المرأة على اختلاف تكوينها الثقافي والمعرفي في الوقت الراهن؟

علوية صبح: المرأة تعاني ما يعانيه الرجل من مشكلات، ولكن تزيد معاناتها عن الرّجل بسبب القمع والأميّة وغياب المجتمع الديمقراطي وضيق المجال أمام الطاقات النسائية. المرأة تعاني من العنف في مختلف أشكاله، العنف الديني، العنف الجنسي، العنف الاجتماعي، العنف اللغوي، المرأة عندها مشكلات أساسية. لكن هناك بالمقابل محاولات من المرأة لإثبات حضورها ومواجهة التحديات بحلول وخيارات شخصية، وأهمّ ما تعانيه المرأة ككاتبة هو قبولها، قبول الصورة التي يضعها فيها المجتمع، لذلك كل ما أفعله بكتابتي هو تعرية هذه الصورة. الرجل هو من رسم للمرأة كل شيء، حدّد لها علاقتها بجسمها وبأولادها ومجتمعها، وسلمها مفاتيح المجتمع الذكوري لحراسته، وبالتالي عندها مشكلة مع صورتها، ومن ثم ما أحاول أن أكتبه هو نزع هذه الصور وتعريتها، نحن نحتاج كنساء أن نفهم. مع الكتابة أكتشف ما هو واقع المرأة، من دون كتابة ربّما لا يمكنني معرفة ذلك أو اكتشافه، الكتابة تجعلني أعرّي الصور وأذهب إلى ما هو حقيقي في الأدب، وليس إلى مجرد صورة، فأنا لا أكتب كما علّمني الرجل أن أكتب، لكنني أكتب وأنا أبحث عن لغتي في الكتابة، يعني أمزق الصورة لأصل إلى ملامحي في الكتابة كأنثى، وبالتالي نحن صور، حتى الرجل رسم لنفسه صورة، ونحن نتعامل مع الرجل كصورة ويتعامل معنا كصورة، نحن نتعامل مع بعضنا كصور وليس بشكل حقيقي عار.
هي المرأة المموّه كل ما يخصّها من لغتها، من تعبيرها، من دورها، وقلقي الشخصي ككاتبة هو في بحثي عن السبل التي تتيح لي نزع هذه الصور وتعريتها.

لغة الشخصية

الجديد: هذا يجعلني أسألك عن الإشكاليات التي تواجهك ككاتبة؟

علوية صبح: سأقول لك شيئا، الرجال الذين غاروا من كتابتي كانوا أكثر من النساء. الرجل الذي يفكر أن المرأة تابع، وأن الأدب النسائي ملحق، يشعر بالتأكيد بفعل الذهنية الذكورية هذه وكأن أحدا (عما يقشطه الكلام)، هو يعتقد بأنه المعبر عن المرأة، هو فعلا بدأ بالتعبير عنا، أن تأخذ الكلام منه. الكلام سلطة. أنت تأخذ منه عنصراً أساسياً من عناصر سلطته، وأنا "ما بدي أقشطه الكلام وأحرمه منه"، أنا لم آت ولم أكتب لأحرمه الكلام، ولكن لكي أغني، لكي أعمل حوارا وأعمقه، إنني آتية لأغني وأعمل تعدد أصوات، وحتى أكون أنا وهو معبرين عن المجتمع وعن حالنا، لأن الرجل قال لنا: أنت تعبرين عن حالك وعن عالمك الضيق. ونحن صدقنا. وهو يعبر عن مجتمعنا، لأنه هو السلطة وهو الناطق باسم السلطة منذ أن كان الشاعر شاعر القبيلة، وأيضا وصل ليكون الراوي هو راوي القبيلة، وبالتالي هو يعبر عن المرأة ويعبر عن حاله، فجئت أنت لتعبر عن حالك. ما يخيف المجتمع الذكوري أن تكون الكتابة تعرية، يعني أنا أذكر أن أحد الأصدقاء قال لي: أنا صرت أخاف منك، عندما تنظرين نحوي أشعر أنك تعرّينني.
أن تكتب المرأة بشكل حقيقي هي لا تقول للرجل تنحى جانبا. أنا لا أريد أن أقول للرجل تنحي لأعبّر عنك، كما فعلت نوال السعداوي وأسماء كثيرة. أريد أن أعبّر عن ذاتي حتى تكون هناك مشاركة في بناء الذاكرة وصناعتها وغناها وتعدد أصواتها، لأنه لا توجد حقيقة واحدة، والكتابة بحث عن الحقيقة، هي كشف. والكاتب هو أسلوبه، والأسلوب هو روحه ونبضه. من قراءة اللغة نعرف لمن هو النص. لغتك مثل لون عينيك، مثل لون جلدك، مثل روحك، التقنيات والهواجس تختلف من عمل لعمل، لكن لغتك تظل خاصة بك.
أؤمن أن الرواية تعدّد أصوات، والمشكلة أن معظم الروايات في عالمنا العربي وفي لبنان، تشعر معها بغياب تعدّد الأصوات، هناك صوت الراوي العليم العارف، هو موجود في كل الشخصيات، أكانت مومسا أو مدرّساً أو نجاراً. لغة الكاتب يبثها في كل الشخصيات. بخلاف ذلك، أرى الفعل الروائي مساحة وفضاء لتعدد الأصوات، لذلك لا أحاول أن أسيطر على الشخصيات فألبسها لغتي. لا شك أن كل كاتب تتسرب لغته لبعض الشخصيات، لكن هناك فرق في أن تعطي من ذاتك لأبطالك، أو أن تلبسهم لغتك، وتجعلهم ينطقون باسمك. الروائي في نظري لا بد أن يتقمص لغة أبطاله ويعرف أحاسيسهم، يروح هو لعندهم ويستنطق لغتهم، ولا يلبسهم لغته.

الجديد: الكاتب صاحب الفكرة الأساسية للعمل، وأبطاله يخدمون فكرته، إذن الكاتب ولغته ليسا ببعيدين؟

علوية صبح: الكاتب ليس بريئا والكتابة الروائية ليست بريئة ولا تدّعي البراءة، لماذا أستدعي شخصيات نافرة مثلا؟ لا أعرف، أكيد لها علاقة بأنها تستلفتني، وأقدمها نافرة حتى أقول شيئا عبرها، تكشف مجتمعا، تقول شيئا، لكن هناك فرق بين ما يحمله النص من أطروحات، بين أن تقول، أن تتكئ، أن تخترع، وتخلق أبطال وتلبسهم لغتك وقناعاتك وأفكارك وأيديولوجيتك، هنا تلغى الحياة، هنا لا يخلقون أحياء بل أمواتاً. والعمل الروائي في النهاية هو تخييل مقنع، إن سقط الإقناع يفقد العمل أهميته.

أجرى الحوار في دبي: محمد الحمامصي

مقال

المخلوق الهلامي الخارق

"الجولم" في المخيال الشعبي اليهودي

نهلة راحيل

يزخر التراث اليهودي بحكايات خرافية عديدة عن كائنات خارقة يصنعها الإنسان بنفسه، وينوّع في شكلها وصفاتها ويحاول تزويدها أيضا بسمات بشرية، أبرز هذه الكائنات المُخلّقة هي: "الجولم". وكلمة "جولم" تعني بالعبرية "جسد غير محدد الملامح، أو غير مكتمل الهيئة"، وقد ظهرت في العهد القديم مرة واحدة فقط لتشير إلى المادة الجنينية التي لم تُشكل بعد (المزامير 139: 16)، كما وردت مرات عديدة في التلمود الذي يصنّف المراحل المختلفة لخلق "آدم" ويدعوه بالاسم "جولم" في ساعاته الأولى قبل أن تُنفخ فيه الروح (مسيخيت سنهدرين 38، ب).

"الجولم" في التراث الشعبي اليهودي - كما يعرفه جرشوم شالوم - هو جسد هلامي غير محدد الملامح انتشرت أسطورته، بصيغها المختلفة، بين يهود شرق أوروبا ووسطها. وقد تعددت الحكايات عن تخليقه باستخدام الحروف والكلمات وبمساعدة كتاب الخلق، مع ازدياد الإيمان بالقبالا العملية والانشغال بالسحر وسط يهود أوروبا في العصور الوسطى والتي وصلت إلى ذروتها مع انتشار الحركة الحسيدية في القرن الثامن عشر.

ثم انتشرت مرويات الجولم وطرق تخليقه - كما يقر موشيه إيدل - مع زيوع الاتجاه العلماني وسيطرة قيم العلم خلال عصر التنوير الأوروبي؛ حيث بدأ يسود الاعتقاد بأن الفرد، بقدراته العقلية الهائلة، هو منقذ ذاته ومخلصها، فعبّرت الأسطورة عن قلق الفرد العلماني من القدرات الخارقة التي قد ينسبها لنفسه ثم انقلابها عليه من خلال تجسيد شخصية "الجولم" لثنائية الكائن المنقذ/المدمر الذي يساعد خالقه في البداية ثم يثور عليه في النهاية.

وقد ترددت حكايات خلق الجولم بدءا من القرن الثاني عشر تقريبا، عندما نُسب إلى الربّي صموئيل هاحسيد إنشاء كائن طيني يصاحبه في ارتحالاته بين إيطاليا وألمانيا ويكون خادما مطيعا له وقد كان أصمّ لا يتحدث. كما شاعت أسطورة أخرى تحكي عن أن الفيلسوف شلومو بن جبيرول قد خلق لنفسه جاريةً (جولم في شكل امرأة) بمساعدة كتاب الخلق، وهو ما نُسب أيضا إلى الفيلسوف أفراهام بن عزرا الذي خلق جولما بقوة الحروف المقدسة وأعاده ترابا بالطريقة ذاتها.

وقد نسبت نسخ عديدة من الأسطورة للربّي إلياهو بعل شيم التشليمي - نسبة إلى مدينة تشليم في بولندا - قصة خلق الجولم بمساعدة كتاب الخلق، ثم إماتته له بإزالة اسم "الله" من فوق جبينه قسرا حتى يعطل قوته ويعيده ترابا بعد أن نما جسده وتعاظمت قوته بشكل أخاف اليهود وغيرهم. وكان جولم تشليم بمثابة "إنسان أدنى" - وفق وصف جرشوم شالوم - عملاقا وأخرس ومأفونا، ينفذ أوامر سيده فقط، ويُقال إنه بعد أن أصبح طينا مرة أخرى، عقب نزع الحروف المقدسة المنحوتة على جبهته، سقط على الربي إلياهو وقتله في الحال.

والنسخة الأشهر من الأسطورة تربط ظهور الجولم بالمرويات الخاصة بالربّي يهودا ليف بن بتسلئيل المعروف بـ "مهرال براغ"، الذي نُسب إليه إنشائه لكائن طيني "على هيئة إنسان قبيح الشكل" وبث الروح فيه عن طريق السحر والتعويذات، من أجل تسخيره لخدمة سيده/خالقه وحماية يهود براغ من هجمات الاضطهاد أو التنكيل التي تحدث لهم بسبب تهمة الدم التي ألصقت بهم آنذاك.

وقد دعاه الربّي ليف باسم "يوسيف"، واشتهر بين الناس باسم "يوسيل الجولم" أو "يوسيل الأخرس"؛ حيث خُلق محروما من النطق في الصيغ المختلفة للأسطورة. ولم يخلقه الربّي ليكون "إنسانا أدنى" بل جعله "شبه إنسان" ومنحه سمات خارقة تُمكّنه من إحياء الموتى وإنقاذ اليهود مما يتعرضون له من مشاكل كبري.

وتحكي أسطورة مهرال براغ قصة خلق الجولم من طين نهر "فلتافا" ببراغ وبث الحياة في الكائن الطيني عن طريق صياغة الأحرف العبرية (א. מ. ת) التي تشكل كلمة (אמת/ حقيقة) على جبينه، على أن يشطب منها الحرف (א)- فتصبح (מת/ مات) - عشية الجمعة - لتعطيل قوة الجولم كي لا يدنس يوم السبت المقدس.

وهناك روايتان مختلفتان حول نهايته، الأولى - وهي الأشهر- تروي إشاعة الجولم للفساد بين الناس وتهديده لخالقه الذي يتمكن في النهاية من إماتته بعد أن ينتزع من فمه الورقة المكتوب بها اسم (الله) المسؤولة عن إحيائه، ليسقط الجولم على الأرض ويعود إلى هيئته الأولى، كتلة طينية جامدة، ويقال إن جثمانه ما زال مدفونا حتى اليوم في عليّة أحد المعابد القديمة في الحي اليهودي ببراغ.

بينما تحكي الثانية عن اضطرار الربّي يهودا ليف إلى الرحيل إلى إحدى مدن بولندا للاستشفاء بعد أن خارت قواه؛ حيث تستنفد طقوس خلق الجولم قوة خالقه كما يشيع في القبالا العملية، وهنا يحتار في أمر مخلوقه/ الجولم فيتضرع إلى الله طالبا العون، ويطيع أمره بألا يميت الجولم بل يصلح من خلقه ويضيف المعرفة والفهم إلى قوته الجسدية ويمنحه القدرة على الكلام، ليؤدي دوره في إنقاذ اليهود من أيّ كوارث محتملة قد تقع لهم في المستقبل.

ويرجع الفضل في انتشار أسطورة الجولم بين يهود أوروبا في الأساس إلى الربّي يهودا يودل روزنبرج الذي وثّق في كتابه "معجزات المهرال" (1909) مراحل حياة الجولم والغموض الذي يكتنف نهايته، ووصف تفصيلا قصة خلق الجولم وأعماله البطولية التي قام بها لإنقاذ يهود براغ من جرائم الدم، وغيرها من مهام أسندها إليه خالقه مهرال براغ لحماية اليهود.

وقد انشغل المخيال الشعبي اليهودي بالأسطورة أكثر وأكثر بعد العثور على رسالة لمهرال براغ بعنوان "رسالة المهرال المقدسة عن خلق الجولم" - يعود تاريخها إلى عام 1583 - يصف فيها كيفية خلقه للجولم، ويجيب على أسئلة الحاخامات حول حقيقة استخدام القوى السحرية للحروف وللكلمات في تسخير هذا الكائن المخلوق لخدمة يهود براغ وحمايتهم، ويدلي فيها بأسباب إقدامه على هذا الفعل والظروف السياسية التي عاصرها اليهود في براغ آنذاك، وهي الرسالة التي ألحقت عام 1931 بأحد أجزاء كتاب "أقوال يوسف" للربّي يوسف مائير ڤاييس.

وقد تعددت مرويات الأسطورة في التراث الشعبي اليهودي بين ثلاثة مستويات :الأول،

عمر إبراهيم

عمر إبراهيم

يُظهر الجولم في شكل الخادم المطيع لسيده والمنفذ لأوامره، والذي لا يمكنه الكلام أو التعبير عن نفسه، فهو يعمل ويكدّ فقط ليحمي يهود الجيتو تلبية لرغبة خالقه. والثاني، يجسد الجولم في شكل كائن ينمو ويتطور- جسديا وعقليا - فيثير الرعب في نفوس من كان يحميهم، ويحاول خالقه تجميد قوته وإيقاف حركته. أما الثالث، فيصبح فيه الجولم غير متعاون مع البشر ويتمرد على خالقه/سيده تماما، رغبة منه في أن يمتلك حياته الخاصة كسائر المخلوقات، فيفقد سيده السيطرة عليه وتقع بينهما العديد من المواجهات.

وقد تحولت أسطورة الجولم إلى حكاية شعبية متداولة في الفلكلور اليهودي، ومن ثم فقد شكلت مصدرا ملهما للأدباء - اليهود وغير اليهود - مع بدايات القرن العشرين؛ فتجسدت شخصية "الجولم" في العديد من الفنون الأدبية والبصرية والتشكيلية.

وينسب باحث الميثولوجيا اليهودية جرشوم شالوم الاستثمار الأدبي الأول للأسطورة إلى رواية "سبينوزا" (1837) للأديب الألماني اليهودي برتولد أويرباخ، وهو الأمر الذي يرفضه الكثيرون، ومنهم الناقد إيلي أشيد، مشيرا أنه لا وجود لأيّ حقائق داخل ذلك النص أو خارجه تدعم هذا الطرح، ومؤكدا أن الأسطورة ذاتها لم يذع صيتها في المخيال الشعبي لدى اليهود من ساكني ألمانيا.

أما أول أديب غير يهودي يستلهم تلك الأسطورة في عمل إبداعي - وفق موشيه إيدل - فهو التشيكي فرانس كلوتشاك الذي تأثر - بطبيعة الحال - بما يدور في الحي اليهودي ببراغ عن الجولم وخالقه المهرال، فسرد حكايتهما في قصته القصيرة التي نشرها في إحدى صحف التشيك عام 1841، مما يؤكد أن السياق الثقافي الأوروبي حينها - بمناخه العلماني القلق - كان مؤهلا لاستقبال فكرة المخلوق المنقذ/المدمر لخالقه وإعادة صياغتها وتفسيرها إبداعيا. ويدعم هذا الطرح توليد أساطير أدبية تتصل بالأسطورة اليهودية كما نجد مثلا في رواية "فرانكشتاين" (1818) للكاتبة الإنجليزية ماري شيلي التي تدور حول شخصية مُخلقة من أشلاء بشرية متفرقة تتمرد على صانعها وتتسبب في دمارهما معا.

ومن أهم الإبداعات السردية العالمية التي احتفت بفلكلور الجولم رواية اليهودي النمساوي جوستاف مايرينك "الجولم" (1915) التي كتبها أثناء فترة عمله ومكوثه ببراغ، كما تعد قصيدة "الجولم" (1957) للكاتب الأرجنتيني لويس بورخيس - المولع بالميثولوجيا اليهودية - من أشهر الإبداعات التي تناولت حكاية الشخصية الأسطورية وصانعها.

أما في الأدب العبري فقد استلهم العديد من الأدباء أسطورة الجولم وقاموا بتوظيفها كل وفق تفسيره لدلالاتها وتطويعه لمضامينها، ومنهم اليهودي البولندي دافيد فريشمان الذي جسد الجانب الإنساني بالشخصية الأسطورية في قصته "الجولم" (1909) من خلال وقوع المخلوق الطيني في حب ابنة المهرال خالقه، الأمر الذي شكل خطرا على الأخير فقام بإماتته. واليهودي الروسي ليفك هالبيرن الذي استمد الأسطورة وأسقطها على حاضره الذي شهد أحداث الثورة البلشيفية وما صاحبها من أهوال، فظهر الجولم بوصفه مخلصا للعالم ومنقذا للبشر في الجزء الأول من ثلاثيته المسرحية الشهيرة "نبوءات الخلاص".

وفي النهاية، تجدر الإشارة إلى أن تمثال المهرال - خالق الجولم - لا زال يحتل إلى الآن جزءا من قاعة المدينة الجديدة ببراغ، والتمثال يُنسب إلى النحات التشيكي لاديسلاف سالون في عام 1917، ويجسد المهرال بعباءته الفضفاضة ولحيته الطويلة لحظة وفاته؛ حيث ينتظره ملاك الموت (في شكل حيوان على يساره) حتى يكف عن دراسة التوراة ليقبض روحه، فيرفع المهرال رأسه عاليا ويتوقف عن القراءة، فتُسلب روحه بينما تقدم له حفيدته (المصورة في شكل فتاة عارية تتعلق بيمينه) باقة من الورود.

ناقدة من مصر

العزلة صانعة العظماء

والآن ماذا عن المعري الذي لزم بيته أربعين عاما؟

مخلص الصغير

هناك أدباء ومفكرون اختاروا العزلة فانتخبتهم ضمن عظماء الإنسانية. يصبح المعتزل محصنا ضدا العالم، كما يقول بول أوستر في "اختراع العزلة"، وهو ما يجعله يبلغ أقصى درجات الإبداع. في كتابه "تاريخ العزلة"، الصادر قبل أيام، يرى الباحث الإنجليزي ديفيد فنسنت أن عزلة المفكرين والأدباء منذ العصر الرومانسي الأوروبي كانت بمثابة محاولة للهروب من صخب العالم، والبحث عن خلوة لتأمله من بعيد. وهو في ذلك إنما يستفيد من أطروحة أب النهضة الأوروبية الشاعر والمفكر الإيطالي فرانشيسكو بيترارکا حول العزلة، وكان أول من ألف فيها، هو الذي ألهم الرومانسيين والإنسانيين بأهمية العزلة في تمجيد الكائن.

الكتّاب والمفكرون الذين اختاروا العزلة ابتعدوا عن العالم والناس من حولهم، فالتقوا ببعضهم في كتب الأعلام وسير العظماء وسجلات الخالدين عبر تاريخ الإنسانية. هكذا التقى شيخ المعرة أبوالعلاء المعري بفرانز كافكا وإميلي ديكنسون وإيميل سيوران وفرناندو بيسوا في نادي المعتزلة الكبار. وبحسب الكاتب الأسكتلندي توماس كارلير، "يُظهر التاريخ أن أغلب من قاموا بعمل عظيم قد قضوا حياتهم في عزلة". يمتلك المعتزل هذه القدرة على تأمل العالم والمجتمع من حوله، بمجرد ما يخلق مسافة تضعه في زاوية نظر بانورامية شاملة. يحدث ذلك على غرار وضعية الكاميرا البانورامية في الإخراج السينمائي، والتي تدور إلى حدود 360 درجة لتصوير ما يسمى "المشهد العام". لكن العزلة، بما هي انتصار للفرد، واحتفاء بالكائن الإنساني، تكون أيضا بمثابة استبطان داخلي، لتكشف عما يعتمل في أعمال الذات الإنسانية، ولتنصت إلى ما لا نسمعه في ضجيج العالم.

المعتزلة الجدد

بعيدا عن صخب اليومي وتفاصيله، يتخلص المعتزل من كل ما هو سطحي ولحظي وعابر، ليقدم فكرا خالصا وإبداعا طافحا بالعمق والحكمة. ولعل هذا ما دفع الشاعرة الأميركية إيميلي ديكنسون إلى التزام العزلة منذ شبابها المبكر. وهذه الشاعرة هي صاحبة القصيدة الشهيرة "زيارة إلى السماء"، وفيها اعتزال للأرض، وفيها، أيضا، تلك الرؤية البانورامية إلى هذه الأرض ومن عليها. هذه الرحلة، أو "المغادرة" هي التي قام بها المعري في رسالة الغفران على نحو عجائبي، عبر تحليق فلسفي إلى أبعد مدى. وبينما حار مؤرخو الشعر الأميركي في القرن التاسع عشر في أمر هذه الشاعرة، وأسباب نزوعها نحو العزلة، فقد خلصوا إلى أن السبب الأساس هو محاولة تأمل العالم من بعيد، لأن الاقتراب من الواقع ليس إلا ضربا من التيه في تفاصيله والغرق في شجونه.

من "المعتزلة الجدد" أيضا الكاتب الروماني إيميل سيوران، الفيلسوف الملعون، صاحب الشذرات الساخرة والاعترافات المثيرة، والذي عاش منعزلا في غرفة لأحد أصدقائه في قلب العاصمة باريس لمدة تقارب الأربعين عاما أيضا. لكنه كان يغادر بيته من حين إلى آخر. كان مؤلف "سيرك العزلة" يرفض المشاركة في اللقاءات الثقافية والحوارات الإعلامية، ليردّ بلغته الساخرة دائما أنه "لا أحد يستطيع أن يحرس عزلته إذا لم يعرف كيف يكون بغيضا". وهي سخرية سوداء، مردها إلى تشاؤم راسخ يذكرنا بتشاؤم المعري. وسيوران، هو الآخر، حين يختار العزلة، فهو لا يعتزل الناس وحسب، بل يعتزل الأفكار السائدة والمجترة، ليعانق فكرا جديدا مخالفا، وتصورات مغايرة، كما يشدد على ذلك في سجله النثري الساخر.

أما فرانز كافكا، فقد بلغ بالعزلة أقصى مراتبها، هو الذي يتحدث متمنيا "أرغب في عزلة تخلو من التفكير، أكون فيها وجها لوجه مع نفسي". وأكثر من ذلك، يذهب الكاتب التشيكي في يومياته إلى أن أيّ صوت كان يصله من الشارع، وهو في عزلته، كان يؤثر على صفاء أفكاره. في "اليوميات"، كذلك، يذهب كافكا إلى أنه في الغربة إنما يستجمع ذاته. وعبر عملية "استجماع الذات"، التي تتم بفضل العزلة، "فقد استطعت -وأنا ذلك اليائس في وحدته - أن أسحب ذاتي ثانية". هذا الانحياز إلى العزلة لدى كافكا مرده، كما يقول، هو أن "الحياة المشتركة غير قابلة للاحتمال"، وأنها إنما تقوم بتنميط الكائن

فؤاد حمدي

وحرمانه من عزلته الخاصة، التي تكمن منذ البداية في فرديته، في كونه فردا مستقلا ومتحررا مما سواه.

عزلات المعري

شيخ المعرة هو شيخ المعتزلين وسيد الكتاب الذين آثروا العزلة. والعزلة عند المعري عزلات، كما في بيتيه الشهيرين "أراني في الثلاثة من سجوني
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي
وكون النفس في الجسد الخبيث".

وإذا كان البعض قد اعتبر عزلة المعري اضطرارية، حين تجنب اللقاء بالآخرين، لكونه صار ضريرا، فلم يقو على البقاء في العاصمة بغداد، حيث اجتمع فلاسفة عصره.

إلا أن طه حسين سيعتبر عزلة الرجل اختيارية، فها هو أبوالعلاء "يعتزل الناس ومن حقه أن يلقاهم، ويلبس خشن الثياب ومن حقه أن يتخير لينها، ويأكل غليظ الطعام ومن حقه أن يتذوق رقائقه. ثم يلتزم في القافية حرفين وقد رخص له الله التزام حرف واحد. فهل وفق إلى تنفيذ هذا القانون؟"، "نعم، إلا العلم"، يجيبنا طه حسين، حيث ظل بيت الشاعر الفيلسوف قبلة لطلبة العلم في المعرة. قانون المعري هو

"لزوم ما لا يلزم"، وهذه المجاهدة هي التي تقود إلى الحقيقة، بطريق المتصوفة.

غير أن طريق المعري معرفية لا عرفانية، فإن حاد عن المعرفة سلك طريق الخيال، كما في رسالة الغفران، أو طريق الشعر، كما في دواوينه. كان المعري أول من ألف دواوين شعرية بالمعنى المعاصر، دواوين تجمع نصوصا شعرية وفق رؤية فنية وتأملية، مع وضع عنوان للديوان "سقط الزند" ثم "لزوم ما لا يلزم".

لزوم البيت

لزم المعري بيته، كما لزم البيت الشعري العربي، في تجديده الفني. بل إنه التزم بحرفين متماثلين في قافية كل بيت شعري. والكثير من النقاد ودارسي "اللزوميات" اقتصروا على هذا التجديد العروضي في تعريف اللزوميات، وفي تحديد معنى "لزوم ما لا يلزم" في البيان الشعري لأبي العلاء المعري. نعم، لقد صدَّر الشاعر هذا الديوان ببيان شعري مطول، يمتد على مدى 31 صفحة تقريبا، كلها في طرحه العروضي، بل في علم القافية تحديدا. بينما ينتهي البيان في 32 صفحة، والمقصود هنا الطبعة الأولى من تحقيق الخانجي الشهيرة. لكننا في الفقرة الأخيرة من الصفحة 31، ثم في الصفحة الأخيرة من المقدمة/البيان سوف نعثر على كلام آخر. فالمعري سيتحدث هذه المرة عن تصور جديد للقول الشعري، موجها نقدا كليا للتقليد الشعري العربي، ولأغراض الشعر المتداولة، كما حددها رواة الشعر قبل نقاده من العرب القدامى.

هذا ما ينبهنا إليه كيليطو في "أبوالعلاء المعري أو متاهات القول"، رغم أن المعري نفسه يقصر معنى اللزوم على لزوم الرويّ المزدوج في القافية، حين يقول "وجمعت ذلك كله في كتاب لقبته "لزوم ما لا يلزم"، ومعنى هذا اللقب أن القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت". لكن طرح المعري على مستوى مضمون الشعر ليس جديدا، كما يقول كيليطو، قياسا إلى ديوانه الأول "سقط الزند".

بل إن المعري نفسه يبدأ الفقرة الخاصة بـ"الشعر والصدق" في هذا البيان بقوله "وقد كنت قلت في كلام لي قديم إني رفضت الشعر رفض السقب غرسه والرأل تريكته، والغرض ما استجيز فيه الكذب، واستعين على نظامه بالشبهات. فإما الكائن عظة للسامع، وإيقاظا للمتوسن، وأمرا بالتحرز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جبلوا على الغش والمكر، فهو إن شاء الله مما يلتمس به الثواب".

ويوجه المعري النقد مباشرة لأحد كبار الرواة، منظري أغراض الشعر، وهو الأصمعي، مستحضرا ومستنكرا ما ذهب إليه من أن "الشعر باب من أبواب الباطل، فإذا أريد به غير وجهه ضعف". بينما يرد المعري بأن "الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب، وهو من القبائح". لكن، لا ننسى أن الفقرة الأولى التمهيدية من بيان المعري كانت قد صدرت عن هذا التصور الشعري الجديد، وهو يردد "كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق، توخيت فيها صدق الكلمة، ونزّهتها عن الكذب والميط... وجمعت هذا كله في كتاب لقبته لزوم ما لا يلزم".

هكذا، كان على المعري أن يلزم بيته، وأن يلزم رويّا مزدوجا من الناحية الموسيقية، وأن يلزم الصدق في شعره "صدق الكلمة"، وهو الضرير الذي يصبح مثل "إنسان العزلة في حاجة إلى التبصر"، حسب أنطوني ستور في كتاب "العزلة.. العودة إلى الذات".

وفي الأخير، فإن كتّاب العزلة ومفكّريها، منذ المعري، هم أشخاص قاسوا في مجتمعاتهم، وتعرضوا لسوء الفهم والتقدير، فلزموا بيوتهم يتأملون هذا العالم عن بعد، مستعيضين بتجاربهم الإنسانية الحدية. و"العزلة وطن الأرواح المتعبة" كما كان يقول همنغواي.

كاتب وصحافي من المغرب

فؤاد حمدي

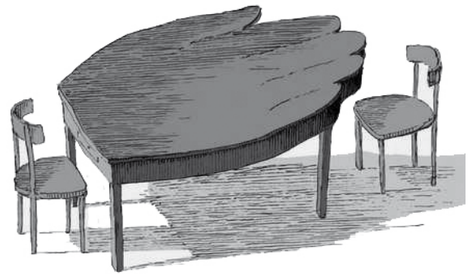

إنك تسألني ما الذي عليك اعتبار تجنبه ضرورة؟ جوابي هو التالي: الحشد الكبير. إنه شيء لا تستطيع أن تدخل فيه بلا مخاطرة. وأنا على أيّ حال مستعدٌّ للاعتراف بضعفي في هذا المجال، فأنا لا أرجع إلى البيت بالشخصية الأخلاقية نفسها التي خرجت بها، إذْ يتقلقلُ شيءٌ ما لديّ حيثُ كنت سابقاً قد توصلت إلى سلامٍ داخلي، ويعاودني مجدداً شيءٌ ما من الأشياء التي كنت قد تخلصت منها.

نحن الذين نتعافى من مرض روحي مطوَّل نماثلُ حالة الخاملين الذين تأثروا جداً بخمولهم الطويل بحيث لا يمكن إخراجهم من أبواب البيوت ولو مرة من دون تأثيرات سيئة. إن مصاحبة الناس ضمن أعداد كبيرة شيءٌ مؤذٍ بحق: ليس بينهم واحدٌ لن يُزيّنَ رذيلةً ما في أعيننا، أو يتركنا حاملين انطباعاً من رذيلته أو ملوثين بها من دون أن نعي ذلك، ولا شكَّ أنه كلما زاد حجم الحشد زاد الخطر■

كن كثرة في واحدٍ وتجنب الحشد

رسائل الفيلسوف الرواقي سينيكا في ترجمة فاتحة

الطيب الحصني

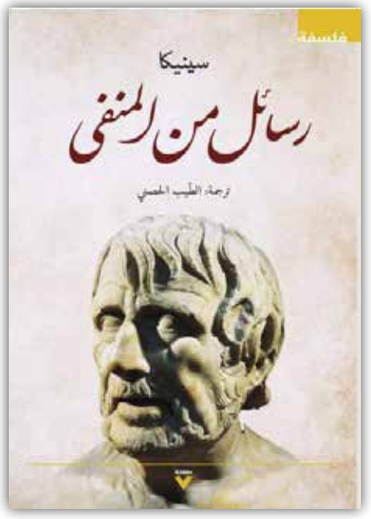

رسائل الفيلسوف الرواقي سينيكا رائعة من روائع الفلسفة القديمة، كُتبت منذ حوالى 2000 عام في فترة اعتزال الفيلسوف السياسة مخافة بطش الإمبراطور به في السنوات الأخيرة من حياته، والتي انتهت بإعدامه فعلاً على يدي نيرون عن عمرٍ ناهز السبعين.

بين دفتي الكتاب صورة أخلاقية للعالم الروماني القديم من عيني سينيكا، تظهرُ في قالب شخصي على شكل خطابٍ حميم بين الفيلسوف وصديقه، وهي صورةٌ كثيراً ما تكون مفاجئة، خصوصاً من حيث قناعات سينيكا الدينية حول الإله الواحد، ومزاوجته بين الوثنية والتوحيد خارج إطار المسيحية، وأيضاً من حيث موقفه الأخلاقي السابق لأوانه من معاملة العبيد في عصره.

الرسائل تكثيفٌ لفلسفة الأخلاق الرواقية، فتعالجُ مفاهيم الثراء والبذخ وتأثيرهما في الفرد والمجتمع، والفقر والخوف منه، والسلطة والطغاة، والصداقة والخيانة، والحياة السعيدة والكآبة، والعلم والأدب.

ستصدر قريبا ترجمة عربية فاتحة لهذه الرسائل قام بها الكاتب والمترجم السوري المقيم في القاهرة الطيب الحصني الذي خص الجديد برسالتين منها ومقدمة الترجمة.

الرواقية، ذلك المذهب المتجذر بعمق في الفلسفة والثقافة الغربيتين يعود اليوم إلى التبرعم والإيراق في الثقافة الشعبية في العالم، فما الذي يجعل نصوصاً بعمر الألفيات تصاغ مجدداً، لتساعد الناس في القرن الحادي والعشرين على إيجاد الحياة السعيدة؟

إن سبب ذلك، في جزء منه، يعود؛ ولا شكّ؛ إلى كون الرواقية؛ في متونها؛ فلسفة تفرض على متّبعها مجموعة من الممارسات يوميةً لتجويد الفكر وتحسين الحياة، وإنّ هذا يسمح لنا أن نشبه تأملات أوريليوس أو رسائل سينيكا، إلى حدّ ما، بكُتب المساعدة الذاتية التي كثُرت في عصرنا، مع فارقٍ جوهريّ: إن سينيكا أو أوريليوس أو حتى من سبقهم من الرواقيين اليونان لم يَجمعوا هذه الحِكم والممارسات بغية نشرها ربحيّاً، بل جمعوها عن قناعة إنسانية بقدرتها على التنوير.

ولعل رسائل سينيكا المثال الأوضح على ذلك، إذ كتبها في أواخر حياته - في القرن الميلادي الأول - بعد فقدانه الحظوة لدى الإمبراطور المستبد نيرون، ووجهها إلى صديقه، وقد نقول مُريده، لوكيليوس، فجاءت حوارات على نمط أدب الرسائل، إلا أن الفلسفة والوعظ فيها لا يطغيان على المرح الأدبيّ الذي يملأ رسائل الصديقين، فانظر إلى المدخل الكوميدي السياسيّ الذي يعظ فيه سينيكا لوكيليوس في شأن الصداقة:

”لقد أرسلت لي رسالة مع ’صديق‘ من أصدقائك، على حد تعبيرك، وفي الجملة التالية حذرتني من مناقشة شؤونك معه [...] أي بكلمات أخرى: لقد وصفته بأنّه صديق، وأنكرت عليه ذلك في الرسالة نفسها. حسنٌ، إذا كنت تستخدم الكلمة بالمعنى الشائع، وليس حسب معناها الدقيق عندنا، أي أنك تقول عنه ’صديقي‘ بنفس المعنى الذي نقول فيه عن المرشحين في الانتخابات أنهم ’سادة محترمون‘ [...] فلا حرج عليك في ذلك. ولكن إنْ كنت ترى في أيّ شخصٍ صديقاً ولا تثق به كما تثق بنفسك فأنتَ تقعُ في خطأ فادح، وقد أخفقت في أن تفهم حقاً القوة الكاملة للصداقة الحقيقية“.

هذه الرسائل التي كتبها سينيكا من معتزله عن السياسة والحياة العامة - أو منفاه عنها، إذ أن فقدان الحظوة لدى نيرون يعني تهديداً مستمراً بالقتل - تشكل خلاصة ما وصل

إليه الفيلسوف من نصح للحياة الرشيدة والسعيدة، ولو سمحت لنفسي بأن أعيد صياغة جوهرها بأقصر ما يمكن سيكون على الشكل التالي:

ندري جميعاً أن قسماً كبيراً من المهارات هي فنون، لا يمكن إدراكها بالدرس، فأنت مثلاً، لن تصبح ماهراً في إحراز الأهداف من الركلات الحرّة عبر دراسة المعادلات التي تربط بين وزن كرة القدم وتسارعها وانحرافها بالدوران، ولن تنجح في أن ترسم "بورتريهات" جميلة عبر دراسة المنظور الهندسي والأبعاد، بل عليك أن تمسك القلم وتحاول رسم وجهٍ تلو الآخر، ومن ثم بعد عرضها على من أثبتوا جدارتهم في ذلك الفن، تتبع نصيحتهم لتجويد رسمك، وكذلك كي تتعلم تحقيق الأهداف من الركلات الحرة لا بد لك من أن تقف على الملعب نفسه، وأن تتدرب على عدد كبير منها، حتى تبدأ بالتحسن. والادّعاء الرواقيّ هو أن معظم ما نعاني من الإخفاق فيه في حياتنا: الصداقة، العمل، الحب، الحداد على موتانا، وهلم جرّا، لا بد من إتقانها بنفس الطريقة، وفائدة دراستها نظرياً هي كفائدة معادلات تسارع الكرة للاعب كرة القدم شبه معدومة. وعلى ذلك فإن سينيكا يعطينا توجيهات قصيرة ودقيقة، جارحة وبليغة، ويعدنا بصداقات تدوم، وعلاقات لا تنتهي بأحزان، وأعمال نحقّقُ فيها ذواتنا من دون الانهيار أمام الكآبة.

إن إغراءات هذا المنهج الأخلاقي واضحة، فهو، فضلاً عن وعوده، يبرّرُ إلى حدّ كبير لماذا يكون كثير من الدارسين لمجال إنساني معين مخفقين فيه، أحد الأمثلة القريبة في الذاكرة هو انتحار جريجوري إيليس، مدير خدمات الدعم النفسي في جامعة بينسلفانيا، كما أيضاً الارتفاع الغريب لمعدل الانتحار بين المعالجين النفسيين مقارنة بعامة الناس.

كل ذلك جزء من الدافعة القوية التي ترتكز عليها الرواقيّة الجديدة والتي تزداد قوةً وعدد مريدين منذ أواخر القرن الماضي بكتب جديدة بأقلام فلاسفة كبار، وهناك أسباب أخرى تتعلق بارتباط العلم في الغرب بالمؤسسات الربحية والتعامل الإعلامي مع الفلسفة على نحو عِلمويّ لا متسع للاستفاضة فيها هنا.

علاوة على ذلك، تشكل رسائل سينيكا إطلالة فريدة على العقائد الدنيوية والروحية في روما القديمة والتي كانت مقدّمة لخطاب الكنيسة المسيحية المبكرة، فالغرب قد أسهب في تتبع تأثير المصطلحات والجدالات الرواقية في رسائل بولس الرسول والأناجيل، وحازت أعمال سينيكا على رضا المسيحيين المبكّرين، فأدرجه القديس جيروم ضمن فهرست الكتّاب المسيحيين.

ومع أن لذلك أسباباً تاريخية - إذ اعتمد جيروم على رسائل مزعومة بين سينيكا وبولس الرسول - فإن كتابات سينيكا نفسها تفيض بأفكار توحيدية عن إله عادل مهندسٍ للكون، والروح الخالدة، ويوائم سينيكا بينها وبين التقدير الذي يحافظ عليه لآلهة روما القديمة، إلا أنّه من جانبٍ آخر يرفض الخرافات، فيقول "ليس هنالك حاجة لنرفع أيدينا إلى السماء، ولا حاجة بنا للتوسل لكاهن المعبد ليسمح لنا بالاقتراب للحديث من صورة منقوشة، وكأن هذا يزيد من فرصتنا في أن نُسمَع".

والحقيقة أن المرء يجد نفسه في شيء من الحيرة عند تقديم سينيكا، ذلك أن خصوبة نثره تستفزُّ كل معارف المرء، ومحال أن يمرّ فيه من دون أن يجد معتقداته تتشذب في مكان كان يحسبه ثابتاً، وتورق في بقعة كان يحسبها جرداء إلى الأبد، وفي مكان ثالث يجرح سينيكا غصنا ثابتاً من معرفتنا بأنفسنا، ليطعّمَها بفكرٍ جديد.

أسوق على ذلك مثالاً واحداً: اتهاماته للفلاسفة بأنهم "حتى هم انحدروا إلى مستوى تحديد الاستعمالات المختلفة للمقاطع الصوتيّة، ومناقشة المعاني الصحيحة لحروف الجرّ والعطف. لقد صاروا يحسدون عالم فقه اللغة والرياضيات، وقد استحوذوا على كل العوامل السطحية من تلك الدراسات". إنّ رأيه هذا يتردّد كصدى قديم للاتهامات التي يكيلها الفلاسفة التحليليون اليوم لزملائهم القارين، حتى إن النصف الثاني من الاتهام تكرّر حرفيّاً في العقود الأخيرة عدداً من المرات بأقلامهم، وما يحضر في البال مباشرة هو نقد ليونارد جاكسون القاسي لما كتبه ليفي شتراوس في 1952 "إننا نجدُ أنفسنا نحن الأنثروبولوجيين في وضعٍ حرِج بإزاء الألسنيين. فقد اشتغلنا معهم جنباً إلى جنب، ثم [...] رأيناهم ينتقلون إلى الجهة الأخرى من الحاجز الذي يفصل العلوم الطبيعية عن العلوم الإنسانية [...] ألمّ بنا من جهتنا شيءٌ من الحزن، كما انتابنا كثيرٌ من الحسد [...] ألا يسعنا نحنُ أيضاً أن نطبق على هذا الحقل المعقد الذي تدور فيه أبحاثنا - القرابة، التنظيم الاجتماعي، الدين، الفلكلور، الفن - تلك المناهج الصارمة التي تبرهن الألسنية كلَّ يوم على فعاليتها؟".

لم تأت شعبية رسائل سينيكا عبر القرون من

عبث، ولا انكباب كبار المفكرين والأدباء على قراءتها طبعاً، إنها منهلٌ متعدد الجداول للنّهمين للفلسفة القديمة، والباحثين في تطور الأديان، ولكنها قبل كل شيء رسالةٌ تدعو إلى حياةٍ أفضل.

تجنب الحشد، وحشية الأرينا

الرسالة VII

إنك تسألني ما الذي عليك اعتبار تجنبه ضرورة؟ جوابي هو التالي: الحشد الكبير. إنه شيء لا تستطيع أن تدخل فيه بلا مخاطرة. وأنا على أيّ حال مستعدٌّ للاعتراف بضعفي في هذا المجال، فأنا لا أرجع إلى البيت بالشخصية الأخلاقية نفسها التي خرجت بها، إذْ يتقلقلُ شيءٌ ما لديّ حيثُ كنت سابقاً قد توصلت إلى سلامٍ داخلي، ويعاودني مجدداً شيءٌ ما من الأشياء التي كنت قد تخلصت منها.

نحن الذين نتعافى من مرض روحي مطوّل نماثلُ حالة الخاملين الذين تأثروا جداً بخمولهم الطويل بحيث لا يمكن إخراجهم من أبواب البيوت ولو مرة من دون تأثيرات سيئة. إن مصاحبة الناس ضمن أعداد كبيرة شيءٌ مؤذٍ بحق: ليس بينهم واحدٌ لن يُزيِّنَ رذيلةً ما في أعيننا، أو يتركنا حاملين انطباعاً من رذيلته أو ملوثين بها من دون أن نعي ذلك، ولا شكَّ أنه كلما زاد حجم الحشد زاد الخطر.

ولكن لا شيء مدمرٌ للشخصية كإمضاء الوقت في الفرجة على عروض الأرينا، إذْ هناك، عبر وسيط التسلية، تتسللُ الرذائل إلى المرء بسهولة لا تضاهى.

ما الذي تفهمه من كلامي؟ أنني أعودُ إلى بيتي أكثر أنانيةً وأكثر اتباعاً لنفسي وتساهلاً معها؟ أجل، وأكثر من ذلك، أعودُ شخصاً أكثر وحشية وأقل إنسانية لأنني كنت على تواصلٍ مع البشر. ذهبتُ مرةً إلى إحدى تلك العروض في استراحة الغداء، متوقعاً أن تكون هنالك تسلية خفيفة وذكية في ذلك الوقت، وبعض التروّي والرأفة لإراحة عيون الناس من سيلان الدم البشري. ولكن الأمر كان عكس ذلك، فكل ما سبق ذلك العرض لا يعدو كونه عملاً خيرياً إذا ما قورنَ بما شاهدت فيه. فالكلام الفارغ قد انتهى وقته الآن: والآن أمامنا القتل صرفاً وببساطة. المقاتلون لا يلبسون ما يحميهم، وأجسادهم كلها عاريةٌ أمام الضربات، وكل طعنة يلقونها تُصيبُ الهدف. والكثير من المشاهدين يفضلون ذلك على المباريات العادية، وحتى على المباريات الخاصة التي تُنظَّم لإرضاء الطلب الجماهيري. وهذا طبيعي جداً، إذ ليس ثمة خوذ أو دروعٌ تصد الأسلحة. ما المغزى من الدرع؟ أو من المهارة؟ كل هذه الأشياء لا تفيد سوى في تأخير الموت. في الصباح يُرمى الرجالُ إلى الأسود والدببة: أما في ساعة الغداء فيُرمون إلى المشاهدين. المشاهدون يصرُّون على أن كلّ من ينجح في قتلِ غريمه يجبُ أن يُلقى إلى آخرَ غيره ليُقتل هو بدوره، ويحتفظونَ للمنتصر الأخير بنوع آخر من الجزارة. المَخرَجُ الوحيد للمتنافسين هو الموت. والنار والحديد يبقيان الذبح مستمراً، وكل هذا يحصل بينما الأرينا فارغة فعلياً.

"ولكنه قاطعُ طريق، لقد قتل رجلاً". وإن كان؟ لو فرضنا أنه قاتلٌ، ويستحق هذا العقاب، فما الذي فعلته أنت أيها الملعون حتى تستحق مشاهدته؟

"اقتله! اجلده! احرقه! لمَ يهربُ من سلاح غريمه كالجبان؟ لماذا ينفرُ من القتل؟ لماذا ليس متحمساً أكثر بقليلٍ للموت؟ اجلده حتى يندفع إلى الأمام ويتحمس! اجعلهما يواجهان بعضهما بعضاً بصدرين عاريين ويتبادلان الطعنات". وعندما يحين موعد فاصلٍ في العرض "فلنقطع بعض الأعناق حالياً، لكي يكون هناك شيءٌ يحصلُ!"، إني أقول لهؤلاء الناس: اسمعوا، لا بد أنكم تستوعبون - حتى لو لم تستوعبوا أي شيء آخر - أن الأمثلة السيئة تميلُ إلى الارتداد على الذين يضربونها؟ اشكروا الآلهة الخالدة أن الرجال الذين تلقنونهم هذا الدرس في الوحشية ليسوا في موقع يستطيعون فيه استغلاله ضدكم.

عندما يكون العقل قابلاً للتأثر، ولا يملكُ استيعاباً محكماً لما هو صحيح، يجب إنقاذه من الحشد: من السهل عليه جداً أن يذهب إلى الأغلبية. إن سقراط أو كاتو أو جايوس لايليوس، لربما اهتزت مبادئهم لو أحيطوا بكل هؤلاء المختلفين عنهم: إلى هذا القدر نحنُ قليلو الحيلة - حتى ونحن نعمل على إتمام بنية شخصيتنا - أمام تحمل الرذائل عندما تأتي مصطحبةً أعداداً ضخمةً من مُريديها. مثالٌ واحدٌ على البذخ أو الجشع يفعل الكثير من الأذى: شخصٌ مقربٌ يعيشُ حياةً بذخة سوف يدفع برفيقه تدريجياً إلى الرخاوة والترهل، والجارُ الثري يستفزُّ شهوات آخر غيره، ورفيقٌ ذو طبيعة مؤذية يبثُّ بعض سوئه حتى في شخصٍ بريءٍ ومنفتح القلب بطبيعته، فأيّ تأثير تظنهُ سيكون على شخصية الفرد حين يأتي الهجومُ من العالم بأسره؟ إنك في آخر المطاف ستكرهُ العالم، أو تتشبّهُ به. ولكن الصحيح هو ترك الطريقين: فيجب ألا تصير السيئ لأن السيئين كُثر، ولا أن تُعادي الكثيرين لأنهم مختلفون عنك. اعتزل مع نفسك قدر ما تستطيع، وصاحب الذين ربما يستطيعون تحسين حالك، ورحّب بمن تستطيع تحسين حالهم، والعملية متبادلة: فالبشر يتعلمونَ عندما يُعلِّمون. وليس عندك سبب وجيه لأن تترك الفخر بمواهبك في الخارج يجرُّكَ نحو نشرها أمام نظر العامة، فيجعلك تقدمُ قراءات لأعمالك ومحاضرات. سأسعدُ برؤيتك تفعل ذلك لو أن ما ستعرضه يلائمُ الحشد الذي كنت أتحدث عنه، ولكنّ واقعَ الحال أن أحدهم ليس قادراً حقاً على استيعابك. قد تمر هنا وهناك بأحدهم، ولكن حتى هم يحتاجون تدريبك وتنميتك لهم حتى يصلوا إلى النقطة التي يستوعبون فيها تعليمك. "ومن أجل من إذاً تعلمت أنا كل هذا؟"، إن كنت قد تعلمته من أجل منفعتك أنت فليس عندك سببٌ لتخاف من أن جهدك قد ضاع.

ودعني أثبتُ لك أنني لم أكن أتعلم من أجل منفعتي أنا وحدي اليوم، دعني أشاركك ثلاثة اقتباسات ممتازة مررت بها، كل منها يتعلق بما يشبه الفكرة نفسها. واحدٌ منها أدفعُ به ديني المعتاد لهذه الرسالة، والاثنان الآخران اعتبرهما دفعةً على الحساب. يقول ديموقريطس "بالنسبة إليّ، الرجل الواحد حشد، والحشد رجلٌ واحد". وبالجودة نفسها الإجابة التي قدمها أحدهم أياً كان (فهويته غير معروفة) عندما سُئل: ما الغرضُ من كلِّ الجهد الذي أودعه في قطعة مصنوعة لن يراها إلا بضعة أشخاص؟ فأجاب "بضعة الأشخاص يكفونني، وكذلك الواحد، وكذلك اللاأحد". والثالث تعبيرٌ جميل استخدمه أبيقور في رسالة لأحد زملائه، يقول "إنني لا أكتب هذا لأعين الكثيرين، بل لعينيك وحدهما، لأن كلاً مِنّا جمهورٌ كافٍ للآخر". ضع هذه الكلمات في قلبك يا لوكيليوس، حتى تزدري التلذذ بثناء الأكثرية. الكثيرون يتحدثون عنك مادحين، ولكن هل عندك ما يدفعُك إلى الرضا عن نفسك إذا كنتَ من نوع الرجال الذي يفهمه الكثيرون؟ إن شمائلك لا يصح أن تكون متوجهةً إلى الخارج.

الألوهة والطبيعة

الرسالة XLI

إنك تحسنُ صنعاً وتتصرّف بأفضل ما يلائم مصلحتك إذا كنت، كما تقول رسالتك، تجتهد في مساعيك للحصول على فهمٍ سليم. هذا شيءٌ من الغباء أن تصلّي لأجله بينما تستطيع أن تكسبه ذاتُك من نفسها. ليست هنالك حاجة لنرفع أيدينا إلى السماء، ولا حاجة بنا للتوسّل لكاهن المعبد ليسمح لنا بالاقتراب للحديث من صورة منقوشة، وكأن هذا يزيد من فرصتنا في أن نُسمع. الإلهُ قريبٌ منك، معك، بداخلك. نعم يا لوكيليوس، تسكنُ في داخلنا روح مقدسة، تحرسنا وتراقبنا في الشر والخير الذي نفعله. وكما نعاملها ستعاملنا. حقاً، لا إنسان في خيرٍ دون الإله، هل يستطيع إنسانٌ أن يغلب الحظ إلا بمساعدة الإله؟ إنه هو الذي يدفعنا نحو الأعمال النبيلة والرفيعة. في كل إنسانٍ جيد "يوجد إلهٌ... أيُّ إلهٍ لسنا واثقين" [فرجيل، الإنيادة].

لو أنك رأيت مرةً غابةً كثيفةً من الأشجار المعمّرة وقد سمقت إلى ارتفاع استثنائي حتى أغلقت صفحةَ السماء بغشاوة كثيفة من الأغصان المتشابكة، فإن جلالةَ الغابة، وعُزلةَ البقعة، وذهولك من مكانٍ بهذه الظلمةِ المطبقة العميقة في هواء النهارِ الطلق سوف تقنعك بوجود إله. أيّ كهفٍ حيثُ الصخور تآكلت عميقاً في الجبل الجاثي فوقها، فراغها الذي حال كهفاً مبهر الحجم لم تنتجه أعمال الرجال بل نتائج عمليات الطبيعة، سوف يضربُ في روحك لمحةً من المقدس. إننا نبجّل مصادر الجداول المهمة، الأماكن التي يندفع منها فجأة نهر قويّ من مخبئه تُبنى حولها المذابح، الينابيع الساخنة تُعبَد، عُمقُ البحيرات الذي لا يدرك قراره هو الذي جعل مياهها مقدسة. وإذا مررت برجلٍ لا تخيفه الأخطار أبداً، ولا تؤثر فيه الشهوات، سعيدٍ في خصومته، هادئ في العاصفة، يرى البشرية من مكان أعلى والآلهةَ من مكانهم، أليس من المرجح أن شعوراً من التبجيل له سوف يدخلُ قلبك؟ ألن تقول لنفسك "ها أمامي شيءٌ أعظمُ وأروع من أن يعتبره أحدٌ من ذات المادة التي يسكنها جسده"؟ في ذلك الجسد نزلت قوة مقدسة. إن الروح المُرتقية والمنظمة جيداً، والتي تمر بأيّ تجربة وكأنها لا تعني الكثير، التي تبتسم في وجه كل الأشياء التي نخافها أو نصلي من أجلها، لهيَ مدفوعةٌ بقوةٍ مستقاة من السماء. شيءٌ في رُقيّ تلك الروح لا يمكن أن يقف دون سند إله. ولذلك فإن الجزء الأكبر منها موجودٌ حيثُ تنتمي، بنفس الطريقة التي تلمسُ بها أشعة الشمس الأرض ولكنها موجودةٌ في النقطة التي تنبثقُ منها، كذلك الروحُ المسكونة بالعظمة والقداسة، والتي أرسلت إلى هذا العالم كي نحصل على معرفةٍ أقرب إلى المقدس، تصاحبنا، بالتأكيد، ولكنها لا تفقد أبداً صِلتها بمنبعها. على ذلك المنبع تعتمد، هو الاتجاه الذي تستدير إليه عيناها، والاتجاه الذي تتسلقُ نحوه. الطريقة التي تتدخل بها في أمورنا طريقةُ كائنٍ أعلى.

ما هي إذن هذه الروح؟ شيءٌ له بريقٌ لا تسبّبه صفة إلا من ذاته. هل هنالك ما هو أغبى من أن نمدح في شخصٍ شيئاً ليس جزءاً منه؟ أو أكثر جنوناً من أن نعجب بأشياء يمكنُ في لحظة أن تُنقل إلى كائنٍ آخر؟ ليست الشكيمة الذهبية هي التي تجعل جواداً أفضلَ من غيره. إن إرسال أسدٍ إلى الأرينا بعد أن زُركشت لبدته بالذهب، وهو متعبٌ من المعاملة السيئة التي ترغمه عبر إرهاقه على تقبّل تزيينه وزركشته، لهو شيءٌ مختلف جداً عن إرسال أسدٍ بريٍ روحه غير منكسرة: جريءٌ في انقضاضه، كما أرادت له الطبيعة أن يكون، بكل جماله غير المشذّب، وحشٌ له مجدٌ بحيث لا يستطيع أن ينظرَ إليه أحدٌ دون خوف، إنه في عيون الناس يتخذُ موقعاً أعلى من الأسد الآخر، الطائع، المزركش برقائق الذهب.

يجب ألا يفتخر أحدٌ بشيءٍ ليس منه. نحن نمدح الكرمة إذا حمّلت أغصانها الثمر حتى انحنت دعاماتها تحت الثقلِ الذي تحمله: هل كان أحدهم ليفضل الكرمة المشهورة في الأسطورة التي يتدلى منها عنب وورقٌ من ذهب؟ الإثمار فضيلة الكرمة الخاصة. كذلك في الإنسان: المديح واجبٌ لما هو منهُ وحسب. افرض أنه يملك منزلاً جميلاً وجماعةً كبيرةً من الخدم، وكثيراً من الأرض التي تُزرع وكثيراً من المال الذي استثمره بالفائدة: لا واحد من هذه الأشياء يمكن أن يُقالَ عنه أنه منه - هي مجرد أشياءٍ حوله. امدح فيه ما لا يمكن أن يُعطى ولا يُسلب، ما هو فريدٌ في الإنسان.

تسأل ما هو؟ إنها روحه، وإتمام عقله في تلك الروح. فالإنسان حيوانٌ عاقل. إن حالة الإنسان المثالية تتحققُ حين ينجز الهدف الذي ولد لأجله. وما الذي يطلبه العقلُ منه؟ شيءٌ سهلٌ جداً: أن يعيش وفقَ طبيعته. ولكن هذا يصير شيئاً صعباً جداً بسبب الجنون الذي استشرى بين الرجال. نحنُ ندفع واحدنا الآخرَ نحو الرذائل. وكيف يمكن للناس أن يُستعادوا إلى الصحة الروحية حينما لا أحد يحاول أن يكبح هبوطهم والحشدُ يشجعهم على الاستمرار؟

كاتب ومترجم سوري مقيم في القاهرة

مأساة الراهن

رواية "المايسترو" لسعد القرش
الواقع بين الوعي والضمير

حمزة قناوي

يصنع سعد القرش في روايته «المايسترو» معادلاً موضوعياً لواقع عربي سيء، يسير إلى المجهول، عبر استحضار مجموعةٍ من الشخصيات، وتداخلها معاً في سياقات الحكي، ليصبح؛ رغم اختلاف الخلفية الحكائية لكلّ منهم، مصيرهم جميعاً مرتبطاً بالمساقِ نفسه، فإما أنهم ينجون معاً، أو يهلكون معا، ورغم الصراعات النفسية الخاصة بكلٍ منهم، فإن تداخل الحياة مع الذكريات مع الأوجاع الصغرى والكبرى ومع حديث النفس، ذلك ما يصنع الأدبية الخاصة برواية "المايسترو"، وكأننا نتأمل مقولة عزالدين إسماعيل في كتابه "التفسير النفسي للأدب"، "إن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس. النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس (...) إنها دائرة لا يفترق طرفاها إلا لكي يلتقيا".

وزّع

سعد القرش التناول النفسي بين شخصيات روايته "المايسترو" لتصبح شخصية "مصطفى" - المايسترو - هي الشخصية التي تحتل المساحة الأكبر في السرد، تليها شخصية "أنيل" ثم "نواف" ثم "تسو"، ورغم استحضار شخصية "هندية"، وشخصية "تبتية"، وشخصية خليجية منقوصة الجنسية، إلا أن المساحة الكبرى التي يتناولها السرد هي الواقع العربي بمجمله، ثم شخصية المايسترو (مصطفى) المصري الجنسية، وإن كان يتم التعريج على الواقعين الهندي والتبتي فهو غالباً ما يأتي في باب المقارنة من حيث العقائد، ومن حيث الحكمة التي احتوتها هذه البلدان.

ومع الوقت، وظهور وتراكم الثروة النفطية تحوّل أهالي هذه البلدان المعروفة تاريخياً بحكمتها، إلى العمل المضني والشاق في دول الخليج "القادر بماله على تحقيق كل شيء" وفق ما يقوله نواف، لكن المشكلة أنه لا يتحقق من كل شيء إلا مجال المتعة والشهوة للكبار وعلية القوم هناك، لتأتي المفارقة عندما يوجه (المايسترو) سؤاله إلى نواف:

- "هل صدّقت أن الخليج نزع حمالة صدرها؟!

يجيب نواف:

- الخليج قادر على كل شيء.

يقولها ويبتسم، فيسأله المايسترو:

- كل شيء؟

- نعم، كل شيء. الحمالة والصدر وصاحبته وصاحبها إذا لزم الأمر.

- تتكلم عن كيان خرافي لا يعجزه، بالمال، شيء؟".

نلاحظ أن "المايسترو" يسأل عن الخليج قاصداً المياه بعدما تم إلقاء فتاة دون حمالة صدر في مياهه من أحد اليخوت كبيرة الحجم، بينما يرد نواف قاصداً الدول والمجتمعات والشعوب وحياتها، تتحول الواقعة هنا إلى واقعة «وعي»؛ يقول لوسيان جولدمان «أيّ واقعة اجتماعية هي أساساً واقعة وعي وكل وعي تمثيل لقطاع معين من الواقع»، ويهدف القرش هنا إلى تنبيه الوعي الجمعي لدى القراء إلى المآل الذي انتهت إليه الأمور في الدول العربية، فيغوص في عمق التجربة الإنسانية وتنوّعاتها، ويختار القطاعات التي يرغب في تناولها على نحو دقيق، وكل قطاع يختاره لديه عقدته الخاصة به ومشكلاته في مواجهة الواقع.

منذ البداية، نحن نشاهد أنيل وهو مدفوع برغبة

كيشوك مراد

الحصول على كرامته في وجه سيل الإهانات من الكفيل، إنه لم يفعل شيئاً إلا مجاراة الابن الصغير لسيده العربي - ونلاحظ مقدار ما في كلمة "سيد" من إشارات ودلالات - فيصنع قارباً من بقايا مخلفات خشبية، وما إن يحضر السيد الكبير ويشاهد القارب في الحديقة حتى ينتابه الغضب، ففي حقيقة الأمر هذا القارب يذّكّره بماضٍ كانت فيه كل معيشة أهل الخليج مبنية على استخراج اللؤلؤ من المحار، ورغم القيمة الاقتصادية للؤلؤ إلا أن الواقع كان بائساً وشاقاً، واليوم بعد تبدل الأحوال، لا يريد هذا السيد ما يذكّره بهذا الواقع القديم، هو الآن يعيش واقعاً جديداً يستشعر معه أنه قادر على التحكم في مصائر الخلائق، من هنود وبنغال وتبتيين وغيرهم. وبعد العِشرة وطول الفترة التي قضاها ماني والد أنيل في خدمة السيد، يُطرد أنيل من كفالة سيده القديم، ليقول له:

- "من هناك تعرف الطريق، اخرج ولا تُرني وجهك. خذ قاربك إلى الجحيم وتسوّل لك أيّ سيد يكفلك. وأبوك باقٍ هنا، سنه أكبر من البحث عن سيد آخر، وهو مسؤول عنك، وإذا بلغني أنك ارتكبت خطأ، فستراني مرة أخرى، وأخيرة. الآن ودّع أباك، فلن تقابله بعد اليوم".

مع ثراء ووفرة الواقع الاقتصادي الذي يعيشه السيد الخليجي نجد أن الناحية النفسية مأزومة، فهناك غيابٌ لوضوح الهدف، وعدم القدرة على تحقيق السعادة، خاصة في ظل الكم الكبير من التناقضات ما بين المسموح والممنوع، وما بين الرغبة والكبت، العديد من التناقضات التي تكتنف هذا المجتمع، والتي يمثل أعلاها ما حكاه مصطفى عن تجربته عندما ادعى أنه كفيفٌ فقادته المغامرة إلى رجُلٍ تعدى الستين لكنه لوطيّ، يرتدي ثياب النساء، ويصبح مصطفى في موقف المضطر للسكوت عما يراه - وهي مفارقات تعبيرية - والمشارك في الاستمتاع بانحراف المغامرة، حتى تقوده المغامرة إلى معاشرة زوجة هذا السيد. ولكنه وفي زخم احتياجها لنداء الجسد تؤكد له أنها ليست كذلك، وأن ما جعلها تفعل هذا هو الإهمال والإهانة لإنسانيتها وتقديرها لاستشعار مراعاة هذا الرجل لها، تمنحه قلادتها التي تحمل مفارقة المعنى الدلالي بين الرفاهية والمال، لكنها جاءت هدية له وليدة نقص واحتياج نفسي، حيث تحمل كلمة "وتمت نعمة ربك".

كيفورك مراد

يتوجه سعد القرش على نحو خاص لقارئه في حكايته، مقدماً وبشكلٍ واضح - متجنباً الغموض من بين ثنايا الاعتماد على التشويق - مكتفياً بعجائبية الواقع وغرائبيته الذي يتحدث عنه، ليجد القارئ نفسه أمام منعطفات تأويلية واضحة لما يرغب أن يقوله المؤلف (راجع: أمبرتو إيكو: القارئ في الحكاية، ترجمة أنطوان أبوزيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1996)، فمصطفى المايسترو هو بشكل أو بآخر اختزالٌ للشخصية المصرية، التي هي القائد والمحرك للمنطقة العربية، أو هي الشخصية المتحدثة بلسان «المؤلف الضمني» في الرواية (راجع حول المؤلف الضمني: فريدة إبراهيم بن موسى: زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائرية: دراسة نقدية، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2013م، الأردن، ص 31)، فما من سبب داخل ثنايا الرواية يدعوه للتسمية بالمايسترو، وهو لا علاقة له بمجال الموسيقى بل يعمل في حقل المحاماة، ولكنه يمتاز بمغامراته الكثيرة التي أفضت إلى نجاح علاقاته غير الشرعية مع النساء، مع مفارقة فشله في علاقته الشرعية عندما تزوّج، ثم في النهاية يحب أميركية تبدو غريبة الأطوار بالنسبة إليه، ورغم بداية علاقته معها بشكل غير شرعي، فإن الأمر ينتهي بهما زوجاً وزوجة، وما بين قراره الأخير بالسفر للإقامة مع زوجته الأميركية، تأتي استراحته على قارب بدائي مصنوع بيد هندي مع رفقة تشعر بامتهان كرامتها الإنسانية، ليتحدثوا فيها جميعاً عن همومهم وآلامهم، لكن الحال يتحول لحديث وحكاية عن مغامرات المايسترو مصطفى.

جوهر الإمتاع الأساسي في هذه الرواية هما عنصرا الوصف والأحداث، فالمفارقة - كما أشرت - بين وضع شخصيات بعينها في محاولة الهروب من واقع القيود المفروض على البسطاء والعامة في تلك الدولة الخليجية - التي لم يسمّها - لتصبح مثالاً لأيّ دولة خليجية، تحرم على مواطنيها - حتى في الطيران الخاص بها - شرب النبيذ وفق قوانين الطيران الدولي، بينما تتيح ذلك للأجنبي الغريب.

وفي المقابل يتمتع من لديه المال أو السلطة بممارسة كل ما هو ممنوع دون أن يكون في ذلك أيّ عقوبة، لكن وهو يمارس ذلك دون سعادة حقيقية، فزوجة الشخص الذي يمارس مجونه بالاستمتاع بمعاشرة الرجال له، يعامل هذه الزوجة أسوأ معاملة إنسانية ممكنة، وهي تخونه دون قدرة منها على مقاومة هذه الخيانة، وهكذا في تتالٍ يوضح أن هناك - طوال الوقت - عقوبة ممارسة نتيجة انقسام القيم والتعالي والغطرسة وعدم تشكيل المجتمع على أسس سليمة، وغيره مما يمكن أن يقال عن الواقع المأزوم الذي تعيشه المجتمعات العربية عامة، ثم الخليجية خاصة.

لكن الرواية لا تقف عند حدود الدولة الخليجية، وإن كانت هي مناط التركيز على مفارقاتها، فمع استحضار شخصية «المايسترو» الذي لا نعرف ما الذي جمعه من صداقة مع هؤلاء، ولا المصادفة التي قرروا على إثرها في هذا اليوم بالتحديد للخروج لممارسة شرب الخمر في ظلام الخليج، متوخين الحذر من أن يتم كشفهم من قبل اليخوت الكبيرة التي يمكن أن ترميهم بالرصاص ولا تبالي لأن صاحبها سيدفع الدية في النهاية، وهي دية تختلف من المسلم عن غير المسلم، وغيرها من القضايا التي نجح في استحضارها بشكل يضعها موضع التساؤل لدى المتلقي، دون أن نغفل بروز ووضوح المؤلف أمامنا لأنهُ «ناقد ذاتي اجتماعي من خلال نصه الروائي» كما ذهب إبراهيم خليل في كتابه "في نظرية الأدب وعلم النص"، الدار العربية للعلوم - ناشرون، منشورات الاختلاف الجزائر، 2010. بيد أنه في وسط هذا الزخم الروائي الشيق والممتع يحق لنا أن نختلف مع المبدع سعد القرش في بضع نقاط، منها مثلاً واقعة تقبُّل أسرة مصطفى لمعاشرته في منزله لامرأة أميركية، وعدم رفضهم ذلك، رغم أن الأسرة هي نتاج بيئة ريفية، بل يحدث النقيض من والدته، عندما يقرر أن يتزوجها لا تعترض، بينما هي توافق على قبول استمرار العلاقة بينهما من دون أن يكون هناك رباط زواج.

مثل هذا الأمر يبدو غريباً على المجتمع المصري، ولا نستطيع تصور أنه قابل للتحقق في المجتمع المصري بهذه البساطة، رغم أنه أعطى زخماً للمُعطى السردي، حيث أوجد سيلاً من المقارنات والتدقيقات في قراءة التاريخ المصري القديم، واستقراء الصور والوقائع والمعاني، فضلاً عن الإشارة إلى ارتباط الحاضر الإنساني البسيط بالماضي المعاش، لكن تبقى بعض القيم والمعتقدات حاكمة في مثل هذه الأمور، كما أن النهاية التي جاءت على نحو لا يتناسب مع زخم الأحداث التي تم تقديمها، فبينما بدأت الحكاية وتفرّعت لنحو من التأمل في القيم والمعتقدات وكيفية معاملة المرأة المعاملة اللائقة والبحث عن الحقائق والغوص في التاريخ.

إلا أن النهاية جاءت بتحول المجموعة الهاربة من سطوة المدينة عليهم عبر قاربهم البدائي، والذين رفعوا مجدافه وتركوا التيار يحركهم فأوقعهم في طريق يخت ضخم يُقام فيه حفلُ مجون جماعي وانتهاك للأعراض، إلا أنهم في مواجهة ذلك لا يبدون أيّ ممانعة في سرقة مال صاحب هذا اليخت، وتنتهي الرواية بطريقة فانتازية بعيدة عن زخم الواقع المرّ الذي تناوله القرش، دون أن نغفل احتمالية الإشارة لثورة في هذه النهاية المتعلقة بنقر مجموعة كبيرة من الديوك أوتاداً شُدت إلى الإسفلت .

فالنهاية هنا رمزية لحتمية تبديل الأوضاع أو انهيار كل شيء فوق رؤوس أولئك المطمئنين لما هم فيه ولا يرغبون في تحريك الأمور نحو الصواب والطبيعي وما تتحرك وفقه سنّة الكون وطبيعة البشر، بيد أن النهاية جاءت سريعة ومقتضبة وصادمة على نحو حاد أوقف استطراد الحكي الممتع والمتشعب الدال عبر الشخصيات ومفترقاتها ومفارقاتها في فضاء نصي امتد لقرابة الثلاثمئة صفحة، لينهي مجريات الحكي مرةً واحدة.

ناقد وأكاديمي من مصر مقيم في الإمارات

المختصر

عواد علي

فلسطيني جدا

يعرض الروائي والكاتب المسرحي الفلسطيني نواف أبوالهيجا في سيرته الذاتية "فلسطيني جدا: الضحية في سيرة ذاتية"، الصادرة عن "الدار العربية للعلوم ناشرون" في بيروت، جوانب متعددة من حياته، فينتقل من ذكرى إلى ذكرى، ومن زمن إلى آخر، ومن مكان إلى آخر داخل الوطن وخارجه.

هي حياة حافلة بالعمل والعلم والمشاركة مع رفاقه في الدرب والهدف والعمل على تحرير الأرض المغتصبة، وهكذا من حيفا في فلسطين إلى بغداد والبصرة ثم سوريا مروراً بالكويت وبيروت والأردن والقاهرة والجزائر وليبيا والمغرب وبلدان أخرى غربية يروي المؤلف تجربة حية عاشها ليبقى كتابه وثيقة للتاريخ بلغة المؤرخ والروائي، يضعها بين أيدي القرّاء بما فيها من أفراح وأتراح يجري استحضارها بالذكريات أحيانا، وبالزمن الحاضر أحيانا أخرى ليشاركوه عيشها بما هي عليه من أحداث مقدّرة على المستوى الشخصي والعام في آن معا.

في "كلمات لا بد منها" يفتتح أبوالهيجا سيرته بالقول "إن ما كتبته ليس نصف الحقيقة ولا ربعها ولا كلها. الحقيقة تبقى منقوصة ما دام القلم يرتعش من ذكر جزيء منها حتى ولو كان لا يُرى إلا تحت مجهر حديث صغير فلا يكتبه".

جبل الرمل

بمشاهد إنسانية مؤثرة، وتفاصيل دقيقة معبرة تدوّن المصورة الفوتوغرافية الفلسطينية رندا شعث، في سيرتها التي تحمل عنوان "جبل الرمل"، الصادرة حديثا عن "دار كرمة للنشر والتوزيع" في القاهرة، حياة الاغتراب الفلسطيني الأليم في بيروت وغزة والجزائر والقاهرة، والتي يكتشف القارئ بعد قراءتها أنها قصة الاغتراب العربي على نحو عام.

كتاب رندا شعث الفريد هذا سيرة حياة عاطفية مؤثرة عن العائلة والزواج والعمل أثناء حقبة مضطربة في العالم العربي، مليئة بشخصيات لا تُنسى، وحكايات دافئة وصريحة، وذكريات تلمس كل قارئ، مطعّمة بصور جميلة التقطتها عين حساسة ومبدعة.

تقول رندا شعث في تقديمها للكتاب "كتابتي وصوري، بل حياتي كلها، كانت لها علاقة وثيقة بمحاولتي اليائسة أن أكون داخل المكان تماما. أظن أنها عقدة الإنسان المهدَّد دائما بالطرد من البلد، من المكان، وحتى من قلوب الناس". ويصف الروائي صنع الله إبراهيم هذه الكتابة بأنها "كتابة عذبة ورحلة مثيرة في الجغرافيا والتاريخ لوطن كله من خليجه إلى محيطه تعيس للغاية". ويقول الروائي محمود الورداني إنها "سيرة ذاتية مصورة مفعمة بالحنين وآلام الفقدان المتواصل".

وسيلة بورقيبة

يسعى المؤرخ التونسي نورالدين الدّقي في كتابه "وسيلة بورقيبة: اليد الخفيّة"، الصادر حديثا باللغة الفرنسية عن "دار الجنوب للنشر" في تونس، إلى إماطة اللثام عن خفايا شخصية نسائية كان لها تأثير في تاريخ تونس، وكانت محل جدل وصخب في العهد البورقيبي، وإن غاب من ملامحها الكثير وبقي البعض من تفاصيلها مجهولا.

يحاول الكتاب الإجابة على سؤال "من هي وسيلة بورقيبة، ولماذا تركت بصمتها في تاريخ تونس المعاصر؟". كما يسعى إلى استكشاف الكون المغلق لامرأة غير عادية صاغت مصيرها السياسي من خلال مثابرتها ومهاراتها الشخصية وحدّة ذكائها، انطلاقا من ولادتها في حضن عائلة بن عمار البورجوازية وصولا إلى قصر بورقيبة.

وعلى امتداد 17 فصلا، مرفقا بمحاور فرعية، اقتفى المؤلف أثر وسيلة بورقيبة في الطفولة والصبا وفي قصر الرئيس، ويتطرق إلى شخصيتها الناشطة والفاعلة في حراك المجتمع المدني، وتوّغل في معطيات تاريخية ووقائع حقيقية لسبر أغوار حياة امرأة لم تكن ككل النساء. كيف لا وهي زوجة الزعيم الحبيب بورقيبة ومستشارته الرئيسية طيلة 40 سنة من حكم تونس بعد الاستقلال. وأرفق المؤلف كتابه بمجموعة من الشهادات الحيّة لشخصيات عرفت وسيلة بورقيبة عن قرب أو عن بعد.

الخاطرات

يتناول كتاب "الخاطرات: سيرة ذاتية فلسفية"، للدكتور سعيد توفيق، أستاذ الفلسفة في كلية الآداب بجامعة القاهرة، والأمين الأسبق للمجلس الأعلى للثقافة، سيرة الرواد من المفكرين وأساتذة الفلسفة في مصر، منذ أحمد لطفى السيد ومنصور فهمي إلى عثمان أمين وزكريا إبراهيم وزكي نجيب محمود وفؤاد زكريا، وغيرهم ممن سعوا إلى الخروج بالفلسفة من قاعة الدرس إلى الميدان الثقافي الأرحب، حيث صارت الفلسفة على أيديهم زادا ثقافيا ضروريا لا يتفتح من دونه عقل، ولا ينضج وعي ولا يثرى خيال، وعلى نحو ما نفذوا ببصائرهم إلى قضايا العصر ومشكلات الواقع.

يهدف الكتاب، الصادر عن "دار بتانة" في القاهرة، إلى جعل الفلسفة تنزل من برجها العاجي لكي تتحرى دفء الأمكنة، وتمتحن فرادة الأشياء، وتتقرّى أسارير الوجوه، لتزيح النقاب عن مظاهر القبح في السحن والعلاقات، وتتغيّا مواطن الجمال، ثم تعرّج على ما يشغلنا، ويقض علينا مضاجعنا من هموم وجودية ووجدانية كبرى، مثل "الأخلاق" و"الحب" و"الحياة" و"الموت". كما ينشغل الكتاب بتأمل معاني المواقف والأحداث والشخصيات التي وقعت في خبرة المؤلف، والتي ينفذ من خلالها إلى تأمل خبرات الفن والحياة والوجود ذاته.

محمود درويش يتذكر في أوراقي

يستعيد الشاعر والكاتب اللبناني شربل داغر، في كتابه "محمود درويش يتذكر في أوراقي"، الصادر عن "مؤسسة العويس" في دبي، ما عرفه عن الشاعر محمود درويش من خلال لقاءات جمعتهما، ومعرفة قرّبتهما ومقابلات أجراها، ومن ثم محاولة جمع كل هذا في ثلاثة أبواب، خصص الباب الثالث للمقابلات وملحق للصور.

يحاول داغر في الكتاب أن يعرّج على مواضيع عديدة في وقت واحد، وكأنما يسعى إلى التقاط مقاطع من حياة درويش، متتبعاً إياه من بيروت إلى برلين وباريس ومدن عديدة جمعتهما، وقصص كثيرة تستحق أن تروى، بعضها نعرف شيئاً منها، وبعضها الآخر نقرأه أول مرة.

نقرأ في الكتاب عن طفولة محمود درويش في قريته "البروة" التي هدمت واختفت، كما قرى عربية أخرى في فلسطين، ومن ثم هجرة العائلة إلى لبنان وعودتها سريعا إلى فلسطين، خشية أن تخسر كل شيء، وعن علاقة الشاعر الوثيقة بجده الذي كان يرافقه في صغره، وعن خوفه الأحمر من ركوب الطائرة، رغم سفراته الكثيرة واضطراره للترحال، وعن موقفه القاسي جدا تجاه الشعراء الجدد، شعراء قصيدة النثر، وكيف أن هذا الموقف لان وتبدل بمرور الوقت. كما نقرأ أن درويش كتب النثر، لكنه لم يكتب قصيدة النثر.

وفي صفحات أخرى نقرأ عن موسيقى شعر درويش وأوزانه التي اعتمدها، وعن عشقه للمتنبي، الذي كان ديوانه لا يفارقه في حله وترحاله، وعن أثر شعر هذا العباسي الكبير في أشعاره. وكذلك عن موقفه من اتفاقية أوسلو. ويخصص داغر فصلاً يسميه "العاشق الدائم والزوج المستحيل"، يتحدث فيه عن علاقات الشاعر بالنساء، وهو الموضوع الذي لم يقاربه درويش صراحة، لكنه كان باستمرار موضع نمائم المثقفين.

فِتن كاتب عربي في باريس

يمثّل كتاب "فِتَن كاتب عربي في باريس"، للناقد والروائي والمترجم المغربي أحمد المديني، الصادر عن "منشورات المتوسط" في ميلانو بإيطاليا سيرة ذاتية في قالب يوميات، منها ما يتسلسل زمنيا، ومنها ما يتباعد، فيما أغلبها يأتي في سياق مثل سكة حديد يمر عليها قطار الحياة بعرباته، داخل كل عربة مسافرون، يقرأون ويحلمون ويحكون.

تُعد الإقامة في باريس، حسب هذا الكتاب، عنوانا كبيرا تنضوي بداخله عناوين متفردة لأعلام ومعالم وأزمنة مرصودة، محكية وموصوفة من بؤرة ذات الكاتب، فهي جزء من سيرة المديني، التي يدخلنا إليها بلا أقنعة، وإنما بأضعاف هويات، في قلبها هوية باريسية، فباريس هنا، التي تقلّب فيها عمالقة الأدب والفن، هي باريس الكاتب التي يعيش فيها وجغرافيته وناسه ورؤيته وإحساسه بها، وإلا كيف يمكن أن توصف مدينة بأنها تختصر العالم؟

إن الكتابة فيها تمثل ضربا من التحدي والإعجاز في وجه كل حامل قلم، إذ عليه، وهو يرسم العالمي الخارجي، أن يعي بأن قيمة الكاتب أو الكتابة تكمن في التجربة والرؤية الفردية، ولا تتأتى إلا من ذات.

ويُلاحظ أن المديني لا يلتزم التزاما تقليديا بالنسق التسلسلي للسيرة، بل يتنقل من

موقف إلى آخر، مراعيا أن يكون الانتقال من مشهد أوتوبيوغرافي إلى آخر، أو من مذكرة إلى أخرى بسلاسة وتشويق.

خلود المحبة

يضع الناقد المصري سمير غريب كتابه "خلود المحبة"، الصادر عن "الهيئة المصرية العامة للكتاب"، في إطار السيرة الذاتية، أو "نثار من السيرة"، وبتعبيره تشكّل "نتفا من سيرة ذاتية، ومدخلا وثائقيّا بما فيه من معلومات وصور فوتوغرافية وصور لخطابات شخصية تنشر لأول مرة".

ينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام، يحمل كل قسم عنوانا مستقلا، ويتفرع إلى وحدات سردية منفصلة أو لوحات مستقلة، بما في ذلك العناوين، فلا رابط بين هذه الوحدات سوى الموت الذي يوحّد الجميع ويجعلهم يقعون في دائرة الاستعادة، والراوي الذي يقوم بالاستعادة، إضافة إلى قيمة الوفاء التي تسري وتوحّد بين جميع الوحدات.

كما تتنوّع النصوص ما بين تخليد للبشر، والأماكن كشرم الشيخ وتشيلي ونقادة والمكسيك وباريس ومنفلوط، وتجمع الأماكن بين المحلية والعالمية، وهو ما يشير إلى تساوي القيمة لديه في أهميتها، فلا فرق بين نقادة التي تقبع في جنوب مصر، وباريس في حضارتها وتراثها.

ولا يقف المؤلف بما يسرده عند شخصياته فقط، وإنما يوثق ما يكتبه بمعلومات وصور فوتوغرافية وصور لخطابات شخصية، مما يجعل صورته تأتي أولا من خلال الآخرين، وكأنه يستقي ملامحه من مرآة الآخرين، سواء أكانوا شخصيات أم أماكن، ارتبط بهم أو بها. أما الجزء الخاص بسيرته الشخصية، أو تكوينه فيأتي في نهاية الجزء الثالث المعنون بـ"تجوال"، ويقصر الحديث فيه عن حياته عبر ثلاث وحدات من مجمل سبع عشرة وحدة.

من بين الصخور

تبدو السيرة الذاتية للكاتب المقدسي جميل السلحوت "من بين الصخور: مرحلة عشتها"، الصادرة عن "مكتبة كلّ شيء" في حيفا، وكأنها سيرة حفرت الصخر لتطلق الزهور، وتفجّر ينابيع متنوعة منها العذب ومنها العلقم، منها أحداث قاسية ومنها أحداث مشرقة ومشرفة. إنها سيرة ذاتية متشعبة، لها روافد، كل رافد ينبع من مكان مختلف، لكنها تلتقي في نهر واحد يكشف عن مرحلة حسّاسة من تاريخ القضية الفلسطينية التي عاشها، عبر زوايا تطرح أوّل مرّة، يتحدث فيها عمّا عاناه طلبة التّوجيهي المقدسيون في حرب يونيو 1967، بمصداقية عالية تتبع أحداثا وشخصيات وأماكن على نحو جذاب ومثير.

في هذه السيرة بوح عن مشاعر جيّاشة عبّر من خلالها عن الألم والحسرة والحزن الشديد على فقدان الوطن، مشاعر تنطوي على روح ثائرة ينبض بها قلم الكاتب، ففي كلّ مرحلة من مراحل حياته ثمة عبرة ودرس.

ونجد في هذه السيرة، أيضا، تصويرا لمعاناة العمال إلى جانب معاناة طلبة المدارس، وفتح لملفات التعيينات وكيف كانت تتمّ، أخرجها الملفات من الأدراج المغلقة.

خزانة الأسرار

يقدم الكاتب والشاعر الجزائري فيصل الأحمر في كتابه "خزانة الأسرار"، الصادر عن "دار الماهر" في الجزائر أوراقا كثيرة من طفولته، هذه المرحلة التي غالبا ما توجّه صوبها أصابع الاتهام في حياة كل كاتب. يتساءل الأحمر "ما الذي يحدث لنا في السنوات المبكرة فيؤهل الواحد منا للكتابة أكثر مما يؤهل غيره؟ ويجيب على تساؤله بأن ثمة حربا يخوضها باستمرار بسبب فقدانه شبه التام لذكريات طفولته الأولى، ولا يجد لهذا الأمر تفسيرا نهائيا، ما خلّف في نفسه عقدة تدوين كبيرة. لذا يبدو أحيانًا في حرب ضد إمكانيات المحو الكبيرة التي تتربص بالذاكرة.

يتضمن الكتاب نصوصا موزعة على خمسة فصول هي "سفر التكوين"، "سفر الخروج إلى الحب والكتابة"، "من أفواه المجانين"، "مزامير"، و"أيام الله".

وتراوح السرد بين الذاتي والاجتماعي، والوصفي والتأملي، في محاولة لإثارة فضول القارئ، من خلال إثارة قضايا قد يسكت عنها المجتمع، أو يغلّفها الفرد، عادة، بغلاف من السرية المفرطة. وراعى أسلوب الكاتب اللغة الأدبية وإضفاء جوّ من الشاعرية على النصوص، مع الحرص على خلق أبعاد لغوية دلالية تتجاوز السرد والوصف العادي، ومال في بعض المواطن إلى الرمزية.

مذكرات كاريوكا

يتناول الكاتب والباحث المصري محمد توفيق في كتابه "مذكرات كاريوكا" ما كتبه الروائي والكاتب المصري الراحل صالح مرسي، عن حياة الراقصة تحية كاريوكا منذ ميلادها وحتى قبل ثورة يوليو 1952 بأسلوب سردي أدبي وليس تقريريا. ويضم الكتاب، الصادر عن دار "نهضة مصر" في القاهرة، تفاصيل حياة كاريوكا الشخصية والمشهد العام في مصر.

كما يوثّق الكتاب الجانب الاجتماعي الآخر الخاص بكاريوكا، والمرتبط بمراحل أخرى في حياتها بعد شهرتها، وبتفاصيل كثيرة عن سجنها، وعلاقتها برؤساء مصر محمد نجيب وجمال عبدالناصر ومحمد أنور السادات وحسني مبارك. كذلك يتضمن الكتاب قصة أزواج كاريوكا الـ17، وقصة حبها للكاتب أحمد رجب التي يتم الكشف عن تفاصيلها أول مرة، وغيرها من الحكايات المدهشة.

ويجمع الكتاب في الجزء الأول بين كتابات صالح مرسي عن نشأة كاريوكا وطفولتها وما لا يعرفه الكثيرون عنها قبل شهرتها، أما الجزء الثاني فيوثّق الجانب الاجتماعي الآخر الخاص بها، والمرتبط بمراحل أخرى في حياتها بعد شهرتها، وبتفاصيل كثيرة مرتبطة بسجنها، وعلاقتها بالرؤساء الأربعة.

ويروي صاحب الكتاب في المقدمة قصة بحثه عن المذكرات، ثم يرصد سيرة كاريوكا في ما بعد ثورة يوليو، لاسيما علاقتها بالرؤساء الأربعة، وفترة السجن التي مرت بها. ويوضح أنه حاول الوقوف باحثا عن كاريوكا التي وصلت إلينا، وكاريوكا ما بين الحقيقة والأسطورة.

يذكر في هذا السياق مقال مهم كتبه الراحل إدوارد سعيد في كتابه "تأملات حول المنفى"، الذي نشر أول مرة في مجلة "الكاتبة" التي كانت تصدر في لندن منتصف التسعينات.

حليم سيرة وأغنيات مجهولة

يحمل كتاب "حليم سيرة وأغنيات مجهولة"، للناقد الفني المصري أحمد السماحي جوانب مجهولة وأغنيات غير معروفة للمطرب عبد الحليم حافظ، ويستعرض الكتاب، الصادر عن "دار بتانة" في القاهرة، السنوات الأربع المخفية في بداية مشوار العندليب الفني، في ذكرى بمناسبة ذكرى ميلاده الـ90 التي مرت في الـ21 من يونيو من العام الماضي.

يتناول الكتاب مرحلة البدايات المجهولة في حياة العندليب، وتوثيق 100 أغنية مجهولة يُكشف عنها الستار، كما يستعرض قصة حياة العندليب بكل صعوباتها.

وتحكي الراقصة ميمي فؤاد في الكتاب أول مرة عن علاقتها به، وتقدم أغنياته للدول العربية، وللنادي الأهلي، والثنائيات الغنائية التي قدمها مع كوكب صادق ويسر توفيق وعصمت عبدالعليم وحسيبة رشدي، وغيرهن من المطربات، وسر حجب ثورة يوليو 1952 لـ 20 أغنية عاطفية له، وسر خلافه مع شقيقه المطرب إسماعيل شبانة، والأغنية التي غناها الثاني وقام العندليب بإعادة غنائها بعد خمس سنوات من ظهورها.

ويهدف الكتاب إلى البحث في الفترة التي لم يتناولها الإعلام، سواء لعدم وجود مادة صحافية عنها أو لرغبة عبدالحليم حافظ نفسه في إسقاطها من تاريخه الفني، ولم يتطرق إليها في لقاءاته التلفزيونية والصحافية متعمدا، بحسب تأكيدات عدد من كبار النقاد. ويستشهد مؤلف الكاتب بعدد غير قليل من أقارب العندليب ممن هم على قيد الحياة في قريته "الحلوات" بمحافظة الشرقية، التي تقع شمال شرق القاهرة، وينتمي إليها الكاتب أيضا، وكذلك بحواراتهم المسجلة في التسجيلات القديمة للإذاعة المصرية، وبحوارات الفنان الراحل لوسائل الإعلام المختلفة.

رفيق اللحام

يوثق الناقد والتشكيلي الأردني غازي أنعيم، في كتابه "رفيق اللحام رائد الفن الأردني المعاصر"، الصادر عن "دار هبه ناشرون وموزّعون" في عمّان ضمن سلسلة "مكتبة الفنون التشكيلية"، سيرة الفنان الأردني الفلسطيني (المولود في دمشق سنة 1931)، وتجربته الممتدة قرابة سبعة عقود.

ويشير أنعيم في كتابه إلى أن اللحام خاض تجربة اللون والأبعاد من خلال الرسم والحفر والنحت والتصميم والخط العربي؛ وأنه يُعد، أيضا، أحد الرّواد الذين طبعوا تاريخ الفن التشكيلي الأردني حيث عكست تجربته الفنية مراحل مختلفة من البحث العميق والدؤوب والجهد المتواصل في تاريخ الفن وتقنياته .

أرفق المؤلف نماذج عديدة من الأعمال الفنية لرفيق اللحام تمثّل جميع مراحل مشواره الفني، إلى جانب شهادات لعدد من النقاد والفنانين والكتّاب حول تجربته الفنية مثل جبرا إبراهيم جبرا، شاكر حسن آل سعيد، رازق علوان، سعد الكعبي، وأحمد الكواملة . استطاع أنعيم أن يلمّ بجوانب مهمة من تاريخ الفنان اللحام، حيث يحتوي الكتاب على مقدمة توضح مناخاته وأبوابه، وقراءة في سيرته الذاتية، وطبيعة الوسائط التي استخدمها في حياته الفنية كالغرافيك بأنواعه والرسم والخط العربي والتصميم والعمارة، ومدى تأثير تلك المهارات والمعارف على طبيعة عمله الفني.

شجون الحكايا

يتضمن كتاب "شجون الحكايا: علاقتي بإسماعيل فهد إسماعيل" لمحمد جواد عبدالحليم، الصادر عن "دار صوفيا" في الكويت، سيرة مكثفة لحياة الروائي الراحل إسماعيل فهد إسماعيل، منذ بداية الثمانينات حتى رحيله، مسلطا الضوء على حياته المهنية في التعليم، ونشاطه في تأسيس شركة الضفاف، وتأثيره الكبير في الحركة الأدبية والفنية والمسرحية في الكويت عبر "ملتقى الثلاثاء" الذي أسسه هناك عام 1996، وامتدادا إلى التجمع الثقافي الذي كان يعقده مع مجموعة كبيرة من الكتاب الكويتيين والعرب في شقته الصغيرة، ونشاطه في البصرة في منتصف ستينات القرن العشرين مع مجموعة متميزة من أدباء البصرة، الذين برزت أسماؤهم في السبعينات مثل عبدالكريم كاصد، مصطفى عبدالله، محمد طالب محمد، عبدالجليل المياح، جاسم العايف، يوسف السالم، جميل الشبيبي وغيرهم.

ويبين المؤلف أن الروائي إسماعيل تمكّن من أن يكون قطبا في هذه التجمعات بسبب مرونته وثقافته الواسعة، وقدرته على الاستماع للرأي الآخر، من دون ضجيج أو تعصب أيديولوجي أو مذهبي. يقول المؤلف إن كتابه هذا بمنزلة "نشيج الذكريات، ومداد قلم الصحبة التي امتدت بلا حدود مع الفهد إسماعيل في الحكايات على مدى زمن العمر الخليجي الذي أشعب قلب تاريخ أخوّة العلاقة، يخطو فيها الروائي إسماعيل بكل ثقة المسطور من إبداعه، وقد حملته معه وأودعته في عنبر الأمانة والحفاظ على الحقيقة".

كاتب من العراق مقيم في عمان

رسالة دبي

بنكين أحمد

الكتابة بالكاميرا

بعد دخوله مضمار المسابقات والمعارض الدولية لفن التصوير الضوئي وتحقيقه العديد من الجوائز والميداليات والشهادات، منح الاتحاد العالمي للتصوير الضوئي ومقرّه في إيطاليا لقب التاج الأول للمصور السوري بنكين أحمد، ليدخل اسم سوريا للمرة الأولى في قائمة حاملي ألقاب التاج بالاتحاد في فبراير 2020.

يأتي هذا بعد مشاركة الفنان بنكين أحمد بأعماله في التصوير الضوئي في المسابقات التي أُقيمت في أكثر من خمس عشرة دولة، حصد فيها ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية بالإضافة إلى جوائز شرفية وشهادات، مُنحت من الاتحاد الدولي الفيدرالي لفن التصوير الضوئي، وجمعية التصوير الأميركية، وعدد من المنظمات والاتحادات المعنية بفن التصوير الضوئي، والتي ترعى رسمياً هذه المسابقات والمعارض.

وحسب نظام النقاط المعتمد في الاتحاد العالمي للتصوير، فإن هذه الجوائز تعادل نقاطاً تخوّل المصور الحصول على ألقاب أعلى بناء على مجموعها، وكلما زاد عدد النقاط المحققة، ارتقى المصور بالألقاب.

بدأ بنكين أحمد المولود في حلب في العام 1986 مسيرته في فن التصوير الضوئي في العام 2007 امتداداً لشغفه وعمله في مجال الفنون الرقمية والتصميم والإخراج، وقد أقام معرضه الفردي الأول بحلب في العام 2009، قبل أن ينتقل إلى دبي في دولة الإمارات العربية المتحدة وألمانيا، ليقدم أعمالاً في مواضيع ومحاور مختلفة من خلال أماكن إقامته وخلال أسفاره. من أبرز تلك المواضيع تصوير الخيل، والبورتريهات، والتصوير المعماري، وكذلك المفاهيمي، وغيرها. ويقدم الفنان محاضرات وورش عمل في فن التصوير.

هو عضو في عدد من المنظمات الدولية والإقليمية مثل الاتحاد الدولي الفيدرالي لفن التصوير الضوئي (FIAP) ومقره في سويسرا، والاتحاد العالمي للتصوير الضوئي (GPU)، واتحاد المصورين العرب، وجمعية التصوير الأميركية (PSA)، ومركز الخليج للمصورين، ساعياً إلى وضع بصمة سورية وكردية أخرى في هذا المجال، والمساهمة في تسليط الضوء على النتاج الفكري والثقافي والفني لسوريا بكل مكوناتها من أبناء آلاف الأعوام من الحضارة، على أمل أن يقدم شيئاً ما وإن كان بسيطاً، معتبراً هذا الإنجاز مجرد ذرة ضوء صغيرة أمام ضياء عدسات مصورين وثّقوا ما فعله الطغاة والعنصريون والطائفيون وقوى الاحتلال التي جلبوها لتدمير مهد الحضارة وفنونها وسلب هويتها وسيادتها، مؤمناً بأن للفنون والآداب وتحديداً التصوير الضوئي أثرا في رسم ملامح كل مرحلة زمنية واستشراف مستقبل واعد يملؤه الفن والسلام.

هنا حوار معه لـ"الجديد" حول تجربته اللافتة وآرائه في فن التصوير.

قلم التحرير

الجديد: كيف بدأت علاقتك بفن التصوير، وماذا يعني لك أن تلقط صورة لكائن أو ظاهرة أو موضوع؟

بنكين أحمد: كثيراً ما أفسر تلك الأمور التي لا يمكن شرحها بعبارات مباشرة أنها تدور في فلك المعرفة الفطرية أكثر منها في المعرفة الذوقية، هذا حسب المذهب الفلسفي لمحي الدين بن عربي، كذلك كان حالي مع التصوير الضوئي، فالعين تقرأ المشاهد أحياناً بأكثر من تأويل، وتقرأ تفاصيل دفينة، ربما حين بدأت ألتفت إلى هذا بناء على المعرفة الفطرية، وطورت الأمر بالمعرفة الذوقية أو المكتسبة، والتي كنت ومازلت أستمدها من خلال فن التصميم والرسوميات، مذاك بدأت تتبلور علاقتي بفن التصوير الذي مكنني من سرد قصص وتقديم رسائل تقرؤها الأعين وتلمِس الوعي الإدراكي والوعي الباطن بشكل ما، رسائل ربما لا تترك لخيال المتلقي أن يرسمها إذا كُتبت بالحرف، وعليه، فإن التقاط صورة لكائن أو ظاهرة أو موضوع هو سرد قصة بصرية وتجميد للزمن في لحظة ما لتوثيق الحدث أو تسليط الضوء على جمالية مشهد ما.

كل وجه حكاية

الجديد: ماذا تريد من تصوير الوجوه؟ ماذا تحاول أن تقرأ في الوجه، هل هناك فلسفة لفن البورتريه في نظرك، وما هي

بنكين أحمد.. أول سوري يحقق لقب التاج في الاتحاد العالمي للتصوير

فلسفتك الشخصية؟

بنكين أحمد: كما أسلفت الصورة أداة سرد قصصي، ولكل وجه قصة، وقد تتقاطع بعض التفاصيل من قصص وجوه الكثيرين وتروي فكرة معينة، فقد تعكس المزاج العام لمجتمع ما أو إثنية أو فئة معينة، وتخلق ربطاً بين تلك الوجوه، مثل الشارب الطويل لدى الرجال الإيزيديين، أو الشعر واللحية الطويلين عند أبناء المعتقد السيخي، أو النظرة الحادة والقوية لدى البدو في منطقتنا، أو حتى عند الفتيات اللاتي يتبعن نمط الموضة السائدة في فترة ما، تلك المعالم تُشكل إطاراً لتلك الفئات، ويكاد البعض ينظر إليهم كموضوع واحد، بيد أن هنالك الكثير من التفاصيل التي إذا ما دققنا فيها، لوجدنا أن لكل شخص لوحته الخاصة التي تعكس ما مر به في حياته وما يتأمله في مستقبله، تلك التفاصيل مدونة في تجاعيد الوجه وبريق العين والابتسامة التي تروي الكثير مما أبهج الشخص أو أحزنه، تلك بعض الأمور التي أبحث عنها في الوجوه، لكن أترك إطارها لتكمل باقي فصول القصة أحياناً، أو أقوم بتحييدها من خلال قص كادر الصورة أو معالجتها رقمياً لأُبرز التفاصيل العميقة، ولعل أكثر ما يلفتني أن التفاؤل والأمل والسلام يمكن لمسها أكثر بكثير في وجوه من حياتهم بسيطة ومتواضعة مقارنة بالآخرين، هؤلاء يُعطوننا بصورهم الكثير من الدروس، إنني أصور لكي أتعلم دورساً في الحياة.

العين أولاً

الجديد: تعطي دروسا في التصوير، ماذا تقول لمن يمسك كاميرا للمرة الأولى، إلام ستلفت نظره أول ما تفعل؟

بنكين أحمد: أقول له إن آلة التصوير هي بمثابة قلم، وأنت هو الكاتب، وحبرك هو العلم والمعرفة والثقافة، والصورة التي ستلتقطها هي القصة التي سترويها، لكن الفضاء هنا أكبر وستعبّر به أكثر من الكلمات العادية. ويتعين على المصور أن يقرأ القصة بنفسه قبل أن يرويها في الصورة، عليه فهم المشهد ومعالمه، قبل ضغط زر التصوير، ومهما كانت آلة التصوير متواضعة أو متطورة، فإن العين هي التي رسمتها قبل أن تفعل الكاميرا.

هنالك قواعد للتصوير مثل قاعدة التثليث والنسبة الذهبية والعناصر المكررة وغيرها، وأنا أجدها خطوة انطلاق مناسبة في بداية طريق المصور، لكن في مرحلة تالية أريدها أن تصبح مجرد توصيات لا تُقيد المصور، وأنا على يقين أن تلك القواعد وُضعت لتُكسر بالإبداع. الأمر أشبه بتعلم الكتابة، ثم إطلاق العنان للتخطيط والتفنن به.

الجديد: ما هي أبرز أعمالك في التصوير، وكيف تستعيد أوقات التقاط الصور.. هل للتصوير أوقات زمنية ونفسية معينة؟

بنكين أحمد: لعل صور الخيل هي أبرز الأعمال إلى جانب بعض البورتريهات التي استوقفت تفاصيلها عشاق فن التصوير، كذلك بعض الصور في صحراء الربع الخالي، تلك الصور تُعيدني إلى تلك اللحظات التأملية في الصحراء أو على الجبال والاحتكاك بالخيل والطبيعة، إنها قوة الصورة في استنهاض المشاعر واللحظات الماضية من جديد. كلنا يُجمع على الزمن حين يمضي، ما من شيء يُعيده، لكن الصور والقصص تُعيد ذكريات اللحظات الماضية، وهذا يدفعني إلى اعتبار كل لحظة أنها لحظة تصوير وإلا فهي ماضية دون عودة. طبعاً هنا نتحدث بصرف النظر عن توقيت الساعة الزرقاء والذهبية عند طلوع الشمس وغروبها.

ولعل التيقظ والحدس والوفرة المعرفية بالفن ومعالمه وقواعده تُكسب المصور المَلَكة في أن يستقرئ ما يحيط به من جماد وما يدور حوله من أحداث، وفي لحظتها يستل آلة التصوير ويلتقط المشهد، إذ يزداد تأهب المصور واستعداده نفسياً وزمنياً طرداً مع المعرفة الذوقية وتناغمها مع المعرفة الفطرية، وبتعبير آخر الممارسة والتعلم يحيّدان قيود الزمن والحالة النفسية.

رسالة دبي

الجديد: حصلت على العديد من الجوائز العالمية ماذا يعني لك الحصول على جائزة؟

بنكين أحمد: المشاركة في المسابقات الدولية والمحلية وإن لم تتحقق من ورائها جائزة هي فرصة لتقديم الأعمال وعرضها أمام جمهور سيقرأ اسم سوريا واسم المصور باللغة الكردية، وهي لفتة إلى ثقافة شعبنا ومكوناته التي كانت مجهولة للكثيرين حول العالم بسبب فاشية النظام السوري، من جهة، وأجندات الإعلام، وإذا حققت صورة ما ميدالية أو جائزة، يكون تسليط الضوء عليها أكبر وتحديداً تلك التي تعكس شيئاً من التراث الشرقي وجماله كالخيل والزي التقليدي، وهذا هو المكسب الأكبر، وبكل تأكيد فإن حصد الجوائز والألقاب على الصعيد الشخصي يعزز ملف المصور ومسيرته والتعريف به في أوساط فن التصوير الضوئي.

حرية المصور

الجديد: التصوير مرتبط بدرجة الحرية التي يتمتع بها الافراد في المجتمعات. حتى وقت قريب كانت السلطات في البلاد العربية تخشى من الكاميرا كيف تعاملت مع هذه المسالة؟

بنكين أحمد: فضلاً عن تجنب التصوير في أماكن يكثر فيها عناصر الأمن ربما كنت أفضل حظاً من العديد من الزملاء المصورين بهيئتي، وشعري الطويل ، وارتياد أماكن مثل حي الجديدة في حلب القديمة وسوق المدينة التاريخي ومحيط المسجد الأموي كوني أحببت المواضيع هنالك، فيعتقد البعض أنني مجرد سائح عابر يسير بحرية، بينما كنت أسيراً محدود التنقل وأستخدم الكاميرا خلسةً أحياناً لتجنب أيّ مآلات، كان الأمر مضحكاً مبكياً، ولم أشعر بمدى هذه المعاناة إلا عندما انتقلت إلى دبي وسافرت إلى العديد من الدول وعشت الحرية القصوى في تصوير كل المواضيع في أيّ مكان.

الجديد: الناس يتعاملون مع كاميرا المصور بتحفظ، عندما يلفتك وجه وفي يدك الكاميرا هل تختلس الصورة أم تسال صاحب الوجه أن يسمح لك بتصويره.. كيف تتصرف عادة؟

بنكين أحمد: في العام 2009 أقمت أول معرض فردي لي بحلب، وتضمن ما يربو على 30 عملاً، اثنان منهما فقط كانا صور بورتريه، رجل وسيدة، وكلاهما كانا في خريف العمر، العُرف المجتمعي والخشية أحياناً حالا دون تصوير الأشخاص، لكن عندما يسافر المصوّر ويطلب من أهالي البلد الذي يزوره أن يصورهم، يلقى قبولاً أكثر من أن يطلب منه مواطنه، وفي كل الأحوال السؤال واجب ومن أُسس أخلاقيات المصور، نجد البعض رحب الصدر وآخرين يتحفظون، لكنني أجد تقلصاً نسبياً في هذا بعد انتشار الهواتف ذات الكاميرا وشبكات التواصل الاجتماعي وبات تداول الصورة أكثر سلاسة، أحياناً قد أختلس صوراً بعد الحصول على موافقة الشخص وأخذ لقطات مباشرة، بعدها ألتقط أخرى دون انتباه الشخص عندما يكون على سجيته وعفويته، ثم أُطلعه عليها ليأذن لي بها.

الجديد: من هم المصورون الذين ألهموك أو شكلوا بأعمالهم حافزا لك مع بداية تجربتك في التصوير؟

بنكين أحمد: في الواقع ليست هنالك أسماء محددة لكن بشكل عام كانت الصور بالأبيض والأسود (الأُحادي) خصوصاً التجريدية لافتة بالنسبة إليّ أياً كان الفنان الذي وراءها، كذلك كان لأعمال الفنانين التشكيليين والنحاتين السوريين مثل لؤي كيالي وعبدالرحمن موقّت وفاتح المدرس أثر في التعرف على منظور جديد للفن من خلال أساليبهم.

لكن مع مرور الأيام وبعد قراءة العديد من الكتب ومشاهدة الكثير من المقاطع المرئية على شبكة الإنترنت حول التصوير الضوئي، واحتكاكي بالعديد من الزملاء من اتحاد المصورين العرب ومركز الخليج للمصورين، تكوّنت لديّ قناعة أن كل مصور هو مصدر إلهام لي يجب ألا ينقطع.

أجرت الحوار: يسرى أركيلة

هيثم الزبيدي

إحباط فايروسي

اكتملت حكاية الآخرين فمتى تبدأ حكايتنا؟

وباء كورونا شيء محبط. ابتداء من العزل الذاتي، إلى توقف الأعمال، إلى الاصابات والآلام والوفيات، إلى عودة الحدود وتوقف حركة العالم، إلى التفكير بتبعاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وصولا إلى الإحساس بأنك عاجز أمام شيء غير مرئي. لا توجد بالطبع جثث ممدة في الشوارع أو مصابون تحولوا إلى زومبي مخيف كما أتحفتنا الأفلام على مدى العشرات من السنين. الأمور هادئة نسبيا، ولعل الاستجابة بمغادرة الشارع والاكتفاء بالجلوس في البيت، في إجازة أو عمل عن بعد، كانت لافتة. السيطرة الحكومية تبدو أقوى مما كنا نتخيلها في فرض تعليمات الحجر، والسيطرة الإعلامية أهم وأعمق في تهيئة الناس نفسيا لقبول ما لم يكن بالحسبان. لكن كل هذا لا يمنع من الإحساس بالإحباط.

لمجلة ثقافية يبدو الإحباط بأبعاد مختلفة وكثيرة. من الناحية العملية، تضطر أن تنشر عددا مزدوجا وتؤجل الطباعة لأن اللوجستيات إما صعبة او متوقّفة. المطبعة توقفت لأن الورق متهم بنقل الفايروس. لو مرّت قضية الطباعة ووجدت مطبعة بديلة، فكيف تحل مشكلة التوزيع. لا سيارات تنقل ولا مكتبات تستقبل ولا طائرات توصل العدد الجديد إلى أيّ من الأسواق العربية التي تهتم بمجلة ثقافية. طاقم المجلة يجلس كل في بيته بانتظار الضوء الأخضر ليقول «ها قد عدنا». لكن الأبعاد الثانية لا تقل أهمية. خذ مثلا إحباط الناشر أو رئيس التحرير أو الكاتب. ينشرون ويكتبون عن التنوير، ويخلصون في تقديم أفكار يعتقدون أنها تغيّر في بركة المياه الراكدة في واقعنا المعرفي والفكري. سنوات من العمل والمثابرة في محاولة تحريك الوعي ليخرج من الخرافة والتفسيرات الميتافيزيقية، لتجد نفسك أمام ردة فعل شعبية قدرية، حتى عند من يفترض أنهم من قرائك ومن أثّرت فيهم بالكتابة والحديث على مدى سنوات. بعد مئات الآلاف من الكلمات التي سطرناها على هذه الصفحات، لا تزال شريحة كبرى من مجتمعاتنا، من الأميّين والمتعلمين على حد سواء، تستمع إلى رأي رجل الدين والعراف وأشباه الأميين من مفسّري علامات الساعة. كمية الكلام المتداول على الوسائط الاجتماعية هائل. ومن يستخدم فيسبوك وتويتر وواتساب نفترض أنه متعلم ولديه الحد الأدنى من المعرفة بالأدوات العصرية في عالم متصل. لكن الكثير من هذا الكلام لغو وترديد لأدعية وتمنيات، بدلا من أن يكون نقاشا في لحظة مفصلية وتريّثا لإدراك ما يحدث من حولنا، وما يمكن أن يجرّه الوباء علينا من كوارث نفسية واجتماعية وسياسية، أكبر بكثير من غريزة البقاء الشخصي. بعد سنوات من النشر والكتابة والاهتمام والإنفاق، تكتشف أنك كنت تحرث في البحر. في مجتمعات غيبية، لا تتغير الأمور إلا لكي تعود إلى حالها.

الإحباط أيضا يتواصل إلى ما نعد به أنفسنا من رغبة في التقدم والتطور. لا أعرف كم هو عدد الجامعات والمعاهد العلمية المتخصصة في عالمنا العربي. هو عدد كبير لا شك، بالمئات وربما بالآلاف. وفي كثير منها - ونظريا كلها - كليات ومختبرات للدراسات الصحية والبيولوجية. هناك عشرات الآلاف من الباحثين وأساتذة الجامعات والأطباء ممن يتخصصون - نظريا - بالبحث العلمي الصحي والطبي والبيولوجي والمخبري. منهم نسبة كبيرة يجب أن تكون الأوبئة شاغلهم الأول، طالما لا زال في مجتمعاتنا ما يكفي من التخلف ونقص البنى التحتية وتراجع الخدمات الصحية والبلدية، ممّا يسهّل انتشار الأوبئة. تتصفح يوميا الأخبار وتجد أن العلماء والباحثين في كل العالم يعملون على مدار الساعة على أمصال واقية واختبارات كشف فعالة ومحاولات لإيجاد العلاج للفايروس. لكن لا تسمع أو تقرأ بأن عالمنا العربي مهتمّ بالأصل، بل ينتظر مشروع الإنقاذ الغربي أو الشرقي الصيني أو الهندي أو الياباني. يوتيوب مليء بخبرائنا وأطبائنا يفتون بالنصائح والإرشادات، وكنا نتمنى أن يكونوا في مختبراتهم يضيعون الوقت مع الفايروس في محاولة رصده وتحييده، وليس معنا. الفايروس لا يمكن أن يقتل بالصدفة أو من خلال معجزة كتلك التي تطل علينا في صحفنا يوميا عن اكتشافات «علمية» عربية لا تتوقف عن علاجات لأمراض السرطان والإيدز والكبد الفايروسي. بالطبع كلنا نعرف أنها اكتشافات وهمية لا قيمة لها. «صباع كفتة» على أقصى تقدير. اكتشافات تعزز الإحباط.

يقال إن الطاعون كان لحظة فارقة في حياة أوروبا، حين أدرك الناس أن الدجل والخرافة والأفكار الغيبية لا يمكن أن تنقذهم. يعتقد مؤرخون أنها كانت لحظة الحقيقة، على الأقل لبعض التنويريين ممن وجدوا الفرصة لتنبيه الناس وحثهم على النظر لحياتهم بشكل مختلف. بقية الحكاية في الغرب من عصور النهضة والتنوير والثورة الصناعية والطبية والعلمية والتقنية معروفة. متى تبدأ حكايتنا؟ ■

كاتب عراقي مقيم في لندن